

ألكسندر شارف

تاريخ مصر القديمة

من فجر التاريخ حتى إنشاء مدينة الإسكندرية

ترجمة : د. عبد المنعم أبو بكر



ألكسندر شارف

تاريخ مصر القديمة

من فجرالتاريخ حتى إنشاء مدينة الإسكندرية



ترجمة : د. عبد المنعم أبو بكر



للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES



تاريخ مصر القديمة

من فجر التاريخ حتى إنشاء مدينة الإسكندرية

تأليف

الكسندر شارف

ترجمة

الدكتور عبد المنعم أبوبكر

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

<table>
<tr>
<td>

</td>
<td>

بطاقة الفهرسة

شارف الكسندر

تاريخ مصر القديمة من فجر التاريخ حتى انشاء مدينة الاسكندرية / تأليف الكسندر شارف؛ ترجمة عبد المنعم أبوبكر ؛ تقديم قاسم عبده قاسم. ط١- الجيزة : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠١٣م

٢٥٦ صفحة ؛ ١٧-٢٤سم

تدمك ٣ ٨ ٠ ٣ ٣٢٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١-- مصر القديمة - تاريخ

أ- أبوبكر، عبد المنعم (مترجم)

ب- قاسم ، قاسم عبده (مقدم)

</td>
</tr>
</table>

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع المريوطية - الهرم- ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٣٨٧١٦٩٣

Publisher : EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5 , Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 33871693

web site : WWW.Dar-Ein.com / Email : dar_ein@hotmail.com

الفهرس

صفحة

الفصل الرابع

الفصل الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هناك بعض الكتب المهمة التى صدرت منذ فترة طويلة ؛ وتفتقر إليها المكتبة العربية حاليا، وتعتبر دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية أن من واجبها إعادة نشر مثل هذه الكتب بما يحقق الفائدة المرجوة منها ؛ لاسيما أن هذه الكتب القديمة ما تزال تحتفظ بقيمتها العلمية والثقافية .

والكتاب الذى نقدمه اليوم فى مجال التاريخ المصرى القديم بعنوان «تاريخ مصر القديمة : من فجر التاريخ حتى إنشاء مدينة الإسكندرية»، وهو من تأليف اثنين من كبار علماء المصريات الألمان «ألكسندر شارف Alexander Sharff وآنطون مورتجات Anton Moortgat . وترجمه عن اللغة الألمانية الدكتور عبد المنعم أبوبكر وراجعه الدكتور مراد كامل . وهو ما يعنى أن الكتاب فى أصله الألمانى وترجمته العربية ثمرة جهد مشترك لأربعة من العلماء البارزين فى هذا المجال .

وقد حرصت «دار عين» على أن تخرج هذه الطبعة فى صورة جميلة، وزودناها بمجموعة من الصور والنقوش التى تعرض للمراحل المختلفة من تاريخ مصر القديمة ، والحياة فيها بكافة جوانبها وتفاصيلها ، كما وضعنا خريطة جديدة أكثر وضوحًا تبين مناطق وأقاليم مصر تحت حكم الفراعنة. ومن ناحية أخرى ، فإن الكتاب الذى نقدمه يعتبر حلقة فى سلسلة من الكتب القديمة التى نعيد نشرها تباعًا بسبب ما تحمله من قيمة علمية وأكاديمية متجددة.

هذا الكتاب يقدم مسحًا طيبا للتاريخ المصرى منذ استقرار الإنسان فى وادى النيل يبنى القرى، ويعمل بالزراعة ، ويستأنس الحيوان، ويبتكر الكتابة والتقويم حتى نهاية تلك الفترة

الطويلة التى قسمها مانيتون السمنودى، المؤرخ المصرى إلى ثلاثين أسرة حاكمة ، وغزو الإسكندر المقدونى للبلاد وبناء مدينة الإسكندرية لتبدأ بذلك فترة جديدة فى التاريخ المصرى عرفت باسم عصر البطالمة ، التى بدأت ببطليموس الأول أحد القادة فى جيش الإسكندر وانتهت بمصرع كليوباترا السابعة الشهيرة ما بين الحب والحرب.

ويسعدنا في دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية أن نقدم هذا الكتاب ضمن مجموعة إصداراتنا ، راجين الله أن يكون فيه بعض الخير.

والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

مقدمـــة

ربما كان من الضرورى - قبل أن نبدأ فى عرض التاريخ المصرى القديم بأحداثه - أن نجيب عن سؤالين ، أما أولهما فهو: ترى هل ثمة نفع من وراء دراسة التاريخ وحضارة شعب كان له المقام الأول فى الأحقاب السالفة .. على دثوره وانقطاع ما بيننا وبينه من صلات ؟ .. وأما ثانيهما فهو : لماذا نعيد المحاولة اليوم فى تقديم عرض جديد لتاريخ الشعب المصرى القديم وننشره فى ألمانيا التى تمزقت أوصالها ووقعت فريسة لأقسى تجربة مرت على أى شعب من الشعوب فى أية فترة من فترات التاريخ البشرى ؟

إن كل هؤلاء الذين لا يعيشون فى حاضرهم ، ولا يقنعون إلا بأن يمدوا أبصارهم نحو آفاق أوسع مما تحيط بهم ، ويشعرون بالقيم التاريخية ، والذين يحاولون التعرف على كنه الأشياء .. يتساءلون من أين أتت وكيف نشأت ؟ وهؤلاء جميعا لا يجدون إجابة عن أسئلتهم إلا عند ذلك الشعب المتحضر الذى عاش على ضفاف النيل . ويكفى أن نذكر أمرين لا يمكن لحياتنا اليومية أن تقوم بدونهما ، وكلاهما نشأ فى مصر القديمة: أولهما تقويمنا الشمسى وتقسيم السنة إلى اثنى عشر شهرا ، والشهر إلى ثلاثين يوما ، وثانيهما فكرة الحروف الأبجدية ، أو بمعنى آخر أنه أصبح فى الاستطاعة كتابة أية لغة فى العالم بواسطة علامات محددة العدد .. كل علامة منها تدل على حرف معين .

نزيد على ذلك أن «التاريخ» نشأ بمعناه الحقيقى ويمكننا أن نتتبع بدايته الأولى الموغلة فى القدم عند الشعبين المتحضرين اللذين سكنا وادى النيل ووادى الفرات، بل أكثر من هذا أننا لا نشك فى أن المقومات الأولى للحضارة الأوروبية سواء فى بلاد اليونان أو فى ايطاليا ، قد قامت على أسس الحضارة الشرقية القديمة. فإذا تركنا جانبا كل ما قلناه عن أهمية التاريخ المصرى ، فستظل مصر بالنسبة لنا وفى ميدان الحضارة بمثابة المعلم الأول.

وليس هناك أمة واحدة من أمم العالم تستطيع منافسة مصر فى ترابط عصور تاريخها ، فنحن نستطيع أن نتتبع تطور الأحداث التاريخية والتدرج الحضارى لها طوال أربعين قرنا دون أن تنقطع

بين أيدينا حلقات السلسلة التى تبدأ منذ العصور المبكرة وتتدرج على مر السنين ، تارة تزدهر وتارة أخرى تكبو، وتنتهى فى آخر الأمر بخاتمة مرة، إلا أنها كانت الخاتمة لشعب مكافح عاش قرونا طويلة أدى فيها واجبه كاملا كشعب حر مستقل .. الخاتمة التى فرضها عليه شعب الفرس حين دخل قمبيز أرض مصر وسلب أهلها استقلالهم عام ٥٢٥ ق.م واضطرتهم الظروف أن يعيشوا تحكمهم شعوب أجنبية حتى عصرنا الحديث (وحتى عام ١٩٥٢ حين قام نفر من أبنائها وأعادوا إليها استقلالها وكرامتها وقضوا على الاستعمار وأبعدوه عن بلادهم إلى غير رجعة).

وعلينا أن نتساءل الآن، وفى معرض الحديث عن النتائج التى تعود علينا من دراسة التاريخ المصرى القديم، هل نستطيع غض النظر عن أهرام مصر وعن آثارهم المختلفة القائمة فيها، وعن تلك التحف الرائعة التى تملأ متاحف العالم فى أوروبا وأمريكا؟ وبعبارة أخرى هل نستطيع تصور وجود جيل من الناس ينظر نظرة عابرة إلى الأهرام بلا دهشة وبلا إعجاب ، ثم تتملكه مشاعر «الواقعية» التى «تطغى على مهندسى العالم فى عصرنا هذا ، ويقوم بهدم الهرم على أساس أنه جبل من الأحجار لا نفع فيه ، ويستعمل حجارته لبناء سد من السدود الضخمة العالية؟ أنى أعتقد أنه ما دامت هناك مشاعر الاحترام تملأ قلوب بعض الناس عندما ينظرون إلى الهرم، وما دامت هناك رغبة ملحة فى التعرف على أحداث التاريخ المصرى القديم، فليس هناك ما يدعونا إلى ذلك التساؤل، فلتطمئن قلوبنا ! إن اعتراف الناس بأهمية التاريخ وبعظمة الحضارة المصرية، فيها ما يكفى للرد على السؤال الثانى الذى ورد ذكره فى مستهل هذه الكلمة.

وما زالت بعض فترات التاريخ المصرى تحتاج إلى ايضاحات ومعلومات ، كما لا تزال أعمال الحفر تسفر عن نتائج قيمة تلقى ضوءا على التاريخ المصرى، وهكذا نضطر إلى الوقوف على نتائج المكتشفات الحديثة لتطبيقها ، وكثيرا ما نلجأ إلى تعديل النظريات القائمة ، وبذلك يطرأ من حين إلى آخر تبديل واضح على بعض نواحى التاريخ . وليس من شك فى أن واجبنا العلمى يدفعنا إلى نكون على بينة من كل التطورات الحديثة التى تزيدنا علما بأحداث التاريخ المصرى. ونظرا لأن آخر كتاب تاريخى مفصل قد نشر عن مصر القديمة عام ١٩٣٣، ونظرا لأن مجموعة من الحقائق قد ظهرت منذ ذلك الوقت مع الآثار المكتشفة حديثا، لذلك نرى لزاما علينا إصدار كتاب تاريخى جديد باللغة الألمانية.

الفصل الأول

عصور فجر التاريخ

عصور فجر التاريخ

(من حوالى ٥٠٠٠ ق.م إلى ٢٨٥٠ ق.م)

١- مصر، أرضها وشعبها

تتكون مصر من واد ممتد يخترقه النيل العريض الذى يجرى فى تودة بمياهه الفياضة دون أن يصب فيه رافد . وهو يجرى فى الأراضى المصرية، وإلى الشمال من العاصمة القديمة منف (بالقرب من القاهرة الحاليه) يتشعب إلى فروع متعددة بلغت فى العصور القديمة سبعة ، وتقلصت الآن إلى فرعين يخترقان دلتا النيل ذات الخصوبة الفائقة ، ويصبان فى البحر المتوسط . ولقد حتمت هذه الطبيعة أن تنقسم مصر منذ أول عصورها إلى قطرين : مصر العليا وهى ذلك الوادى الممتد المحصور بين سلسلتين من الجبال فى الشرق والغرب، ثم مصر السفلى أى الدلتا الواسعة ذات الأراضى المنبسطة التى تمتد حتى البحر المتوسط.

هذا التقسيم الذى فرضته طبيعة مصر جغرافيا ظهر لنا بوضوح فى التعريف المثنى الذى أطلقه المصريون أنفسهم على بلادهم «القطران» وهو التعريف الذى لازم مصر طوال عصورها القديمة. ولقد صدق هيرودوت حينما قال أن «مصر هبة النيل» وهو المؤرخ الأغريقى الذى زار مصر فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وخلف لنا أقدم ما كتب عن مصر ، تاريخا وحضارة باللغة الإغريقية ، فإن مصر تغمر مرة فى العام بمياه الفيضان التى يأتى بها النيل فى الصيف محملا بكميات من الغرين الذى يحمله معه من أواسط أفريقيا فيكسبها الخصب بعد أن تنحسر المياه عنها .

هذه الظواهر الطبيعية دفعت المصرى منذ أول عصوره التاريخية إلى التعاون فى العمل حتى تكتمل له طرق الانتفاع بهذه النعمة الطبيعية ، فحفر الترع والقنوات حتى يدفع بالمياه فيها لتصل إلى كل مكان ، ثم رفع المياه إلى الأراضى العالية بواسطة آلات حتى ترويها وتصبح

صالحة للزراعة . ولولا هذا التعاون لبقيت مساحات شاسعة من أرضه جافة مجدبة . واستطاع المصرى بعد تقدمه الحضارى الرائع أن يقيم سدودا ضخمة مزودة بفتحات عديدة تنظم جريان نيله، وهى ظاهرة اختصت بها مصر الحديثة أيضا. ودفع انتظام الفيضان الرجل المصرى إلى العمل المتواصل فى أرضه . وكان عمله هذا المضنى يعود بالجزاء الطيب عليه نظرا لما تتمتع به التربة من خصب. واضطر إلى العمل الجماعى ليحفر القنوات وليحدد مساحات أراضيه بعد أن تنحسر عنها مياه الفيضان. فكان «مسح الأرض» و «عزق الأرض» من أهم الأحداث التى كان يقوم بها الملك بنفسه فى أقدم العصور ، ودونوها على الآثار الملكية التى وصلت إلينا من عصر الأسرات الأولى. وقصارى القول أن الاهتمام بفيضان النيل كان من أهم الأسباب التى ساعدت على تكوين الدولة المصرية.

وليس من شك فى أن طبيعة البيئة المصرية هى التى منعت انتشار المساكن متباعدة متناثرة، وحتمت أن يتجمع الناس فى قرية تحيط بها الأراضى المزروعة. وتكون الإقليم من عدد من هذه القرى، ونحن نعتقد أن تجمع قرى عدة فى اقليم واحد هو بمثابة الدور الأول من نظام التكوين الإدارى للحكومة عند المصريين . ولقد حوى الاقليم أيضا نظاما جماعيا يهدف إلى عبادة إله خاص بمعنى أن سكان اقليم معين كانوا يتعبدون إلى قوة معينة تتمثل لهم فى أحد الطواطم على هيئة حيوان أو أى شئ رمزى آخر. وانقسمت مصر فى العصور المتأخره إلى اثنين وأربعين إقليمًا خص مصر العليا منها اثنتان وعشرون ومصر السفلى عشرون.

ومنذ أول العصر التاريخى ، أى منذ أن طلع علينا المصرى بوثائق مكتوبة ومقروءة، اتحدت هذه الأقاليم وتكونت منها مملكة عاشت ما يقرب من خمسة وعشرين قرنا تمتعت خلالها باستقلال لم تنفصم عراه إلا فى فترات محدودة . وهذا الاستمرار الطويل والتسلسل الرتيب الذى تميز به التاريخ المصرى القديم من أكبر الأسباب التى تدعونا نحن الذين نعيش فى زمن ملئ بالتطورات السياسية القاسية والتطاحن البشرى المر، أن نقدر هذا الشعب العريق ونفخر به ، وإن كنا نعتقد أن انحصار مصر بين صحراوين شاسعتين أتاح لها أن تتكون وتتطور فى إطارها هذا البعيد المنال، وساعدها أيضا أن تبقى فى تطورها على مر السنين واضحة متسلسلة .

وقد أطلق بعض العلماء على الحضارة المصرية «حضارة الواحات» اعتمادا على أن مصر انحصرت بين حدود طبيعية منيعة، ففى الشمال البحر المتوسط وفى كل من الشرق والغرب

صحراء شاسعة مجدبة ، إلا أن هذا ليس معناه أن مصر عاشت منطوية على أولئك الذين سكنوا من ورائه إلى أن يرنوا بأبصارهم نحو أرض الدلتا اليانعة الخصيبة يرغبون فى الاستقرار بها ، كما أن المصريين أنفسهم ، وهم من الشعوب التى تميل إلى السلم، لم يبقوا داخل حدودهم المنيعة بل خرجوا إلى ما وراءها يطلبون الفتح والاستعمار ، بل إن التنقيبات على طول الساحل السورى وفى جزيرة كريت أظهرت من المناطق أقل ما توصف به أنها تجارية .. فالتاريخ المصرى مع ما يتميز به من تسلسل رتيب، يدل على اتصالات متعددة بين مصر وجميع بلدان الجزء الشرقى من البحر المتوسط منذ أقدم العصور .

ولعل هذه العلاقات القوية التى قامت بين مصر وبين البلاد المتاخمة لها، وهى حقيقة تثبتها تلك الآثار المتزايدة التى يكشف عنها معول المنقبين فى مصر، تعتبر من أهم الدوافع التى تستحثنا على دراسة تاريخ وادى النيل، وهو التاريخ الذى نبدؤه بعصر الأسرة الأولى أى حوالى عام ٢٨٥٠ ق.م.

ويسبق هذا فترة طويلة تنتظم مئات من السنين نسميها فترة «فجر التاريخ» أو «ما قبل التاريخ» سوف يكون حديثنا عنها مجملا شاملا الخطوط العريضة لتطور الحضارة إبانها . وهذه الفترة لها أهميتها الكبرى فى التأثير على العصور التاريخية ، نظرا لأن دراستنا لمخلفات انسانها الأول تجعلنا نتعرف على العناصر الحضارية المختلفة التى تفاعلت فأنتجت الطابع الخاص الذى تميزت به حضارة المصرى فى العصور التاريخية ، ذلك الطابع الذى كان أساس النهضة المبكرة للشعب المصرى.

٢- العصران «الحجرى القديم» و «الحجرى الحديث» فى مصر

عثر فى مصر - كما عثر فى غيرها من بقاع الأرض- على مخلفات من حضارة الإنسان الذى عاش فى العصر الحجرى القديم والذى لا نستطيع أن نؤرخ له أو نحدد عصره فقد يرجع تحديده إلى آلاف السنين. عاش هذا الإنسان البدائى الذى سكن مصر العليا فوق المرتفعات التى تحاذى وادى النيل، وهى المرتفعات الجدبة الخالية الآن من أى عشب أو نبات . وحين كانت مناطق شمال أفريقيا إبان العصر المطير ، والذى كان يقابله عصر الجليد فى أوربة تتمتع بثروة نباتية ضخمة، كان وادى النيل غير صالح لسكنى الإنسان، إذ كان يزخر بالمستنقعات والبرك. ولم نعثر على

الآلات الحجرية ذات الأشكال المعروفة، والتى عثر عليها بكثرة فى المناطق الغربية من أوربة، فوق المرتفعات التى تقع إلى الغرب من طيبة فحسب، بل كانت أيضا مطمورة على أعماق فى الكثبان الحجرية بالقرب من العباسية التى تقع إلى الشمال من مدينة القاهرة حاليا. ولقد أثبتت الدراسات الجيولوجية أن هذه الكثبان تراكمت فى وقت كانت الدلتا قد أخذت فيه تتكون من طبقات الطمى المترسبة ، ومن هذا نستطيع أن نحكم- من الاختلاف الواضح بين الأماكن التى عثر فيها على مخلفات الإنسان الأول- أن مصر العليا أقدم بكثير من مصر السفلى، وأنها كانت آهلة بالسكان قبل الشمالية. ومما يؤسف له أننا لا نستطيع الحكم على الجنس البشرى الذى كان يسكنها نظرا لعدم العثور مطلقا على هياكل عظمية للإنسان الذى عاش فيها أثناء العصر الحجرى القديم.

أما فى العصر الحجرى الحديث فقد حدث انفصال حضارى كبير بين مناطق شمال أفريقيا بما فى ذلك أسبانيا وفلسطين وبين المناطق الأخرى فى أوروبة، وتميزت حضارة شمال أفريقيا بذلك التطور الحضارى الذى نطلق عليه اسم «الحضارة الجفسية»، نسبة إلى تلك الصناعة الحجرية التى ظهرت أول ما ظهرت فى قرية جفسة إلى الجنوب من مدينة تونس، ثم أخذ علماء دراسات ما قبل التاريخ يطلقون عليها أسماء محلية أخرى . هذه الحضارة تتميز بأدوات حجرية صغيرة (مكروليتية وعثر المنقبون على هذا النوع من الصناعة الحجرية فى أماكن كثيرة من مصر ويطلقون عليها اسما شاملا هو «الصناعة السبيلية» (وهذا يشهد بأن مصر كانت تتبع نفس التطور الحضارى الذى شمل مناطق شمال أفريقيا ابان العصر الحجرى الحديث. ولا نستطيع أيضا أن نعين الجنس البشرى الذى كان يسكن مصر فى هذا العصر نظرا لعدم العثور على هياكل عظمية لهذا الإنسان. ويتفق علماء دراسات ما قبل التاريخ على بدء العصر الحجرى الحديث حوالى عام ٥٠٠٠ ق.م بالنسبة إلى الشعوب المتحضرة التى سكنت الجانب الشرقى من حوض البحر المتوسط ومن بينها الشعب المصرى الذى تمكن حوالى عام ٢٨٠٠ ق.م من أن يبدأ عصره التاريخى. ولقد تمكنت هذ الشعوب من أن تسير بخطى جبارة فى تطورها الحضارى وبخاصة شعبا مصر وبلاد ما بين النهرين اللذان استطاعا استخدام معدن النحاس فى صناعة الحلى ثم لم يلبثا أن استخدماه فى الأدوات المختلفة، ولقد دفع هذا العلماء إلى تسمية الفترة من ٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ ق.م بالنسبة إلى هذين الشعبين بعصر استخدام النحاس (العصر الكالكيوليتى) العصر الحجرى النحاسى.

٣- عصور ما قبل التاريخ (العصر الكالكيوليتى) الحجرى النحاسى

أ- مصر السفلى (حضارة مرمدة) :

استقر التكوين الجيولوجى لمصر واستمر فى الفترات الأخيرة من عصر ما قبل التاريخ متماثلا مع ما ساد مصر طوال العصور التاريخية : فالدلتا ذات الخصوبة البالغة كانت قد تكونت ، أما مصر العليا فكانت المرتفعات والتلال المحاذية لوادى النيل قد جفت وتحولت إلى صحارى واضطر قاطنها إلى أن يهرع إلى شواطئ النيل ليسكن الشريط الضيق من الأراضى الخصبة . ولقد وصل إلينا كثير من القرى التى سكنها إنسان هذا العصر ومن الجبانات التى دفن فيها موتاه بحيث نستطيع أن نتعرف الآن على هذا الإنسان وطريقة حياته ، ويبدو واضحا أن هناك اختلافا كبيرا فى طرق الحياة وفى دفن الموتى بين مصريى الوجه القبلى والوجه البحرى.

ولقد ساد الاعتقاد فى أول الأمر أن الدلتا كانت طوال عصور فجر التاريخ غير صالحة لسكنى الإنسان وذلك لأنها كانت زاخرة بالمستنقعات ، تكثر فيها قطعان الماشية . وساعدنا على هذا الاعتقاد عدم عثورنا على مخلفات بشرية فيها لإنسان هذا العصر ، ولكنه حدث أخيرا أن عثر المنقبون على آثار قرية تقع على مقربة من حدود الدلتا الغربية، وظهر بوضوح أنها كانت تشمل مساحة تزيد بكثير على القرى التى سكنها انسان الوجه القبلى فى نفس العصر . ولقد تعارف العلماء على تسمية هذه الحضارة باسم «مرمدة» وتدل آثارها على أنها ترجع إلى العصر الحجرى الحديث البحت، نظرا لعدم العثور على أدوات من النحاس ، سكن إنسانها كوخا أقامه من القصب المجدول، تثبت فيها القوائم، على نواح متعددة من مظاهر الحياة السكنية لأقدم حضارة ظهرت فى مصر السفلى . وتمكن المنقبون أيضا من التعرف على أكثر من مخزن شيد من الطمى غير المشكل وهى مخازن تحفظ فيها المواد الغذائية .

ويبدو واضحا أن المصرى فى هذه الحضارة لم يكن قد عرف بعد طريقة استعمال اللبن فى أبنيته . ولعل من أهم ما عثر عليه فى هذه الحضارة مخازن الغلال الكبيرة وفى قاعها بعض الحبات (الشعير والقمح المزدوج الحبة) ، وهذا يثبت أن إنسان الدلتا فى هذا العصر كان قد تخلص من بدائيته التي قامت على القنص ورعى الحيوان واستقر تمام الاستقرار . واعتاد الناس دفن موتاهم داخل القرية، وكانت الجثة توضع منثنية دون أن تزود بأدوات جنازية على خلاف ما كان سائدا فى مصر العليا ، ولعل السبب فى ذلك أن الأحياء كانوا يقدمون لموتاهم القرابين فى كل مرة يتناولون

فيها الطعام، مثلهم فى ذلك كل القرى التى تحوى مقابر الموتى فى جميع مناطق حوض البحر المتوسط. ولقد عثر في «مرمدة» أيضا على كميات كبيرة من الأوانى الفخارية المصنوعة باليد وهى تختلف فى مادتها وأشكالها عن تلك التى صنعها المصرى فى الوجه القبلى. وهذا يدعونا إلى الاعتقاد بأن إنسان هذه الحضارة يمت بالصلة إلى الجنس البشرى الذى يسكن شمال أفريقيا. ولقد كشف عن آثار مشابهة لهذه فى حلوان على الشاطئ الشرقى للنيل وإلى الجنوب من الموقع الذى تأخذ الدلتا فيه فى الاتساع ، ويطلق الأثريون على مكان هذا الكشف «العمرى» وكذلك عثر على شبيه لها فى منطقة الفيوم وهى تلك الواحة المتصلة بوادى النيل تقع فى صحراء ليبيا على ما يقرب من ٦٠ كيلو مترا إلى الجنوب من القاهرة. ولم يعثر المنقبون فى هاتين المنطقتين على مقابر سواء داخل «المحلة» المأهولة بالناس أو فى جبانة مستقلة بعيدة عن القرية . ولكن التشابه الكبير بين ما خلقه الإنسان فى هذه الأماكن الثلاثة يذهب بنا إلى الاعتقاد بأنها تتبع مجموعة من الناس بلغوا حدا من الحضارة الواحدة نطلق عليها «حضارة مصر السفلى».

ب- مصر العليا (حضارتا البدارى ونقادة الأولى) :

تلعب الجبانات دورا هاما فى تحديد حضارات مصر العليا فى حين تقل أهمية القرى لصغر مساحتها ولتفاهة ما عثر عليه فيها . ولعل أعظم الاكتشافات هى تلك التى وفق إليها الأثرى الإنجليزى «فليندرز بترى» عندما عثر على جبانة واسعة الأطراف بالقرب من نقادة (إلى الشمال من مدينة الأقصر الحالية) وكان ذلك حوالى عام ١٨٩٠ ، وبلغت الآثار التى كشف عنها فى هذه الجبانة قدرا من الكثرة والأهمية جعلنا نطلق اسم هذه المنطقة على حضارة مصر العليا فى عصور فجر التاريخ . ولقد لاحظ بترى نفسه بعد ما تدفقت الآثار المختلفة وملأت مخازنه من هذه المنطقة ، أنه بصدد حضارة تنقسم قسمين مختلفين كل منهما يتبع تطورا حضاريا معينا، ومن أجل هذا نطلق على هذين القسمين حضارة نقادة الأولى وحضارة نقادة الثانية ويرجع الاختلاف بينهما إلى الاختلاف بين أنواع الفخار وإلى مظاهر حضارية أخرى . ولقد قام العلماء فيما بعد بالتنقيب فى منطقة البدارى بمصر العليا وعثروا على مقابر حوت نوعا من الفخار يبدو من طريقة صنعه أنه سابق لفخار نقادة الأولى ومنذ هذا الكشف أصبحنا نتحدث عن «حضارة البدارى» على أنها حضارة مستقلة يرجع عصرها إلى عهد يسبق حضارتى نقادة، ويميل كثير من علماء الإنجليز إلى التفرقة بين حضارتى نقادة ، فأطلقوا اسم حضارة «العمرة» على حضارة نقادة الأولى وذلك نسبة إلى قرية «العمرة» فى مصر العليا حيث عثر على آثار من العصر نفسه ومن الحضارة ذاتها الخاصة بنقادة الأولى .

ولعل أهم الاختلافات الواضحة بين حضارات مصر العليا التى سبق ذكرها من ناحية وبين حضارة مصر السفلى الممثلة لنا فى «مرمدة» من ناحية أخرى، هى فى طريقة الدفن، ففى مصر العليا- منذ أول العصور- اعتاد الناس دفن موتاهم فى جبانات تبعد عن القرى بينما اعتاد أهل مرمدة دفن موتاهم داخل القرية بل فى أكواخهم . وإذا عد الدفن داخل القرية مظهرا من مظاهر الاستقرار الزراعى، فليس من شك فى أن الدفن فى الجبانة كان دليلاً على أن أصحابه كانوا من البدو الرحل الذين تقوم حياتهم على رعى الماشية والذين كانوا يتجولون على مقربة من الأرض المزروعة فى مصر العليا . ومن أجل هذا لم يكونوا فى حاجة إلى الاستقرار فى قرى كبيرة ، وهذا هو تفسيرنا لقلة العثور على مخلفات بشرية فى مصر العليا لهذا العصر . ولقد اهتم هؤلاء بموتاهم فأنشئوا لهم الجبانات ، إذ إن تجولهم المستمر جعل من العسير عليهم تزويد موتاهم بالمؤن التى يحتاجون إليها ، وحرصوا على أن يودعوا المقبرة كل ما يحتاج إليه الميت من مأكل ومشرب فى حياته الثانية ، وهذه الأشياء هى التى يعتمد عليها علماء الآثار ، إذ توضح لهم ما كان عليه إنسان هذا العصر من حضارة . ونحن نرجح أن أهل مصر العليا ، الذين خلفوا لنا حضارتى البدارى ونقادة الأولى كانوا من الجنس الحامى كما كانوا يعتمدون فى حياتهم على رعى الماشية وتربيتها ؛ أى أنهم من الجنس الذى انتشر فى شمال أفريقيا وترك لنا رسومات مختلفة محفورة فى الصخور التى يقوم الكثير منها حاليا فى أماكن صحراوية جدباء.

ونحن لا نستطيع أن نؤكد حاليا إذا كان هذا الجنس الذى يرجع إليه أهل مصر العليا وبلاد النوبة إبان عصور فجر التاريخ ممن استقر فى منذ أول العصور ، أى كان من أحفاد أولئك الذين انتشروا فى المناطق الصحراوية المرتفعة طوال العصر الحجرى القديم، أو أنه هاجر إلى مصر فى وقت معين آتيا من جهة ما. ولعل مما يؤيد الرأى الأخير ما ورد فى «العهد القديم» من أن «سام» و «حام» كانا أخوين، وكذلك ما نلاحظه من عناصر متشابهة بين اللغات السامية والحامية. وفى الواقع لم يستطع العلم حتى اليوم أن يثبت أو يقيم الدليل على أى الطرق اخترقته جموع «الحاميين» الأوائل فى هجرتهم إلى موطنهم الذى استقروا فيه فيما بعد فى شمال أفريقيا، أو متى تحركت هذه الجموع . وكل ما نستطيع أن نؤكده هو أن هذه الهجرة كانت عن طريق البحر الأحمر أى أنها اخترقت المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة العربية، أى أنها لم تكن من الشمال عن طريق برزخ السويس ، ودليلنا على ذلك أن حضارة نقادة الأولى لم تنتشر إلا فى المناطق الجنوبية من مصر العليا ولم تتعد شمالا مدينة أسيوط الحالية، وفى الواقع أن الدراسات التشريحية التى

أجريت على الهياكل البشرية فى كل من مقابر البدارى ونقادة الأولى أثبتت أن أصحابها يرجعون إلى الجنس الحامى الأفريقى. وإذا كنا نتحدث عن انتماء أصحاب كل من حضارتى الدلتا ممثلين فى مرمدة ، ومصر العليا ممثلين فى البدارى ونقادة الأولى، إلى الجنس الحامى المنتشر فى شمال أفريقيا فمعنى هذا أننا نقصد تلك الوحدة التى حدثت فى عصور متأخرة نسبيا ، ويجب ألا ننسى ذلك الاختلاف الواضح بين المجموعتين البشريتين وهو الاختلاف الذى نتج عن تميز كل مجموعة عن الأخرى بطريقة معينة فى الحياة ، فاحداهما عاشت على الزراعة المستقرة ، بينما اتخذت المجموعة الأخرى لنفسها رعى الماشية وتربيتها والتجول هدفا للحياة ، زد على ذلك أن المجموعة الأولى التى عاشت فى مصر السفلى قد تميزت بعناصر واضحة اكتسبتها من اختلاطها بالجنس الميديترانى (جنس البحر المتوسط).

ولعلنا نحسن صنعا إذا قلنا فى تفسير الاختلاف بين حضارتى المجموعتين الحاميتين اللتين سكنتا مصر فى عصور فجر التاريخ ، إنه الاختلاف بين القبائل التى تسكن جبال أطلس حاليا (ونتمثل فيهم أصحاب حضارة مرمدة والحضارات القريبة منها) وبين قبائل البشارية التى تجوب صحراء النوبة أو الصوماليين فى الحبشة (ونتمثل فيهم أصحاب حضارتى البدارى ونقادة الأولى) وعلى هذا الأساس تنتمى المجموعة الأولى إلى الجنس الحامى المنتشر فى الشمال الغربى من أفريقيا والمجموعة الثانية تنتمى إلى الحامى فى المناطق الشرقية من أفريقيا. وبقيت بعض مظاهر حضارة المجموعة الثانية ممثلة فى حضارة مصر إبان العصور التاريخية فطبعتها بذلك الطابع الأفريقى الحامى الذى استمر ونضج فى العصور المتأخرة فى بلاد النوبة السفلى.

ويجدر بنا هنا أن نؤكد عدم وجود التأثيرات الفنية أو الحضارية على الأدوات التى استخدمها المصرى فى حضاراته السالفة الذكر مستمدة من الحضارة البابلية ، ويجب علينا ألا ننسى أن الحديث عن وجود اختلاط مبكر بين الجنسين السامى والحامى، لا يعنى مطلقا أن المصريين فى أول عصورهم اختلطوا بالساميين خاصة مع اعتبار أن سكان بلاد ما بين النهرين فى تلك الآونة لم يكونوا من الساميين بل كانوا من الجنس الذى ظهر فى التاريخ تحت اسم الشوميريين. فقد كانت مصر ولا تزال جزءا من أفريقيا ، ولذلك ليس ثمة ما يدعو إلى تناولها بالحديث على أنها جزء من آسيا القريبة، وإذا كانت هناك بضع عناصر من الحضارة الشوميرية قد ظهرت فى الحضارة المصرية فليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن مصر أنجبت حضارة كان الشوميريون أصلها .

جـ- «حضارة نقادة الثانية» :

هناك مجموعة بشرية ثالثة ظهرت فى مصر فى عصور لاحقة وكانت لها أهميتها الخاصة فى التأثير فى حضارة مصر فى العصور التاريخية ونكاد نعتقد أن هذه المجموعة تسربت إلى مناطق شرق الدلتا عبر برزخ السويس آتية من سوريا وفلسطين واستقرت هناك، ولو أن القرائن على استقرارها هذا تكاد تكون مفقودة نظرا لأن مناطق شرق الدلتا لم تبرز لنا أثرا واحدا يدل على وجودهم ، ولعل القرينة الوحيدة على ذلك هى اللغة المصرية القديمة التى تمثل لنا فى أطوارها الأولى لغة تتكون من عناصر مختلفة بعضها سامى الأصل والآخر حامى الأصل ، بل نكاد نعتقد أيضا أن الكتابة الهيروغليفية اخترعت واستتبت قواعدها فى هذه المنطقة ، ونرى فى شرق الدلتا الموطن الأصلى الأول الذى لابد وأن تكون قد خرجت منه «حضارة نقادة الثانية» .

حقيقة أن أدوات إنسان «حضارة نقادة الثانية» عثر عليها فى نفس منطقة «حضارة نقادة الأولى» إلا أنها كانت مطمورة فى مستويات من الأرض أعلى منها ، حالها فى ذلك حال «نقادة الأولى» بالنسبة إلى «البدارى» ومعنى ذلك أن حضارة نقادة الثانية كانت أحدث الحضارات. وحين استقرت حضارة نقادة الأولى فى مناطق مصر العليا، ظهر بوضوح أن آثار حضارة نقادة الثانية قد انتشرت فى كل مكان ، فى الجنوب وفى الشمال: فى الجنوب متغلغلة فى بلاد النوبة السفلى وفى الشمال متغلغلة فى جرزة وفى أبو صير الملق.

وليس من شك فى أن ظهور آثار حضارة نقادة الثانية فى شمال الوادى بل وفى بعض المناطق التى نعتبرها جزءا من الدلتا مثل قرية المعادى لدليل واضح على أن هذه الحضارة نشأت فى الشمال وانتشرت فى الجنوب، أو بمعنى آخر طمرت آثارها فى مستويات من الأرض أعلى من مستويات نقادة الأولى.

وفى اعتقادنا أن حضارة نقادة الثانية ذات طابع مصرى حامى بحت، أى أنها لا تمت بصلة ما لمناطق آسيا القريبة ، ولكن هناك بعض العناصر الأولى لعلاقات حضارية مع فلسطين أخذت تبدو واضحة ولاسيما فى نوع الفخار الذى تميزت به هذه الحضارة، وهو النوع المسمى «أوان فخارية ذات مقابض مموجة» ، وهو أيضا النوع الوحيد بين كل الأنواع من الأوانى الفخارية التى ظهرت فى حضارات مصر فى عصور فجر التاريخ، وكان لها مقابض تحمل منها وبرزت هذه المقابض فوق سطح الآنية بشكل مموج. هذا وقد أظهرت أعمال الحفر والتنقيب - التى تمت منذ مدة طويلة

فى فلسطين- وجود علاقات حضارية بين البلدين ونخص بالذكر التنقيبات التى قامت بها البعثة الأمريكية فى السنوات القليلة الماضية فى فلسطين وفى «مجدو» نظرا للأمثلة الواضحة التى أثبتت مدى هذه العلاقات ، وجعلتنا نعتقد أن بعض الجماعات التى كانت تتحدث بلغة «سامية غربية» قد وصلت إلى مصر، وأن هذه اللغة هى التى ساعدت على إعطاء اللغة المصرية شكلها النهائى .

وهكذا برزت لنا مصر لأول مرة في تاريخها كوحدة حضارية فى عصر حضارة نقادة الثانية، ويبدو أن الاختلاف بين الشمال والجنوب وبين مصر العليا ومصر السفلى أخذ يختفى ويندثر ، ولقد بلغت حضارة مصر فى هذه الآونة حدا من التطور بحيث نعتبرها بحق الخطوة التى سبقت حضارة مصر فى عصر الأسرة الأولى . أما معلوماتنا عن مدى تطور هذه الحضارة فتقوم على أساس دراساتنا للآثار التى عثر عليها فى المقابر ، اللهم إلا إذا استثنينا منطقة المعادى التى كانت «محلة» مأهولة بالسكان . لقد أصبحت المقبرة فى هذا العصر عبارة عن حفرة مربعة الشكل وكثيرا ما كانت تقوى جدرانها الداخلية بحوائط من اللبن . ويدل استخدام الناس للنحاس الذى كان يستخرج من شبه جزيرة سينا، وللقيشانى فى صناعة خرز الحلى ، وللأوانى الفخارية ذات الحجم الصغير ، على تقدم كبير فى مستواهم الحضارى كما يدل استعمالهم لأحجار اللازورد والأبسيديان على علاقات تجارية امتدت حتى بلاد إيران وحتى جزر بحر الأرخبيل .

لقد أراد بترى «أن يبرز لنا حضارة ثالثة لنقادة ، وذلك على أثر الكشف عن منطقة «السماينة» فى مصر العليا ، وحاول فى ذلك الوقت أن يجعل منها الحضارة السابقة لحضارة الأسرة الأولى . وكان «بترى» يهدف باستمرار إلى التدليل على حدوث موجات مستمرة من شعوب أجنبية تدخل مصر ومعها حضارتها ، ولذلك لم يكن من السهل عليه أن يتصور قيام الأسرة الأولى دون أن يرجع ذلك إلى شعب جديد دخل مصر قبيل ذلك. ونحن لا نعتقد مطلقا أننا فى حاجة إلى الأخذ بنظرية وجود «حضارة نقادة الثالثة» ولا سيما أنها لم تقم على أساس علمى ثابت . بل إن الحديث عنها أصبح غير ذى موضوع نظرا لازدياد ظهور بعض العناصر الحضارية من آسيا القريبة فى مصر إبان عصر الأسرة الأولى ، ومن الواضح أن هذه العناصر مستمدة من مناطق نفوذ الحضارة الشومیرية وليس فى استطاعتنا أن نفرد هنا مكانا للحديث عن هذه النقطة الهامة نظرا لأنها تدخل فى نطاق الدراسات الأثرية كما أنها لم تكن ذات تأثير واضح على تطور الحضارة المصرية بوجه عام . وإذا عن لنا أن نلمس هذه النقطة فيحسن بنا أن نتحدث عن

التأثيرات الشومیریة على نواحی الفكر المصری وهی تأثیرات لا نكاد نثبت طرفا علاقة بین اختراع الكتابة عند الشومیریین وظهور هذا الاختراع عند المصریین وكذلك إقامة التوقیت المصری على أساس العدد الستینی الذی شاع وانتشر فی بلاد ما بین النهرین.

وعلى كل حال فإن لهذه الموضوعات أهمیتها التاریخیة التی تقوم على أساس من أن عناصر المقارنة بین المخلفات البشریة فی المنطقتین تكاد تنحصر بالنسبة إلى بلاد العراق القدیم فی آثار حضارة «جمدة نصر» وبالنسبة إلى مصر فی آثار حضارتی نقادة الثانیة والأسرة الأولى، ونخرج من هذه المقارنة إلى أن هذه الحضارات كلها كانت متعاصرة. ومما یسعدنی أن نظریتی التی أبرزتها منذ أمد طویل وهی النظریة التی تقول بمعاصرة حضارة «جمدة نصر» فی العراق لحضارتی نقادة الثانیة والأسرة الأولى فی مصر، قد ثبتت أخیرا بواسطة البعثة الأمریكیة التی كشفت فی تنقیبها الذی تقوم به فی «تل الجدیدة» فی شمال سوریا، على آثار من حضارة «جمدة نصر» فی نفس المستوى الذی عثرت فیه على آثار من عصر الأسرة الأولى المصریة.

وإذا كانت الدراسات الأثریة قد أثبتت المراحل الثلاث لتطور الحضارة المصریة - وهی المراحل التی تحدثنا عنها على الصفحات السالفة- فهناك إثبات آخر لهذا التطور یقوم على أساس الدراسات اللغویة، إذ نجح العالم «تسیلارتس» المتخصص فی الدراسات الحامیة والمصریة القدیمة من أن یثبت أن اللغة المصریة القدیمة فی تكوینها الذی ظهرت به منذ أول العصور أی منذ عام ٣٠٠٠ ق.م تقوم على العناصر اللغویة الآتیة:

أولا- العنصر الخاص بأهل البربر أی الذین سكنوا شمال غربی أفریقیا (وهو العنصر الذی نراه ممثلا فی حضارة مرمدة فی غرب الدلتا) .

ثانیا - العنصر الحامی الخاص بالنحسیین أی الذین سكنوا شرقی أفریقیا (وهو العنصر الذی نراه ممثلا فی حضارتی البداری ونقادة الأولى) .

ثالثا - العنصر السامی الخاص بمن سكنوا غربی آسیا . (وهو العنصر الذی نراه ممثلا فی حضارة نقادة الثانیة على أساس أن أصحابها سكنوا فی أول الأمر مناطق شرقی الدلتا وعلى أساس العلاقات التی أثبتتها الدراسات الأثریة بینها وبین فلسطین).

وتجمع هذه العناصر الثلاثة واختلاطها هو الذی أدى إلى ذلك الانبثاق المزدهر للحضارة

المصرية فى عصر الأسرة الأولى حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م . ومنذ ذلك الوقت طلعت علينا مصر بلغه واحدة تكتب بطريقة واحدة وتقوم قواعدها على قواعد مختلطة من السامية والحامية . ومنذ ذلك الوقت أيضا أصبحنا نلتقى بعناصر موحدة من الآثار فى مقابر المصريين سواء فى مصر العليا أو فى مصر السفلى.

وهكذا نستطيع أن نتحدث منذ ذلك العصر عن شعب مصر الموحد بل نستطيع أيضا أن نتحدث عن الجنس المصرى القديم.

(د) أقدم الصور التى تخيلها المصريون عن آلهتهم

إذا عنَّ لنا التحدث عن نواحى الفكر عند أقدم المصريين الذين عاشوا فى عصور فجر التاريخ فلن نجد إلا القليل نذكره ، نظرا لندرة ما وصلنا من آثار تفسر لنا هذه الناحية. فمثلا إذا تعرضنا لتقديس الآلهة فلا نستطيع إلا أن نذكر نوعين منها ونستمد معلوماتنا عنها من المتون الدينية، التى ترجع إلى العصور التاريخية وتتصل أيضا بعصور فجر التاريخ. هذان النوعان هما ما أظهرتهما الرسوم المصرية إما على هيئة بشر برءوس حيوانات أو على هيئة بشرية كاملة. ونحن نعتبر النوع الأول مصريا بحتا، ولابد أن يكون قد نشأ فى محيط تلك الحضارة الحامية الأفريقية التى تحدثنا عنها على الصفحات السالفة.

ولقد عثر أخيرا على رسوم لآلهة مثلت رءوسها على هيئة رءوس الحيوان وهذه الرسوم منقوشة على الصخور فى مناطق شمال أفريقيا وبخاصة فى فزان، وهذا يدل طبعا على مدى انتشارها إلى الغرب من مصر- ولعل أهم الآلهة من هذه المجموعة هو الاله «ست» الذى يتمثل برأس حيوان من ذوى الثدى لم نستطع حتى الآن أن نستدل بشكل مؤكد على نوعه، وتعتبره النصوص الدينية المصرية بمثابة الإله الأول لمصر العليا ومركز عبادته نقادة. وعلى هذا الأساس نكون على حق إذا اعتبرناه الإله الرئيسى الذى عبده أصحاب حضارة نقادة الأولى، وهم الذين أطلقوا عليه اسم «صاحب أمبو» (بالمصرية القديمة الذى هيمن على مصر العليا. وكلمة «نبوت» (ويبدو أن النطق الحقيقى لها كان «امبوت» ثم نطقها الاغريق فيما بعد «أمبوس» هى الاسم المصرى الذى أطلق على عاصمة مصر العليا فى عصور فجر التاريخ، وهى العاصمة التى بقيت منها تلك الآثار القليلة بالقرب من قرية «نقادة» الحالية التى تقع على الشاطئ الغربى وعلى مسافة قريبة شمالى مدينة الأقصر.

هذا الإله حين سمى باسم «ست» كان قد اندمج فى مجموعة أخرى من الآلهة ظهرت فى بيئة اختلف تخيل أهلها لآلهتهم تمام الاختلاف، فصوروها على هيئة بشرية كاملة، وهو النوع الثانى من الآلهة الذى ذكرناه آنفا . ويبدو أنه ظهر فى منطقة شرق الدلتا ، كما يبدو أن آلهة هذه المجموعة كانت غير محلية أى لا تتصل بمظاهر معينة فى مكان بعينه بل كانت تمثل بعض أجزاء الطبيعة (مثل الأرض والسماء) أو بعض مظاهرها العامة (مثل مياه الفيضان الذى يكسب الأرض خصوبة أو الحرارة التى تسبب الجدب) .

ولعل أهم آلهة هذه المجموعة كان الإله «اوزوريس» وأخاه «ست» الذى اعتبر عدوا لأوزيريس وأصبح يمثل مظهرا من مظاهر الطبيعة، حاله فى ذلك حال الآلهة التى ظهرت فى شرق الدلتا .

وهنا نتساءل عن مدى صحة النظرية التى نادى بها العلامة «يونكر» والتى أقامها على أساس ما ورد فى النصوص المصرية المتأخره والخاصة بوجود اله عالمى قديم يهيمن على آلهة هذه المجموعة ويطلق عليه «العظيم» (بالمصرية القديمة «ور») فنقول إن القرائن التى تثبت وجود هذه الآله قليلة إلى درجة لا تسمح لنا أن نأخذ بهذه النظرية .

ومع أن آلهة هاتين المجموعتين قد اختلطت واندمجت منذ العصر التاريخى بحيث أصبحت مهمة الدارس للديانة المصرية من أشق المهمات ، إذ يواجه عددا لا يحصى من الآلهة تختلف فى أشكالها وصفاتها ، فإن من حقنا أن نعترف بأن التقسيم الطبيعى لهاتين المجموعتين هو بإرجاع كل مجموعة إلى مركز من المركزين الحضاريين سالفى الذكر، بمعنى أن مجموعة الآلهة ذات الرءوس الحيوانية ترجع إلى المركز الحضارى الخاص بمناطق غرب آسيا الآهلة بالجنس السامى القديم. والاختلاف بين كل من آلهة هاتين المجموعتين يعكس لنا طرفا من الاختلاف بين التطور الفكرى فى المجموعتين البشريتين اللتين نشأت بين ظهرانيهما هذه الآلهة.

لقد حاول «زيته» أن يسرد لعصور فجر التاريخ المصرى حقائق تاريخية ثابتة، وهو فى محاولته هذه يتفق أحيانا مع «يونكر» ولكنه لم يستعن مطلقا بنتائج الكشوف الأثرية ، بل اعتمد فقط على ما ورد فى المتون الدينية القديمة . ومع الجهد العلمى الممتاز الذى بذله «زيته» فى هذه المحاولة ، فمن العسير علينا أن نأخذ بالكثير من عناصرها ونقبله . وعلينا أولا أن نجعل هذه الحقائق التاريخية التى أقامها «زيته» تتجاوب وتتفق مع نتائج الكشوف الأثرية. فمثلا سبق

الحديث عن «أمبوس» (نبوت) أى «نقادة» الحالية، وقلنا عنها إنها كانت بمثابة المركز الحيوى لمصر العليا فى عصر فجر التاريخ وأن إلهها الرئيسى كان «نبوتى» الذى أصبح فيما بعد يمثل «ست» ولذلك اعتاد الناس أن يذكروه بهذا الاسم . فإذا تكرر الحديث فى المتون الدينية عن ذلك الكفاح المرير الذى حدث بين الالهين العظيمين «حوريس» و «ست» فى العصور المبكرة ، فليس من شك فى أننا على حق إذا اعتبرنا هذا الكفاح تصويرا رمزيا للمعارك التى حدثت بين مصر السفلى ومصر العليا ، فمن الواضح حقا أن «ست» يمثل الإله الرئيسى لمصر العليا ، ولكن المسألة تختلف تماما بالنسبة «لحوريس» ، فمع أن النصوص الدينية والرسوم المختلفة التى ترجع إلى العصور المتأخرة تذكره باستمرار على أنه الاله الممثل لمصر السفلى فإن الدراسات الأثرية لم تستطع مع الأسف حتى الآن أن تثبت وجود مركز سياسى أو دينى لمصر السفلى يمكن اعتباره مماثلا لنقاده بالنسبة إلى مصر العليا .

أن المتون الدينية تظهر باستمرار أن «حوريس» (أى مصر السفلى) قد انتصر وتمكن من توحيد البلاد (أى مصر السفلى ومصر العليا) تحت سلطانه ، ونحن نستطيع أن نفسر هذا بما يتجاوب مع بعض النتائج التى أثبتتها الدراسات الأثرية، وهى النتائج التى سبق الحديث عنها، وأثبتت أن حضارة نقادة الثانية أخذت تنتشر جنوبا حتى هيمنت على مصر العليا بأكملها وأنتصرت على حضارة نقادة الأولى التى كانت تنتشر فى المناطق الجنوبية فقط، أى فى منطقة نفوذ «ست» ولكننا لا نستطيع مطلقا أن نستمر فى تفسير هذه النصوص الدينية بوقائع تاريخية وذلك- كما قلت- لأن الكشوف الأثرية لا تساعد على أكثر من هذا .

ويتحدث «زيته» أيضا فى كتابه Ugreschichte عن ممالك فى عصر فجر التاريخ فيذهب إلى أن هناك مملكة فى شرق الدلتا يحكمها «أوزيريس»، الذى يعتقد أنه كان شخصية بشرية تعيش فى هذا العصر المبكر ، ولقد غلب على أمره من مملكة الجنوب التى يحكمها «ست» وهنا يبدو ن «ست» لم يكن شخصية بشرية بل كان الها . وكانت هناك مملكة فى غرب الدلتا يحكمها «حوريس» بن «أوزيريس» ، الذى تمكن من أن يتغلب على مملكة ست ومن ثم استطاع أن يوحد قطرى مصر لأول مرة فى التاريخ * .

* إن كل من درس أساطير الآلهة المصرية، يرى بوضوح أن هذه الممالك الثلاث هى الإخراج التاريخى لأسطورة «اوزيريس» والأسطورة الكفاح بين «حوريس» و «ست».

ويعتقد «زيته» أن هذه المملكة الموحدة اتخذت من «هيليوبوليس» عاصمة لها، ولقد تعلق بهذه النظرية إلى درجة أنه رددها باستمرار فى كل كتبه التى ظهرت فى المدة الأخيرة من حياته، ولكن للأسف الكبير ليس هناك من القرائن العلمية ما يجعل هذه النظرية الخاصة بالمملكة الهيليوبوليتانية الموحدة فى أواخر عصر فجر التاريخ من النظريات الثابتة . وكل ما نستطيع قوله هنا أن حضارة نقادة الثانية من الناحية التاريخية- دون أن يكون لها ملك أو إله- تمثل لنا نوعا من التوحيد فى عصر ما قبل التاريخ وذلك لأن آثارها انتشرت فى كل مناطق مصر وشمالها وجنوبها وامتدت حتى بلاد النوبة السفلى.

(هـ) فترة الانتقال إلى العصر التاريخى (مملكتا عباد حوريس)

فى متحف مدينة «بالرمو» بصقلية لوح من الحجر نقشت عليه قائمة بأسماء ملوك الدولة القديمة، ويعرف باسم «حجر بالرمو» ، وتعتبر هذه القطعة الأثرية دليلا على أن المصرى القديم كان يعلم أن هناك ملوكا حكموا مصر المتحدة فى عصر فجر التاريخ، أى فى العصر الذى يسبق عهد الأسرة الأولى ، لقد تمكن «برستد» الذى قام بدراسة هذه القطعة وشرح ما نقش على سطحها، من أن يدرك معنى تلك المخصصات التى سبقت عصر الأسرة الأولى، وهى مخصصات للملك، فتارة يلبس التاج المزدوج وهو الرمز الذى اعتاد فراعنة مصر أن يضعوه فوق رءوسهم ليدللوا على أنهم الحكام لقطرى مصر ، وتارة يلبس التاج الأبيض أو التاج الأحمر بمعنى أن الملك كان يسيطر إما على مصر العليا وإما على مصر السفلى . ومما يوسف له أن جزءا من الحجر قد تهشم وضاع ولم يبق منه إلا صف من العلامات المخصصة للملك. وهكذا يبدو واضحا أن مصر قبيل عصر الأسرة الأولى كانت قد اضمحلت وانقسمت إلى قطريها المعروفين أى إلى الوجه البحرى والوجه القبلى ونطلق عليها مملكتى «عباد حوريس» اللتين ورد ذكرهما فى بعض النصوص الدينية. ونحن نعرف عواصم هاتين المملكتين ونعرف أن لكل منهما مدينتين لهما اسمان ، على أساس أن احدى المدينتين تمثل المركز السياسى و الأخرى تمثل المركز الدينى فى المملكة ، ففى مصر العليا سميت المدينتان «نخب» و «نخن» وأطلق الاغريق عليهما «ايليتيا سبوليس» و «هيراكونبوليس»، وكلاهما يقع الآن فى حدود مدينة إلى الجنوب من الأقصر ، أما فى مصر السفلى فقد سمينا «دب» و «بى» وسماهما الاغريق «بوطو» وكلاهما يقع فى غرب الدلتا ولا تزال بعض الكيمان قائمة حتى الآن فى موقعهما وتسمى باسم «تل الفراعين» . وفى العاصمتين كان الاله الذى يعبد

هو الصقر «حوريس» وإن لم يستطع أن يهيمن على «بى» إلا بعد القضاء على إله آخر قديم كان مستقرا فيها ويرمز له بالطائر بلشون[١] . أما الإله الأصلى لمصر العليا «ست – نبوت» فقد صمتت عنه هذه النصوص ولم تذكره بشئ، ويبدو أنه كان قد غلب على أمره ماما أمام الاله الصقر «حوريس» .

ومما يؤسف له أنه لم تصلنا وثائق تاريخية عن عباد حوريس ولذلك لا نستطيع أن نتكهن بالفترة التى حكموا مصر خلالها ، ولو أننا نعتقد أن فترة حكمهم هذه لم تدم طويلا ، إذ إن ما عثر عليه من آثار فى مقابر الفترة المتأخرة من حضارة نقادة يكاد يستمر دون انقطاع إلى عصر الأسرة الأولى، وبذلك لا نكون مغالين إذا قلنا إن فترتهم شملت السنوات القليلة التى سبقت الأسرة الأولى. ومصرى الدولة القديمة نفسه لم يكن يعرف الكثير عنهم ، إذ لم تصل إليه الا صور غير واضحة عن كنه هاتين المملكتين المبكرتين ، واعتقد المصرى أن عباد «حوريس» الذين فنوا هم ملوك من «الأشباح» ، بل إن القصص الدينى سماهم «أرواح بى» و «أرواح نخن» وأبرزهم على هيئة «صقور» وأحيانا على هيئة «أبناء أوى» .

ولقد بينا فى المقدمة كيف أن المصرى كان يجنح فى تعبيراته إلى استعمال المثنى وظهرت هذه الناحية بشكل واضح فى فترة «عباد حوريس» إذ كانت هناك مملكتان ولكل منهما عاصمتان، وتمكن المصرى فى أثناء هذا العصر من أن يخترع الكتابة الهيروغليفية التى تقدمت بسرعة فائقة، وتكون منذ ذلك الوقت الكثير من الرموز التى تعبر عن مملكتى مصر والتى احتفظت بمضمون المثنى وبقيت محتفظة به طوال العصور الفرعونية ، برغم أن هذا المعنى لم يكن ذا موضوع ، ونحن نعنى هنا العناصر المهمة من الألقاب الملكية مثل الحيوانين الرمزيين (وهما «العقاب» الذى يرمز إلى مصر العليا. و «الصل» الذى يرمز إلى مصر السفلى) وكذلك مثل النباتين الرمزيين (وهما «القصب» الذى يرمز إلى مصر العليا والبردى الذى يرمز إلى مصر السفلى) . ومثل التاجين الملكيين (وهما التاج الأبيض وهو عبارة عن قلنسوة من جلد ويرمز إلى مصر العليا . والتاج الأحمر الذى يتميز بقطعة من سلك حلزونى الشكل مرشوق فيه وهو يرمز إلى مصر السفلى) وما إلى ذلك، ونحن لا نشك فى أن الكثير من ألقاب الموظفين التى تتصل بمصر العليا وبمصر السفلى ترجع فى أصلها إلى ذلك العصر الذى كانت مصر فيه منقسمة إلى مملكتى «عباد حوريس» .

---

(١) بلشون بالعربية المصرية ، وهى القبطية بلكوب ويعرف أيضا بمالك الحزين (المترجم) .

وإذا كان من العسير أن نتحدث فى هذا المجمل التاريخى عن التطور الفنى للصناعات المصرية ، إلا أن علينا أن نخص بكلمة قصيرة مجموعة من روائع الفن المبكرة، وهى «لوحات الكحل الفاخرة»، فمنذ منتصف عصر حضارة نقادة الثانية أخذت بعض الموضوعات الزخرفية تظهر لنا منقوشة على مقابض من العظم لكثير من الأدوات أو على لوحات حجرية تستخدم لصحن الكحل الذى يتزججون به (لوحات الكحل) ، وعثر على لوحات كبيرة وغنية فى رسوم كانت بلا شك تستخدم لتجهيز الكحل الذى يستخدمه الملك فى مناسبات دينية معينة. وفى أول الأمر كانت تنقش الرسوم بدون نظام أو ترتيب بل وبدون أن يصحبها كتابات اللهم إلا بعض علامات قليلة لم نستطع حتى الآن تفسيرها. وكان الشخص الرئيسى (وهو الحاكم) يمثل على هيئة ثور أو أسد وينتقم من أعدائه بعنف وقسوة. ولقد اختفى هذا الأسلوب فى رسوم العصور التاريخية بعد أن هيمن على الفن المصرى نوع من التقاليد الفنية التى تذهب إلى التسامح والتمدن. ولكنا سرعان ما نجد أن التطور الفنى عند المصريين كان يهدف إلى النظام والترتيب . فأخذت الرسوم تنقش موزعة على صفوف يعلو كل صنف منها الآخر. وتكون هذه الرسوم على الأغلب ذات مغزى تاريخى، ولم نستطع إلى الآن أن نفهم معناها بوضوح نظرا لاعتمادها على المعانى الرمزية البحتة ، ومثال ذلك لوحة كحل تعرف باسم «لوحة الحصون» نجد على أحد وجهيها رسوما لحيوانات يرمز كل منها إلى الملك ويقوم كل منها بهدم جدار حصن ذى مداخل ومخارج بواسطة فأس يقبض عليها . وفى داخل كل حصن نجد على هيئة جدار دائرى اسما منقوشا لم نستطع للأسف أن نقرأه حتى الآن. ونجد على الوجه الآخر لهذه اللوحة بضع صفوف فى كل منها عدد من الماشية أو من الأشجار الخاصة بمنطقة ليبيا ، ونعرف ذلك من العلامة الموجودة بجانب هذا الصف والتى استخدمها المصرى بعد ذلك للتدليل على منطقة ليبيا ، ومن ذلك نعرف أن هذه الحيوانات والأشجار أخذت كجزية وأن هذه اللوحة تسجل نصرا مصريا على المناطق الليبية التى تجاور مصر من ناحية الغرب .

ومن المعروف أن الحيوان الذى مثل على اللوحة السالفة الذكر فى وسط الصف الأسفل ممسكا بفأس يهدم بها الحصن، هذا الحيوان عبارة عن عقرب . ومن أجل ذلك اصطلح العلماء منذ وقت طويل على أن يروا فى هذه اللوحة أثرا لملك يرمز إليه بالطريقة البدائية التى عرفناها فى الكتابة الهيروغليفية فى أوائل عصرها «بالعقرب» وهذا الرمز لا نستطيع حتى الآن قراءته ، ولذلك نطلق على هذا الملك اسم الملك العقرب، ولقد وصلت إلينا قطعة أخرى من عصر هذا الملك وهى

ما نسميها «دبوس القتال الفاخر» بعض الطقوس التى تقام فى المعبد ، وبالفعل عثر عليه بين أنقاض معبد هيراكونبوليس ونرى عليه نقشا يمثل الملك متحليا بتاج الوجه القبلى ذى اللون الأبيض، وبذلك يرمز إلى نفسه على أنه الحاكم للوجه القبلى فقط. ولابد أن يكون هذا الملك أحد الذين عبدوا حوريس فى مصر العليا ، ولابد أيضا أن يكون قد عاش فى عصر يسبق بقليل عصر الأسرة الأولى، ويتفق هذا التاريخ مع الأسلوب الفنى الذى اتبع فى تنسيق الرسوم التى وردت على القطعتين الأثريتين السالفتى الذكر من عصره .

وعلى هذا الأساس يكون الملك الذى ظهر فى التاريخ المصرى مباشرة بعد الملك العقرب هو «نعرمر» صاحب اللوحة الفاخرة لصحن الكحل ، وهى الصورة التى يجب أن نضعها فى الفجر الأول للتاريخ المصرى المؤرخ، لأن الأسلوب الفنى الذى نقشت على أساسه الرسوم التى وردت على وجهيها يحتم هذا، كما أن الملك قد ظهر فيها متحليا لأول مرة تارة بالتاج الأبيض الخاص بالوجه القبلى، وتارة أخرى بالتاج الأحمر الخاص بالوجه البحرى، وهكذا تكون مصر قد وحدت مرة أخرى فى عصره .

ويجدر بنا قبل أن ننتقل إلى الحديث عن تاريخ عصر الأسرتين الأولى والثانية أن نذكر فى كلمة موجزة شيئا عن مصادر التاريخ المصرى، وبخاصة أن ذلك يتصل بمصر ويعتبر من أهم الأمور التى تمس الشعوب المتحضرة والتى عاشت فى مناطق الشرق القديم فى عصور ما قبل الميلاد .

الفصل الثانى

التحديد الزمنى للتاريخ المصرى

التحديد الزمنى للتاريخ المصرى

١- كتاب التاريخ لمانيتون

إذا فرض أن كتاب التاريخ الذى كتبه «هيرودوت» عن مصر هو الكتاب الوحيد الذى وصل إلينا من الكتب التى ألفها المؤرخون الإغريق ، افتقدنا كل السبل التى تساعدنا على تكوين الإطار الذى يحوى أحداث التاريخ المصرى، اقتصرت معلوماتنا على الموقع الجغرافى لمصر وشعبها، وعلى تقاليدهم وعاداتهم ، وعرفنا بعض أسماء ملوك الفراعنة وما قاموا به من أعمال ، ولكنا لم نستطع أن نرتب هذه الأسماء ترتيبا تاريخيا كما نفعل الآن.

فى الواقع كان « مانيتون» الكاهن المصرى السمنودى هو أول من كتب التاريخ المصرى . حدث هذا فى عصر الملك بطليموس الثانى (حوالى ٢٨٠ ق.م) أى بعد ١٧٠ سنة من موت هيرودوت ، ولعل الذى دفع مانيتون إلى القيام بهذا العمل، هو الرغبة فى إظهار الحقائق التى مسخها هيرودوت الإغريقى فى كتابه . ويرجع الفضل لمانيتون فى تقسيم التاريخ المصرى إلى ٣٠ أسرة، وهو التقسيم الذى لا يزال العلماء يأخذون به، ويبدأ الأسرة الأولى بالملك مينا ، كما ينهى آخر الأسرات المصرية (الأسرة الثلاثين) بإعادة غزو مصر من الملك الفارسى ارتجزرسيس الثالث عام ٣٤٣ ق.م . وأضاف عصر ملوك الفرس الذين تعاقبوا على الحكم قبل أن يقوض اسكندر المقدونى امبراطوريتهم، ثم عصر اسكندر بعد أن فتح مصر جاعلا منه عهد حكم الأسرة الحادية والثلاثين .

ومما يؤسف له أن المؤلف التاريخى لمانيتون قد ضاع واندثر ، ويبدو أن القارئ الإغريقى لم يقبل عليه ولم يهتم به نظرا للأسلوب القومى الذى تميز به ، ومن أجل هذا لم نعثر فى المؤلفات الاغريقية على أى صدى لهذا الكتاب، فى حين أن الكتاب اليهود اعتمدوا عليه لتأكيد

العلاقات القديمة التى قامت بين أسلافهم وبين مصر . وعن هذا الطريق وصلت إلينا بضع فقرات منه سجلها «فلافيوس يوسفوس» ونحن نعتبر أن الأهمية الكبرى لهذه الأجزاء التى وصلت إلينا تقوم على أنها تسرد لنا أسماء الملوك المصريين الذين حكموا مصر الفرعونية مدونة أسماءهم بالنطق الاغريقى الذى كان سائدا فى أيام مانيتون . أما سنى حكم كل ملك كما ذكرها مانيتون فقد غالى فيها كل المغالاة بحيث لايستطيع أن يقبلها أى باحث فى شئون التاريخ. ولذلك لا نعتمد على هذه القائمة من ناحية تحديد عصر كل ملك إلا فى حذر شديد. ويبدو أن مانيتون فى تقسيمه للأسرات التى تشمل التاريخ الفرعونى اعتمد على معلومات صحيحة وصلت إليه من مصادر مصرية قديمة لها قيمتها وذلك لأنها تتفق كبيرا مع التقسيم الذى ورد فى الوثيقة التى سيأتى الكلام عنها على الصفحات التالية وهى المعروفة باسم «ورقة تورين البردية».

أما التقسيم الخاص بالدول فى عصر مصر الفرعونية فهو عمل قام به العلم الحديث، فنحن الآن نتحدث عن «الدولة القديمة» ونقصد بها عصر الأسرات فى مصر من الأولى إلى آخر السادسة. و«عصر الاضمحلال الأول» من الأسرة السابعة إلى آخر العاشرة و «الدولة الوسطى» من الحادية عشرة إلى آخر الثالثة عشرة و «عصر الاضمحلال الثانى» (وهو عصر الهكسوس) من الرابعة عشرة إلى السابعة عشرة و «الدولة الحديثة» من الثامنة عشرة إلى آخر الأسرة الرابعة والعشرين . وأخيرا «العصر المتأخر» ويبدأ من الأسرة الخامسة والعشرين وينتهى فى آخر الأسرة الثلاثين .

وهناك ما يثبت أن المصريين القدماء أنفسهم كانوا على علم بوجود قسمين شاملين مهمين فى تاريخهم القديم وهما ما نسميه الآن بعصرى الدولة القديمة والدولة الوسطى. ودليلنا على ذلك القائمة التى كتبت فى عصر الرعامسة (عصر الأسرة التاسعة عشرة) حاوية أسماء ملوك مصر منذ أول العصور حتى العصر الذى كتبت فيه، وميزت بوضوح مؤسس كل من الأسرتين الأولى والحادية عشرة. وكما نعلم أن كلا من هذين الإسمين نبدأ به عصرا قائما بنفسه، يطلق العلماء الحديثون على العصر الأول اسم «الدولة القديمة» وعلى العصر الثانى اسم «الدولة الوسطى».

٢- قوائم بأسماء الملوك الفراعنة

ترك لنا المصريون أنفسهم قوائم ملكية كتبوها تارة على أوراق البردى وحفروها تارة أخرى فوق الحجر فى معابدهم أو مقابرهم ، وهى قوائم تحمل لنا مادة مهمة للتعرف على حقائق التاريخ المصرى. ولعل أهم هذه القوائم البردية المحفوظة فى متحف تورين الغنى بآثاره والتى عرفت باسم «بردية تورين» . وهى ترجع فى كتابتها إلى عصر الرعامسة (الأسرة التاسعة عشرة) وتحوى أسماء ملوك مصر منذ عصر الآلهة مبتدئة باسم أول ملك (مينا) ومنتهية باسم الملك رمسيس الثانى، وقسمت هذا العدد من الملوك إلى مجموعات تتفق مع الأسرات التى ذكرها مانيتون . وتمتاز هذه البردية بأنها ذكرت عدد سنى حكم كل ملك كما ذكرت عدد سنى حكم ملوك كل أسرة. ونحن نعتقد أنه لو كانت هذه البردية قد وصلت إلينا سليمة غير مهشمة لما كنا فى حاجة إلى تاريخ مانيتون ولما التجأنا إلى القوائم الأخرى. ولكن مما يؤسف له أن هذه الوثيقة ذات الأهمية التاريخية الكبرى تعرضت لعوامل التلف فوصلت إلينا فى حالة رثة ولذلك نجدنا مضطرين إلى الاستعانة بالقوائم الأخرى. وبعض الوثائق المختلفة لكى نكون منها صورة كاملة للتاريخ المصرى.

وهناك قائمة سقارة التى كتبت فى عصر رمسيس الثانى وعثر عليها فى إحدى مقابر سقارة وهى محفوظة الآن بالمتحف المصرى وتتصل فى وضوح بورقة تورين البردية فى أن كلا منهما قد كتبت فى «منف» واتصلت على هذا الأساس بالتقاليد التى كانت سائدة فى مصر السفلى والتى كانت تحتم تسلسلا معينا للملوك الفراعنة . وقد ذكرت قائمة سقارة ثمانية وخمسين اسما ملكيا مبتدئة بالملك «ميبس» (الأسرة الأولى) ومنتهية بالملك رمسيس الثانى ولكن هذه القائمة لم تذكر سنى حكم الملوك.

أما قائمة أبيدوس التى كتبت فى عصر سيتى الأول وأقيمت فى معبده هناك فهى تمثل لنا القائمة التى اعتمدت على التقاليد السائدة فى مصر العليا . وفى عهد الأسرة التاسعة عشرة على وجه التخصيص تعلق المصرى بفكرة انحدار الملوك المصريين من سلالة الآلهة وبأن هؤلاء الملوك حالهم فى ذلك حال أولئك الآلهة الذين حكموا مصر فى العصور الغارقة فى القدم، يستطيعون توريث ملكهم لخلفائهم دون الاعتماد على العلاقات الأسرية التى تربط الأب بالابن الشرعى على ما كانت عليه الحال فى العصور التى سبقت ذلك العهد .

لقد سجل سيتى الأول نفسه ومعه ابنه وخليفته فى الحكم رمسيس الثانى متعبدا لأجداده ملوك مصر مبتدئا بأولهم الملك مينا وورد هذا التسجيل على حائط كبير فى معبد أبيدوس . وتعتبر هذه الوثيقة المصرية الأصيلة أحد مصادر التاريخ المصرى القديم المهمة ولو أنها لم تذكر عدد سنى حكم هؤلاء الملوك.

وهناك قائمة الكرنك التى تتشابه مع قائمة أبيدوس فى الغرض الذى من أجله أقيمت وكتبت فى عصر الملك تحوتمس الثالث (الأسرة الثامنة عشرة) وتمثل الملك نفسه يقدم القرابين لأجداده القدماء ذاكرا منهم واحدا وستين اسما . ومن الملاحظ فى هذه القائمة أن معلومات المصرى القديم عن تاريخ أجداده كانت تتضاءل كلما بعدت الشقة إذ أن أسماء الملوك الذين سبقوا تحوتمس الثالث مباشرة كتبت مع ملوك الدولة الوسطى بشكل يقرب من الحقيقة بينما الأسماء بعصر الدولة القديمة حدثت فيها أخطاء كثيرة، وهذه القائمة المهمة محفوظة الآن فى متحف اللوفر .

ولعل أهم وثيقة تاريخية من عصر الدولة القديمة هى المعروفة باسم حجر بالرمو وهى تعداد لأولئك الذين حكموا مصر من أول الخليقة حتى عصر الملك «نفر- ار- كارع» (الأسرة الخامسة) وهو الملك الذى سجلت فى عصره هذه الوثيقة، ونحن نكاد نعتقد أن هذه الوثيقة تعتبر تسجيلا تاريخيا يقام فى معابد مصر المهمة ويحفظ فيها ، إذ قد وصلت إلينا قطع كثيرة كلها تحوى نفس النص ، إلا أنها كانت موجودة فى أماكن مختلفة. ولأمر ما تسرب أكبر هذه القطع وأهمها إلى متحف بالرمو وأصبح هذا الحجر يعرف باسم هذه المدينة وهو لوح حجرى من البازلت الأسود نقش على وجهيه، وعلى الأول منها أسماء ملوك الأسرات من الأولى حتى الرابعة وعلى الوجه الآخر أسماء ملوك أواخر الأسرة الرابعة إلى الملك «نفر - ار - كارع» من الأسرة الخامسة. ومن الملاحظ أن الجزء الذى يعلو أسماء ملوك الأسرة الأولى فوق الوجه الأول قد خصص لأسماء ملوك مصر الذين حكموها فى عصور فجر التاريخ مخصصين بعضهم بالذكر على أنهم حكموا مصر العليا فقط بينما البعض الآخر حكم مصر السفلى فقط. على أساس أن المذكورين فى الأول قد لبسوا التاج الأبيض الخاص بالوجه القبلى وليس الآخرون التاج الأحمر الخاص بالوجه البحرى. وكان هناك بعض الملوك الذين حكموا مصر قبيل عصر مينا ، وتمكنوا من توحيد القطرين ودليلنا على ذلك أنهم لبسوا التاج المزدوج .

ويبدو أنهم بدءوا يسجلون عدد سنى حكم الملوك ابتداء من عصر الأسرة الأولى ولو أن سنى حكم الملك مينا غير موجودة على هذا الجزء من الوثيقة. وطريقتهم فى ذلك أنهم كانوا يفصلون

بين كل عام وآخر بواسطة العلامة الهيروغليفية التى ترمز للسنة وهى العلامة التى يبدو أنها قد استخدمت فى الكتابة ابتداء من عصر الأسرة الأولى، وذكرت أسماء ملوك العصر السابق لهذه الأسرة بدون تحديد سنى حكمهم على أساس أن عهدهم قد طال به المدى وأنهم اعتمدوا فى تدوينه على الذاكرة. أما أولئك الذين عاشوا فى العصر التاريخى أى الذين ذكرتهم وثيقة حجر بالرمو حتى الأسرة الخامسة فإننا لا نستطيع أن نفهم تماما عدد سنى حكمهم وذلك لأن المصرى فى ذلك العهد الباكر كان لا يكتب العدد بالنسبة إلى الملك بعينه بل كان يسمى كل عام باسم أهم حدث وقع فيه فكانوا مثلا يسمون العام باسم احتفال مهم أقيم لأحد الآلهة، وكان هذا الاسم يكتب مباشرة بعد العلامة الهيروغليفية المميزة للعام. ومن الواضح أن هذه الأحداث الهامة يتذكرها الناس كلما قرب عهدها بهم ومن أجل هذا أخذت أعوام حكم الملوك الذين سبقوا الأسرة الخامسة تزداد وهذا ما يفسر لنا أن الوجه الأول لحجر «بالرمو» قد خصص لعدد كبير من الملوك حكموا مصر حتى أواخر الأسرة الرابعة وخصص الوجه الآخر لعدد قليل من هؤلاء الملوك الذين حكموا مصر منذ أواخر الأسرة الرابعة حتى عصر الملك «ساحو- رع» السابق للملك الذى كتبت فى عهده هذه القائمة.

وتعتبر هذه الوثيقة فى أهميتها مماثلة لورقة تورين البردية إذ أنها تمثل لنا المصدر الموثوق به لأحداث التاريخ المصرى حتى عهد الأسرة الخامسة. ولو أننا قد حصلنا على نسخة كاملة لهذه الوثيقة لاستطعنا أن نعد سنى حكم كل ملك ولخرجنا بنتيجة حاسمة فى هذا الأمر ، ولكن للأسف فإن أكبر الأجزاء التى وصلت إلينا من هذه الوثيقة والمحفوظة فى متحف بالرمو لا تعطينا إلا فكرة تقريبية عن عدد سنى حكم كل ملك إذ أن المساحات المخصصة لهذه السنوات تأخذ فى الاتساع منذ العصر الذى بدأ بأول ملوك الأسرة الخامسة ولذلك كان علينا أن ننظر بعين الحذر إلى المحاولات التى قام بها الكثيرون من العلماء فى تفهم هذه الوثيقة وفى دراسة الأجزاء الناقصة منها مستخدمين فى ذلك طرقا مختلفة لاكمال هذا النقص.

وإذا كانت هذه القوائم الملكية لم تقدم لنا حتى الآن أية مساعدة لاقامة الأدلة فى تكوين التسلسل الزمنى للتاريخ المصرى فإنها قد قدمت لنا الدليل على تسلسل أسماء الملوك وتتابعهم، وبذلك نستطيع اليوم أن نؤكد على الأقل فى دراستنا العلمية هذه الناحية التاريخية.

٣- التقويم المصرى

حاول الكثير من العلماء ، حتى القدامى منهم، وضع قواعد ثابتة للتاريخ المصرى معتمدين تارة على ما وصل إليهم عن كتاب التاريخ لمانيتون ، وتارة على البقية الباقية من ورقة تورين البردية بما فيها من أعداد لسنى حكم الملوك، وكانوا فى محاولتهم هذه يهدفون إلى طريقة يستطيعون بها الوصول إلى الأعداد المعقولة للسنين التى عاشها التاريخ المصرى، هذه المحاولة لم تنجح إلا على يد المؤرخ العظيم «ادوارد ماير» ونشرها فى كتابه النموذجى «التقويم المصرى» الذى يعتمد عليه علماء التاريخ. لقد عرف الناس، منذ العصور الاغريقية ، أن المصريين القدماء توصلوا إلى السنة الشمسية ذات ٣٦٥ يوما ، وهى بعينها السنة التى أخذ الرومان يتبعونها فى حساب زمنهم منذ عصر يوليوس قيصر وأطلقوا عليها اسم «السنة اليوليانية» ، وبذلك يحق لنا أن نقول إن السنة التى نسير عليها الآن هى اختراع مصرى قديم، وتكونت السنة المصرية من اثنى عشر شهرا ينقسم كل منها إلى ثلاثين يوما ثم زادوا عليها خمسة أيام فى آخر السنة اعتبروها بمثابة الأيام التى ولد فيها الآلهة الخمسة التى تتكون منها مجموعة ازوريس وهى :اوزيرس، وازيس، وست، ونفتيس، وحوريس.

وجعلوا من هذه الأيام الخمسة مناسبات لاحتفالات دينية خاصة، أما الشهور الاثنا عشر فقد وزعت على ثلاثة فصول خص كل فصل منها أربعة شهور، ونستدل من الأسماء التى أطلقوها على هذه الفصول وهى : (الفيضان» و «بذر الحبوب» و «جنى المحصول» مدى اهتمام المصريين بفيضان النيل الذى يهب أرضهم الخصوبة ويجددها كل عام ، حتى أنهم أقاموا تقسيم فصولهم على هذه الظاهرة الطبيعية التى تأتيهم كل عام أى حدوث الفيضان، وترتب على ذلك أن اعتبر المصريون «عيد غرة العام» بمثابة اليوم الذى تظهر فيه بشائر الفيضان التى وقعت ولا تزال تقع فى منتصف الصيف أى حوالى منتصف يوليه بحسابنا الحالى. وعلى هذا الأساس تكون أشهر فصل «الفيضان» من يوليه حتى أكتوبر وأشهر فصل «بذر الحبوب» من نوفمبر إلى فبراير (ويتفق هذا مع أشهر الشتاء حاليا) وأشهر فصل «جنى المحصول» تتفق مع فصل الربيع أى من مارس إلى يونيه .

ولقد نجح أخيرا «نويجبارو» Neugebauer فى أن يبرز لنا حقيقة مهمة وهى أن السنة المصرية لم تعتمد فى حسابها على علم الفلك بل وصل إليها المصرى على أساس ظهور الفيضان عاما بعد عام ، فهى لا شك كانت سنة نيلية قام حسابها بين أفراد شعب زراعى لعب فيضان

النيل عندهم دورا رئيسيا ، إذ اتصلت به حياة الناس ورخاؤهم اتصالا وثيقا . ولم يكن من المهم لديهم أن يأتى الفيضان فى نفس اليوم من كل عام، بل يكفيهم أن يعرفوا أن فيضان نيلهم يأتيهم فى نفس الوقت تقريبا ، ونحن نعلم الآن أن الاختلافات الزمنية لا تلعب دورا مهما فى المدة التى يعيشها الإنسان.

ليس فى إمكاننا أن نؤكد متى استطاع المصرى أن يقيم «حساب السنة» على هذا الوجه ولعلهم أقاموه فى إحدى فترات عصور ما قبل التاريخ، وربما كانت هذه الفترة أثناء عصر حضارة نقادة الثانية ، وقد جعلوا يوم بدء فيضان النيل بمثابة أول أيام العام الجديد .

وحين مضى على هذا التوقيت عدة قرون لاحظ المصريون أن أول أيام العام الجديد أخذ يتأخر عن يوم بدء الفيضان بمدة طويلة، فلاحظوا أن أشهر بذر الحبوب (وهى بحسب توقيتنا الحالى أشهر الشتاء) أخذت تقع فى فصل الصيف ، ونحن تعرف الآن أن هذا الاختلاف يحدث على أساس أن السنة المصرية القديمة كانت تتكون من ٣٦٥ يوما فى حين أن السنة الشمسية تتكون من ٣٦٥ وربع ، ومعنى هذا أن الاختلاف يحدث بمقدار يوم واحد كل أربع سنوات ، ولقد تغلبنا على ذلك فى السنة الشمسية الحالية باضافة هذا اليوم مرة كل أربع سنوات وجعل السنة الرابعة «كبيسة» أي ٣٦٦يوم. وعلى ذلك أصبحت الفترة التى تشمل ١٤٦٠ سنة بالنسبة إلى التوقيت المصرى القديم تعادل ١٤٦١ سنة بحساب التوقيت اليوليانى «الشمسى». وأخيرا استطاع التوقيت الجريجورى الذى نفذ منذ القرن السادس عشر بعد الميلاد أن يقضى على كل العيوب وأن يجعل إضافة اليوم لا تحدث إلا مرة كل مائة عام.

٤- أهمية النجم الشعرى اليمانية فى التوقيت المصرى

هناك ناحية هامة ساعدتنا كثيرا على تحديد فترات التاريخ المصرى وجعلت هذه الفترات تتجاوب مع حسابنا الزمنى للتاريخ. ويرجع الفضل فى ذلك إلى الدراسة العميقة التى قام بها «ادوارد ماير» فى هذا الموضوع . لقد لاحظ المصريون أنفسهم أن سنتهم النيلية التى تبدأ من اليوم الذى يأخذ فيه النيل فى الارتفاع وتنتهى بنفس اليوم من العام التالى، أن هذه السنة تتفق بشكل واضح مع الدورة السنوية لنجم ثابت معين يبدو بوضوح بعد اختفاء طويل، وذلك مع بدء مجئ الفيضان مرة كل عام، ولاحظوا أيضا أن ظهوره هذا يحدث فى الفجر المبكر قبيل شروق

الشمس، أى ما نسميه الآن بالنسبة إلى بعض الكواكب «الطلوع المبكر» . هذا النجم الثابت، ذو الضوء الساطع نسميه الآن «الشعرى اليمانية» ، وأطلق المصريون عليه اسما مؤنثا هو «سبدت» وورد ذكرها فى التون الدينية القديمة على أنها «الجالبة للنيل» (أى التى تحدث فيضانه) وقدسوا هذا النجم على أنه صورة من صور «ازيس» ، ثم بعد ذلك اعتبره الاغريق بمثابة «الكلب الكبير» الخاص بالصياد «أوريون» (برج الجبار) فى السماء . ومن الطريف أن نعلم أن الناس فى العصر اليونانى الرومانى جمعوا بين الصورتين ، صورة النجم كالآلهة ازيس وصورته كالكلب وصنعوا تماثيل من الطمى المحروق تمثل ازيس راكبة فوق كلب.

ولقد أثبتت الدراسات الفلكية الحالية أن دورة النجم الشعرى اليمانية تعادل تقريبا دورة الشمس فى عام، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نتحدث ، بعد ما أسلفناه من شرح، عن سنة الشعرى اليمانية بدلا من حديثنا عن السنة اليوليانية ولذلك يحق لنا أن نسمى الفترة ذات ١٤٦٠ سنة باسم «فترة الشعرى اليمانية» ونظرا لأنه يمكننا الآن أن نرصد بسهولة ، «الطلوع المبكر» لكل نجم وأن نحسب فترات هذا الطلوع متبعين القواعد الثابتة للتوقيت الزمنى الحديث، لذلك أصبح فى مقدونا أن نحدد التواريخ التى توافق «الطلوع المبكر» لهذه النجم والتى وصلت إلينا مسجلة فى النصوص المصرية، وأن نقيم حساب هذه التواريخ على القواعد الفلكية الحديثة. وهكذا تبدو لنا بوضوح الأهمية الكبرى التى يمكن أن نعقدها على ورود طلوع «الشعرى اليمانية» فى تحديد فترات التاريخ المصرى تحديدا زمنيا ثابتا.

من المعروف أن المصريين احتفلوا بيوم «طلوع» النجم «الشعرى اليماني» جاعلين منه عيد أول السنة بجانب احتفالهم العادى بغرة العام الشعبى، ولقد أطلقوا على هذا العيد اسم «طلوع سبدت» ، وفى أثناء فترة «الشعرى اليمانية» ذات الـ ١٤٦٠ سنة، كان يحدث أن يتأخر عيد طلوع هذا النجم عن عيد غرة العام الشعبى بمعدل يوم كل أربعة أعوام، كما ذكرنا آنفا . ولكن كان العيدان يتحدان فى يوم واحد مرة كل فترة «الشعرى اليمانية» أى مرة كل ١٤٦٠ عاما. ولقد لاحظ القدماء أنفسهم هذه الظاهرة وكثيرا ما سجلوا حدوثها ، فسجل الكاتب الرومانى «سنسورينوس» هذا الحادث مثلا، وتمكن العالم «بوخاردت» أن يحدده بعام ١٣٧ بعد الميلاد. وأصبح هذا العام بمثابة نقطة ارتكاز تقوم على قرائن علمية فلكية ثابتة ، وما علينا إلا أن نذهب فى التاريخ فترة ١٤٦٠ إلى الوراء لنعرف متى بدأت فترة النجم «الشعرى اليمانية» وبعملية حسابية بسيطة يمكننا أن نحدد هذه الفترات بعام ١٣١٧ ق.م ، ٢٧٧٢ ق.م ، ٤٢٢٥ ق.م وهلم جرا، أى نستطيع بذلك أن نتوغل فى أعماق التاريخ.

ونظرا لأنه قد وصلت إلينا بعض النصوص المصرية التى تتحدث عن «طلوع» هذا النجم ففى استطاعنا أن نعين يوم «الطلوع» بإمكانياتنا العلمية الحالية وأن نحدد موضع هذا اليوم فى الإطار التاريخى. ومن أمثلة ذلك أنه ورد فى نص المرسوم الملكى الذى يرجع إلى عصر الملك بطليموس الثالث والذى عثر عليه فى مدينة «كانوب» (أبوقير) ذكر طلوع هذا النجم، ونستطيع أن نترجم هذا الحادث بأنه وقع فى ١٩ يوليه سنة ٢٣٧ ق.م ، كذلك وصلت إلينا من العصور القديمة بعض الأنباء التى تحدثنا عن طلوع «الشعرى اليمانية» ولعل أهمها هما تاريخان ، ورد أحدهما مسجلا على ورقة «ايبرس البردية» ولابد أنه اتفق مع ظهور الأسرة الثامنة عشرة، وورد الثانى مسجلا على ورقة بردية من اللاهون ويتعلق بعصر الدولة الوسطى. ولابد لنا أن نوجه النظر هنا إلى أنه من أهم المسائل التى يجب الاعتماد عليها عند استخدام هذه الأنباء الخاصة بحدوث طلوع النجم «الشعرى اليمانية» ، أن ندخل فى الاعتبار أيضا ما وصل إلينا من معلومات عن ملوك مصر فى قوائم الملوك» .

ولقد اعتنق كل من «ادوارد ماير» وهو الذى كشف أهمية النجم «الشعرى اليمانية» بالنسبة إلى التقويم المصرى- و «زيته» وبخاصة «بورخاردت» فكرة قدرتنا على تحديد عصور التاريخ المصرى وفتراته تحديدا زمنيا ثابتا ، إلى درجة أنهم اعتقدوا أن فى الاستطاعة تحديد هذه الفترات عاما عاما، متبعين فى هذا الشأن بعض الطرق المعقدة التى لاشك أنها أخرجتهم عن الهدف الذى كنا نقصد الوصول إليه. ومثل ذلك أن «ادوارد ماير» أثبت فى كتابه القيم عن «التوقيت المصرى» أن (١٩ يوليه عام ٤٢٤١ ق.م) هو أقدم توقيت ثابت فى تاريخ العالم. ولعل الخطوات التى قادته إلى هذه النتيجة تبدو لأول وهلة بسيطة ومقنعة . إذ أن المصريين لابد أنهم استعملوا توقيتهم الشمسى فى وقت اتفق حدوث طلوع النجم مع أول العام الشعبى، وكما رأينا فيما سبق ، لا يمكن أن يحدث هذا التوافق إلا فى أول فترة من فترات الدورة الخاصة بنجم الشعرى اليمانية . ونظرا لأن النظرية التى نادى بها «ماير» تؤكد أن أول الفترة التى تبدأ بعام ٢٧٧٢ ق.م كان «التوقيت الشمسى» معروفا ومستعملا فيها بل وقائما منذ عصر سابق، إذن لابد أن بدء استعماله يقع فى أول فترة سابقة لهذه، أي أنه بدئ باستعماله عام ٤٢٤١ ق.م هذا مع العلم بأن الدراسات الحديثة لا تجعل عام ٢٧٧٢ ق.م عاما بلغت فيه الحضارة المصرية حدا يتفق مع نظرية بورخاردت .

لقد سبق أن عارضت هذه النظرية من زمن بعيد، واعتمدت فى ذلك على أن اتباع «تقويم فلكى» دقيق ، هو عمل عقلى عظيم، يدل بلا شك على مقدرة ممتازة فى علوم الحساب والفلك لا تستطيع أن نتوقع حدوثه فى عصر مبكر لم يعرف الناس فيه الكتابة والقراءة . ومن أجل هذا وقفت المعارض للعلماء الثلاثة سالفى الذكر، وأكدت لهم أننا ، لو أحسنا الظن، فنحدد اتباع التوقيت الشمسى فى عام ٢٧٧٣ ق.م أى فى ذلك العصر الذى انبثقت فيه حضارة الدولة القديمة وحين غمر النور أرجاء التاريخ المصرى.

وأوضح لنا « نويجبار » المتبحر فى علوم الرياضة فى مقاله المعروف Die Bedeutungslosigh's der Sothisperiode fur die aelteste aegyptische Chronologi" Acta Orientalia (XVII

عدم استطاعتنا الاعتماد على فترات "الشعرى اليمانية" فى تحديد أزمنة العصور الأولى للتاريخ المصرى، كما حاول الأساتذة الثلاثة سالفو الذكر، ثم وجه النظر إلى أن من المقبول منطقيا أن نعتمد على "السنة النيلية" التى ذكرناها على الصفحات السابقة قاعدة للتوقيت الزمنى للعصور المبكرة . وإنى أعتقد أن حديثه هذا فيه الكثير من المنطق. إذ أن أهمية تتبع مجئ الفيضان للمصرى القديم فى عصوره الأولى ، لابد كانت عظيمة إلى درجة أنه سجلها بعناية، ونستدل على ذلك من التسجيلات التى وردت على قائمة الملوك المعروفة باسم "حجر بالرمو" والتى كتبها المصرى أسفل كل عام من الأعوام المثبتة فوق الحجر. هذه الحقيقة لا نحتاج لاثباتها إلى دراسات فلكية معقدة ، كما أظهر ذلك "نويجباور" أو إلى الاعتقاد بأن مصر حظت بتوحيد كامل بين قطريها فى عصر ما قبل التاريخ. كما أنه قد سبق القول بأن السنة الشعبية تتأخر بمقدار ربع يوم سنويا عن السنة "الشمسية، إلا أن هذا الاختلاف لايستطيع أن يؤثر شيئا فى حياة الجيل الواحد، والمصرى القديم إلا بعد مرور مدة من ثلاثة إلى أربعة قرون، وأن هذا العيد أخذ يقع فى فصل بذر الحبوب أو فى فصل "جنى المحصول" . ولعلهم فى هذه الحالة فقط أخذوا يفكرون فى مخرج من هذا المأزق ولابد أنهم وجدوا الحل فى "طلوع الشعرى اليمانية" التى أطلقوا عليه اسم "الجالبة للنيل" لأنهم كانوا يعرفون أن هذا النجم كان لايحدث "طلوعه" إلاَّ فى يوم مجئ الفيضان. وإنى أعتقد أن رصد "طلوع" هذا النجم حدث لعلاقته المباشرة ببدء حدوث الفيضان ، وليس كما قال "ماير" لأن المصرى أراد أن يقيم على حساب طلوعه توقيتا زمنيا ، حدث هذا الرصد منذ عصور مبكرة ويعتبر من الأسس الثانوية التى ساعدت فى إقامة التحديد الزمنى للتاريخ المصرى ولقد عبر عن ذلك "نويجباور" بقوله :

«لعل الاعتماد على النجم "الشعرى اليمانية" وإيجاد نوعين من التاريخ السنوى لم يحدث إلا بعد أن فصل المصريون تحديد سنتهم ذات ال 365 عن سنتهم النيلية وعلى هذا الأساس تصبح نظرية تحديد "أقدم توقيت ثابت فى تاريخ العالم" غير ذات موضوع ويمكننا أن نتجاهلها .

ونحن لا نستطيع أن نحدد الوقت الذى ربط المصريون فيه توقيتهم بطلوع النجم الشعرى اليمانية، ولكن فى مقدورنا أن نؤكد أن تقسيم العام إلى ٣٦٠ يوما مع زيادة خمسة أيام "النسئ" كان معروفا فى عصر الدولة القديمة. ولكن ما ينقصنا تماما هو تسجيلات طلوع "الشعرى اليمانية" التى ترجع إلى عصر الدولة القديمة ، إذ أن أقدم ما وصلنا من هذا النوع يرجع إلى الدولة الوسطى (الأسرة الثانية عشرة) . فإذا اتبعنا نظرية "نويجبار" التى يذهب فيها إلى أنه حدث فى عام ٢٧٧٢ ق.م "طلوع" اعتبر بمثابة بدء لفترة الدورة الخاصة بالنجم "الشعرى اليمانية" ، فلا يمكن أن نتوقع حدوث اختلاف بين أول العام بحسب التقويم الشمسى وأول مجئ الفيضان إلا بعد مرور ٣٠٠ إلى ٤٠٠ عام، وعلى ذلك لا نستطيع أن نعتقد أن المصريين أقاموا توقيتهم على أساس طلوع النجم «الشعرى اليمانية» إلا حوالى عام ٢٣٠٠ ق.م . أى حوالى أوائل عصر اضمحلال الأول. وفى هذه الحالة يكون ذلك التسجيل الوارد على بردية اللاهون السالفة الذكر هو أقدم أو على الأقل من أقدم ما سجل لهذا النوع ، وبذلك يختفى أملنا بأنه ستصل إلينا يوما ما أية تسجيلات ترجع إلى عصر الدولة القديمة، لسبب واضح وهو أن الاعتماد على طلوع هذا النجم لم يكن معروفا بعد فى ذلك الوقت .

وإذا سلمنا بعدم العثور على ما يثبت استخدام المصريين لطلوع هذا النجم فى تقويمهم ابان عصر الدولة القديمة ، تتبقى لدينا وسيلتان نعتمد عليهما لتحديد فترات الدولة القديمة تحديدا زمنيا .

أولاهما هى النقوش التى تتحدث عن حياة صاحب المقبرة وخاصة إذا كان هذا ممن عمروا طويلا، ومثل هذه النقوش تجرى على الوجه الآتى : إن صاحب المقبرة واسمه فلان ولد فى عصر الملك فلان ثم تقلد المناصب (ويأتى ذكرها) فى عمر الملك الابن ثم الملك الحفيد ، هذه الحقائق يمكن دراستها ومقارنتها مع عدد سنى حكم كل من الملوك الذين وردت أسماؤهم فى النقش، وإذا حدث أن أنتجت هذه الدراسة عددا من السنين مغالى فيه ، فهو فى نفس الوقت لا يمكن أن يزيد كثيرا على ما يستطيع إنسان عادى أن يحياه . ولعل السبب فى أن نتيجة حساب سنى حكم

بعض من الملوك توالت عهودهم قد تبدو كبيرة، وهو أن بعض هؤلاء يكونون فى الواقع قد اشتركوا مع آبائهم فى الحكم ، وهو أمر كان كثير الحدوث فى مصر القديمة ، وإذا كانت دراسة «ماير» قد انتجت عددا من السنين بلغ ٤١٩ سنة لحكم ملوك الأسرتين الأولى والثانية. فإننا ما زلنا ننظر بعين الحذر إلى هذا التقدير الذى يبدو بوضوح أنه مبالغ فيه ، وبخاصة لأن هذا العدد من السنين لم يرد على وثيقة معاصرة، بل ورد على ورقة تورين البردية ، ومما يؤسف له أن آثار هاتين الأسرتين لم تفصح لنا مطلقا عن أية معلومات تخص سنى حكم هؤلاء الملوك ولكن نستطيع أن نقدر لهذه الفترة مدة قرنين على الأكثر .

أما الوسيلة الثانية التى تساعدنا فى الحصول على تحديد دقيق لفترات عصر الدولة القديمة، فهى الآثار المكتشفة . ومن المعروف أننا لا نستطيع الآن أن ندرس الحضارة المصرية بمفردها بل علينا أن ندخل فى الاعتبار حضارات الأمم المتاخمة والتى عاصرت مصر منذ أول عصورها . ونحاول التقريب بين العصور المتشابهة ونتساءل - معتمدين على دراستنا للآثار - عن أوجه الشبه بين الحضارتين، مع استقرائنا لكل من المظاهر الأثرية، ولقد ذكرنا فيما سبق عند الحديث عن حضارة نقاده الثانية ، أن الفترة الأخيرة منها وأوائل الفترة الخاصة بالأسرة الأولى امتازت بحضارة تتفق فى كثير من مظاهرها مع حضارة «جمدة نصر» فى بلاد ما بين النهرين، كما ثبت ذلك من نتائج أعمال التنقيب التى قامت بها البعثة الأمريكية فى شمال سوريا (تل اليهودية) ومن المعروف أن الأبحاث الأثرية الخاصة ببلاد ما بين النهرين قد تقدمت إلى درجة تسمح لنا بتحديد أزمنة تاريخ هذه البلاد، كما أنه ليس هناك أى مؤرخ يرجع حضارة «جمدة نصر» إلى فترة تسبق عصر ٣٠٠٠ق.م بل أثبتت الدراسات الحديثة أن هذه الحضارة ترجع إلى الربع الأول من القرن الثلاثين قبل الميلاد، ومن أجل هذا ، نجد أنفسنا مضطرين إلى تحديد عصر مينا ، وعصر بدء الأسرة الأولى حوالى عام ٢٩٠٠ ق.م.

وعلينا الآن بعد ما أسلفنا من شرح، أن ننفى بشدة ما حدده «بورخاردت» بعصر الملك مينا وبداية الأسرة الأولى، أي حوالى عام ٣٨٥٠ ، ٤٠٥٠ وعلينا أيضا أن نرفض التحديد الذى أخذ به كل من «ماير» و «برستد» ومن أتى بعدها والذى جعل عصر «مينا» فى القرن الأربعين قبل الميلاد، سواء كان العام المحدد لعصره هو ٣٤٠٠ ، أو ٣٣١٥ ، أو ٣٢٠٠ ، أو ٣١٨٠ ق.م . والسبب فى هذا الرفض هو أن التحديد مبالغ فيه ويجانب الحقيقة .

الفصل الثالث

الدولـة القديمـة

الدولـة القديمـة

(من عام ٢٨٥٠ إلى ٢٠٥٢ ق.م)

اعتدنا أن نقسم العصر الطويل لازدهار الحضارة المصرية إبان الدولة القديمة إلى الفترات الآتية:

١- عصر الأسرات الأولى

(الأسرتان الأولى والثانية)

٢- عصر بناة الأهرام

(الأسرات من الثالثة إلى آخر السادسة)

٣- عصر الاضمحلال الأول

(الأسرات من السابعة إلى آخر العاشرة)

وهو العصر الذى تنتهى به الدولة القديمة ويقدم فى نفس الوقت للدولة الوسطى

١- عصر الأسرات الأولى (٢٥٨٠ إلى ٢٦٥٠ ق.م)

لا نكاد نتقدم خطوة واحدة فى التاريخ المصرى حتى نصطدم بذلك السؤال العسير، من هو «مينا» موحد القطرين ، وما موقف هذه الشخصية الفذة من القصص المكتوب عنه وما التقاليد التاريخية التى جعلت منه الملك الأول ووضعته على رأس القوائم الملكية؟ فى الواقع أننا لم نستطع حتى الآن أن نلقى ضوءا على هذا السؤال . فاسم هذا الملك «مينا» وصل إلينا عن طريق الكتاب الاغريق (هيرودوت وغيره) ولم يرد اسمه فى القوائم الملكية إلا ابتداء من عصر الدولة

الحديثة. فقد ورد مثلا في قائمة الملوك بأبيدوس ، بينما لم يرد للأسف فى قائمة الدولة القديمة المعروفة باسم «حجر بالرمو» وهذا الاسم يسبب لنا أيضا صعوبة لغوية أخرى، فهو عبارة عن مصدر للفعل «من» ومعناه «يبقى، يدوم»، ويبدو أن المصريين أنفسهم فى عصورهم المتأخرة ، وإن لم يكن قبل ذلك ، قد قصدوا بهذا الاسم وصف صاحبه بصفة «الدائم»، ومن أجل هذا حدثنا «اراثوستنيس» الكاتب الاغريقى بأن اسم أول ملوك المصريين هو «أيانيوس» ومعناه «الأبدى» ونحن نوجه النظر إلى خطورة التسليم بأن العلامة الهيروغليفية التى تنطق «من» تدل فى نفس الوقت على اسم الملك «مينا» ، وبخاصة أن هذه العلامات فى أوائل عصر استخدام الكتابة كانت تكتب بشكل مقتضب يفتقر إلى العلامات المخصصة، ومما يدعو إلى الأسف أن كل علماء الآثار من الرعيل الأول قد وقعوا فى هذا الخطأ.

وإذ قد أظهرنا بعض التشكك فى اسم الملك «مينا» ، فإننا نحاول أن نستقرئ الآثار عن المؤسس الأول لوحدة مصر وعن اسمه . ومن أجل هذا فعلينا أن نعود إلى ما ذكرناه فى الفصل السابق عن آثار ذلك الملك الذى ورد اسمه مكتوبا عليها بعلامة «العقرب»، وهى الآثار التى عثر على معظمها فى عاصمة مصر العليا القديمة «هيراكليوبوليس» (الكاب) . وليس من شك فى أن ذلك الملك «العقرب» كان أحد الذين عبدوا حوريس واستقروا فى مصر العليا، إذ أنه كان يلبس التاج الأبيض فقط. وكان منهمكا فى حروب مع أهل مصر السفلى، كما تحدثنا بذلك الصور والرسوم الرمزية التى وردت منقوشة فوق «دبوس القتال» الخاص به .

ومنذ وقت طويل لاحظ العلماء التشابه الكبير فى الأسلوب الفنى الذى ظهر فى نقوش «الملك العقرب» ونقوش الملك «نعرمر» التى وردت على لوحته الفاخرة المخصصة لصحن الكحل وعلى دبوس القتال ، وكليهما عثر عليه فى مدينة «هيراكونبوليس» . ومن الواضح أن هذا الملك هو أقدم من استخدم التاجين الأبيض والأحمر ، ومن نقوشه هذه نستدل أيضا على أنه خرج كملك لمصر العليا يحارب أهل مصر السفلى وأنه انتصر ولذلك وحد القطرين ، وأصبحنا نرى فيه تلك الشخصية الفذة التى استطاعت أن تقيم التوحيد الكامل ، واستحق أن يسمى «نعرمر- مينا» . ويضاف إلى ذلك أن «بترى» عثر على مقبرة فى أبيدوس، يؤكد أنها مقبرة «نعرمر» إذ عثر فيها على بضع قطع بسيطة من بينها ما سجل عليه اسم هذا الملك بواسطة أختام ، ولكن هذا كله لا يكفى، فلا زلنا نفتقر إلى أثر يثبت أن شخصيتى نعرمر ومينا هما لملك واحد.

ونظرا لأن الآثار التى ترجع إلى عصر الأسرة الأولى والتى عثر عليها فى أبيدوس لم تخرج لنا قطعة واحدة تسجل لنا اسم «مينا» ، فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نقدم على محاولة أخرى تهدف إلى إيجاد اسم آخر تعادله باسم «مينا» ، وبخاصة أن اسم «نعرمر» يفتقر إلى قرائن وأدلة أكثر مما وصلت إلينا. وبالفعل عثر على بضع آثار صغيرة لملك سجل اسمه الملكى على هذا النحو «حوريس عحا» . ويبدو واضحا من الأسلوب الفنى الذى استعمل فى النقش وخاصة طريقة كتابة العلامات الهيروغليفية، أن هناك تقاربا شديدا بين عصر هذا الملك وعصر «نعرمر» وبذلك نستطيع أن نؤكد أن عصره يقع فى أوائل عهد الأسرة الأولى . وغير هذا، فنحن نعلم من قائمة الألقاب الملكية التى استقرت فى أواخر عصر الدولة القديمة والتى عينت خمسة ألقاب لكل ملك من ملوك الفراعنة ، نعلم أن أول هذه الألقاب هو الذى يجعل من الملك «حوريس» أى أنه إله يحيا فوق الأرض. ولقد سبق أن رأينا كيف أن «حوريس» هذا يعتبر اله رئيسى يهيمن على قطرى مصر وأن ملوك مصر فى ذلك الوقت اعتبروا أنفسهم «عبدة حوريس» ، وأصبح هذا المعبود الها للدولة بعد أن «توحد قطراها، واعتبر فرعون مصر بمثابة ممثل له على الأرض ، يحق على الناس أن يتقدموا إليه ببعض فروض التأليه أثناء حياته الأولى. ومن السهل علينا أن نتعرف على الاسم الحوريسى للملك إذا أنه كان يكتب داخل ذلك الرسم المعروف باسم «سرخ» والذى يصور من فوقه شكل الصقر واقفا منتصب الجسم، وما «السرخ» إلا اسم التقليدى لواجهة القصر وبها ثلاثة مداخل ، وكان اسم الملك يكتب بعلامات هيروغليفية مقتضبة داخل المستطيل وفوق صورة المداخل الثلاثة، ولقد تعودنا اطلاق الاسم الحوريسى على ملوك الأسرة الأولى وذلك لسبب بسيط ، وهو أننا لم نعثر لهم على هذا الاسم .

ونحن نستدل على أن الملك «عحا» سيطر على قطرى مصر- مثله فى ذلك مثل «نعرمر» من اللوحات الصغيرة المنقوشة وهى تحمل اسمه ، والتى نعتبرها بمثابة رقاع تثبت فوق الشئ للتدليل على ملكيتها ، أما النقوش فهى ترمز باستمرار إلى صفات ملكية تثبت سيطرته على قطرى مصر: الوجه القبلى والوجه البحرى . كما وردت فيها الرموز المعروفة مثل العقاب والثعبان ونبات القصب ونبات البردى، وأما العقاب والثعبان فقد جعل منهما المصرى رمزين وربط بينهما وأصبحا بمثابة اللقب الثانى للملك ، ونطقهما «نبتى» بمعنى «السيدتين» ويقصد بذلك الالهتين الحاميتين، الأولى لمصر العليا والثانية لمصر السفلى- وعلى إحدى اللوحات الصغيرة السابقة

الذكر وجدنا نقشا يذكر مباشرة بعد اللقب «نبتى» علامة «من» التى سبق ذكرها، والتى أصبحنا نفسرها منذ ذلك الحين على أنها العلامة الهيروغليفية لاسم الملك «مينا» ومن الواضح أننا هنا لسنا أمام نقش يذكر لقبين من ألقاب الملوك، وذلك لأن اللقب «نبتى» تصدر النقش وهذا يخالف تماما التقاليد المصرية التى تحتم أن يأتى اللقب «حوريس» فى الصدر، وغير هذا فقد نقشت العلامة «من» فى وسط دائرة تمثل العلامة المخصصة للمبنى، وعلى هذا نعتقد أن العلامة بأكملها («من» داخل دائرة مخصصة للمبنى) تدل على مبنى معين فى مكان معين سمى باسم «مينا» وورد هذا الاسم بعد اللقب «نبتى» وعلى كل حال فنحن هنا أمام أثر صغير خلفه لنا أحد الملوك وقد نقش فوقه اسمان هما الاسم الحوريسى «عحا» والاسم المسبوق بلقب «نبتى» «مينا» . ولكن مع كل هذا الغموض الذى يهيمن على هذا النقش ، ففى استطاعتنا أن نفترض أن «مينا» و «عحا» يمثلان شخصية واحدة. وهنا نوجه النظر إلى أن الآثار الأخرى التى خلفها لنا ملوك الأسرة الأولى تدل على أن الاسم المسبوق بلقب «نبتى» هو بعينه الاسم الذى يسبق عادة باللقب الرابع من ألقاب فراعنة مصر (أى «نيسوت- بيتى» أى ملك مصر العليا والسفلى) وفى هذه الحالة نستطيع بحق أن نعتقد أن «مينا» هو اسم العرش الخاص بنفس الملك الذى كان الاسم الحوريسى الخاص به هو «عحا».

أما مقبرة الملك «عحا – مينا»، فقد اعتقد «بترى» أنه عثر فى أبيدوس على مقبرة الملك «عحا» وذلك أثناء تنقيبه الواسع فى هذه المنطقة الذى كشف فيه عن كل المقابر الملكية الخاصة بهذا العصر المبكر من التاريخ المصرى. ولقد تشابهت مقبرة «عحا» . مع مقبرة «مينا» التى سبق ذكرها على الصفحات السابقة، من وجوه عدة، أهمها أن المقبرتين تعتبران من أصغر وأبسط المقابر الملكية التى عثر عليها فى هذه الجبانة، وفى نفس الوقت يحوم الشك فى تبعية هاتين المقبرتين للملكين السالفى الذكر. وغير هذا فقد كشف «دى مورجان» فى أواخر القرن التاسع عشر، عن مقبرة ضخمة بالقرب من نقادة، ولقد سبق لنا التحدث عن أهمية هذه المنطقة عند الحديث عن حضارات مصر العليا فى عصور ما قبل التاريخ. هذه المقبرة الضخمة شيدت من اللبن، وهى تختلف فى طرازها عن جميع المقابر التى كشف عنها معول المنقب من عصور التاريخ المصرى المبكر سواء من عصر جدرانها التى تعلو سطح الأرض والتى تكون المستطيل المبنى بوجود مداخل ومخارج تجعلها أشبه بحصن منيع، ومع أن المقبرة قد تعرضت لحريق كبير أتى على محتوياتها فقد عثر على آثار كثيرة من بينها اللوحة الصغيرة التى سبق ذكرها والتى حوت نقشا يذكر اسمى

الملكين «عخا» و «مينا» ، ومن أجل هذا اعتدنا منذ مدة طويلة أن نطلق على هذه المقبرة اسم «مقبرة مينا»، ولكن دراساتنا الحديثة تجعلنا اليوم نحيط هذه التسمية بشكوك مختلفة تقوم على قرائن ليس هنا مجال مناقشتها . من أجل هذه نرجح النظرية التى نادى بها المنقب الإنجليزى «امرى» ، وهى النظرية الخاصة بنسبة المقبرة الضخمة التى عثر عليها فى جبانة الأسرة الأولى بسقارة، إلى الملك «حوريس خا» أى إلى الملك «مينا» أيضا. ولو أنه لم يكشف هناك حتى الآن عن أثر يثبت أن هذين الاسمين هما لملك واحد[1].

وهكذا نستطيع الآن أن نجمل القول عن النظرية الثابتة الخاصة بالملك «مينا» موحد القطرين.

إن اسم الملك «مينا» الذى ذكر على رأس القوائم الملكية التى وصلت إلينا من عصر الدولة الحديثة، والذى تحدث عنه كتاب الاغريق على أنه الملك التقليدى الأول لمصر، هذا الاسم لم يظهر إلا مرة واحدة على آثار الأسرة الأولى، وذلك على أساس أنه الاسم الذى يسبق بلقب «نبتى» لرجل كان اسمه «الحوريسى» هو «عخا» . وليس من شك فى أن صاحب هذا الاسم كان يقبض بيد حديدية على قطرى مصر. وأن الملك الذى يعرف باسمه «الحوريسى» «نعرمر» يعتبر فرعون مصر الذى نجح فى التغلب عسكريا على مصر السفلى وأنه خرج لينفذ هذا الهدف من عاصمته الجنوبية «هيراكونبوليس» حيث عثر على أهم الآثار المهورة باسمه . وهناك بعض القرائن تجعلنا نرجح أن كلا من الاسمين «عخا» و «نعرمر» يطلقان على شخصية تاريخية واحدة. وذلك على أساس الاعتقاد بأن «نعرمر» وهو أحد «عبدة حوريس» فى مصر العليا قد أطلق على نفسه اسم «عخا» حين تم له النصر على مصر السفلى. وبخاصة أن هذا الاسم يعنى فى اللغة المصرية «المكافح» (وهو يقصد فى نفس الوقت معنى المنتصر) وبذلك يحسن بنا أن نرى فى هذا نوعا من الفخر وقد اتخذه لقبا وليس اسما .

---

(١) لقد نشر «امرى المعلومات التى حصل عليها من كشوفه فى جبانة ملوك الأسرة الأولى بسقارة فى :

1- Emery, W., «Hor Aha», Cairo, 1939.

2- Emery , W., «Great Tombs of the Ist Dynasty», vol,I. Cairo, 1949

ومما يؤسفنى حقا أنى لم استطع الاطلاع على الكتاب الثانى إذ قد مضى على نهاية الحرب العالمية الثانية خمس سنوات ولم نتغلب حتى الآن على الصعوبات التى تواجهنا لاستيراد الكتب العلمية من الخارج.

وإذا أراد البعض ألا يأخذوا بهذه النظرية، فليس أمامنا إلا أن نقدم لهم التفسير الآتى ، وهو أن «نعرمر» لسبب من الأسباب التى نجهلها لم يحظ بالتمتع بنتائج انتصاراته الكبيرة، ، ولذلك اقترن اسم خليفته «عحا» بهذا النصر وحظى بالتمتع بنتائجه وأصبح فى عرف التقاليد هو الذى وحد البلاد. أما اسم «مينا» الذى ورد مرة واحدة على الآثار المبكرة والذى أصبح فى النصوص المتأخرة بمثابة الجد الأول لملوك مصر، فمن البديهى أن نقرن اسمه بكل من الاسمين سالفى الذكر «عحا» و «نعرمر» .

ولعل أهم الأعمال السلمية التى قام بها «مينا» ، بحسب ما سجله لنا المؤرخ «هيرودوت» كان تشييده العاصمة «منف» والتى استمرت تقوم بهذا الدور طوال عصر الدولة القديمة كما شيد فيها معبد «بتاح» الاله الرئيسى لمقاطعة منف، وأحاط الاثنين بسور ضخم عرف باسم «السور الأبيض» ، وذلك لحمايتها من بعض الثورات التى كانت تقوم على الأرجح بين سكان مصر السفلى المغلوبين على أمرهم. وكذلك سجّلت آثار الأسرة الأولى أن عبادة الثور «أبيس» كانت إذ ذاك قائمة فى معبد «بتاح» فى منف . وتقع هذه المدينة العتيقة إلى الجنوب من القاهرة الحالية وعلى الشاطئ الغربى للنيل وهى لا تبعد كثيرا عن نقطة تفرع النيل عند الدلتا، وهى النقطة التى كانت ولا تزال تعتبر بمثابة المركز التقليدى للهيمنة على قطرى مصر ، ومن أجل هذه أطلق الناس على «منف» فى العصور المتأخرة اسم «ميزان القطرين».

ولم يبق الآن من منف إلا أطلال قليلة لا تزال قائمة بين أشجار النخيل ، وهذه الأطلال هى التى تذكرنا بالعاصمة العالمية القديمة، أما «السور الأبيض» الذى بناه «مينا» فقد أصبح علما يطلق اسمه على المديرية الأولى من مديريات الوجه البحرى، وهكذا أصبحت هذه المدينة والمديرية التى تنتسب إليها معدودة فى عرف المصريين القدماء من بين مناطق الوجه البحرى، ويهمنا هذا الاعتبار بالنسبة إلى الجبانات المتسعة التى خصصت لأهالى هذه المديرية وبخاصة الجبانات التى تميزت بتشييد الأهرامات إبان عصر الدولة القديمة ، وأقدم هذه الجبانات وأكثرها اتساعا تقع فوق التل الذى يطل على قرية «سقارة» وتحوى الكثير من المقابر الضخمة المشيدة من اللبن وتتميز بمشكاواتها التى تشابه مقبرة نقادة السالفة الذكر والتى تعتبر فى طرازها هذا الوحيدة من نوعها فى مصر العليا . ونحن نعتقد أن هذا الطراز المميز لأسلوب البناء فى مصر السفلى، ولا غرابة فى ذلك، فإن منشئ منف وهو «حوريس عحا» (مينا) قد أختار هذا المكان لدفن جثمانه ، ولكن ليس معنى هذا أن كل ملوك الأسرة الأولى قد اختاروا سقارة لكى تكون مقرهم الأخير.

لقد حدثنا كتاب الاغريق عن « مينا » فقالوا أنه نشأ فى مدينة « ثينه » بمصر العليا وهذا هو سبب اطلاق « ادوارد ماير » على ملوك الأسرتين الأولى والثانية اسم « الشينيين » و « ثينة » كانت المركز الرئيسى فى المديرية الثامنة من مديريات الوجه القبلى، وهى معروفة الآن باسمها المصرى القديم الذى ينطق على غرار الأسماء الاغريقية أى « أبيدوس » حيث تمتد المبانى المشيدة للمقابر والمعابد القديمة. ولقد أكد الملوك « الثينيون » أصلهم القبلى بتحديهم الظاهر فى جعل كل الرموز والإشارات التى تدل على مصر العليا تسبق تلك الخاصة بمصر السفلى، فمثلا يسبق الرمز المقدس لمصر العليا وهو « العقاب » أو « البردى » (وكلاهما يرمز لمصر السفلى) ، ويسبق « نبات » الحلفاء » « النحلة » أو « البردى » (وكلاهما يرمز لمصر السفلى) ، ويسبق التاج الأبيض دائما التاج الأحمر وهلم جرا ، وهذا الشعور القومى هو الذى دفع ملوك الأسرة الأولى إلى أن يشيدوا لأنفسهم مقابر فى عاصمة إقليمهم « ثينة » ، وبالفعل عثر على مقابرهم فى جبانة « أبيدوس » ولو أن مؤسس الوحدة أى الملك، « مينا » رأى أن يشيد مثواه الأخير بالقرب من العاصمة الجديدة التى أسسها فى الشمال مفضلا إياها على جبانة بلدته التى نشأ فيها وخرج منها . وفى هذه القرائن نجد الحل المنشود الذى يوفق بين الآراء المختلفة والذى يجعلنا ننادى بأن لا ضرورة للاعتقاد بأن جميع ملوك الأسرة الأولى لابد أن يكونوا قد شيدوا مقابرهم فى جبانة سقارة، وأن لاسبب يدعونا أن نعتبر مقابر هؤلاء الملوك فى أبيدوس نوعا من « المقابر الرمزية » فقط، نقولها والأسف يملأ قلوبنا ، إنه لم يعثر حتى الآن على الأدلة التى نرتكز عليها للتفرقة بين المقبرة التى استعملت فعلا للدفن وبين تلك التى شيدت لتكون « مقبرة رمزية » وذلك لأن كل المقابر، سواء منها ما شيد فى سقارة أو فى « أبيدوس » قد وقعت فريسة لسطو وحشى لم يبق فيها على أى أثر من آثار الدفن. حقا أن الآثار القليلة التى كشف عنها فى المقابر الملكية بأبيدوس تثبت بالفعل أنها كانت جديرة باستعمال الملوك، أقصد بذلك اللوحات (النصب) التى كانت تقام فوق المقابر الملكية والتى تعتبر حتى الآن من روائع الفن المصرى ونخص بالذكر اللوحة التى نضعها بين أثمن مقتنيات متحف اللوفر بباريس والتى تذكر اسم الملك « الثعبان » منقوشا بالعلامة « الثعبان » فى وسط واجهة القصر (سرخ) والتى يحط فوقها الطائر « حوريس » (أى الاسم الحوريسى للملك الثعبان) ونذكر كذلك القطع الصغيرة المصنوعة من العاج والتى تمثل أرجل الكراسى والأسرة ثم الأوانى الحجرية الفاخرة التى قدها المصريون من أندر أنواع الأحجار الثمينة، وهذه كلها تعتبر بحق من المقتنيات التى يحرص الملوك على تزويد مقابرهم بها ، ولا يمكن أن نعتقد أن المصرى كان قد وضعها فى مقابر وهمية أو رمزية كما يرغب البعض فى أن يصف هذه المقابر فى أبيدوس.

لقد خلف لنا «بترى» دراسة دقيقة عن الأسلوب المعماري الخاص بالمقابر الملكية التى عثر عليها فى جبانة أبيدوس على أثر تنقيبه الواسع هناك، وهو التنقيب الذى نود لو أنه أجرى بطريقة تعود علينا بنفع أكبر . ولكن ما يهمنا هو أن «بترى» أظهر لنا أن المقابر الملكية التى عثر عليها هناك تعتبر فى أسلوبها المعمارى تطورا يتبع مباشرة المقابر المستطيلة التى ترجع إلى العصر المتأخر لحضارة نقادة الثانية. وهكذا نستطيع أن نحكم على التسلسل الرتيب فى الأسلوب المعمارى الخاص بتطور بناء المقبرة ولقد ظهر من بين أساليب التطور أن المصرى أقام درجا منحدرا ليصل إلى حجر الدفن بطريقة أكثر سهولة ، كما وسع الجزء المحفور فى باطن الأرض بإضافة بعض الحجرات الجانبية . ويعتبر إضافة كساء من الألواح الحجرية فوق أرضية حجره الدفن من بين الأشياء النادرة جدا . وفى حالة واحدة، ظهرت فى مقبرة الملك «قع» آخر ملوك الأسرة الأولى، الحجرات الجانبية التى أضيفت إلى حجرة الدفن وقد زجت فى مكان ضيق نظرا لأن الطريق المنحدر قد سد عليها الفرصة لتوسيعها وكانت المقابر الجانبية المرصوصة حول المقبرة الرئيسية تتحكم فى النطاق الخاص بالمشروع كله إلى درجة تجعلنا نعتقد أن التصميم الهندسى الذى وضع لهذه المقبرة كان يقوم منذ أول الأمر على إلحاق هذه المقابر الجانبية بالمقبرة الرئيسية المخصصة للملك. هذه كلها قرائن تدعونا إلى الأخذ بنظرة تخصيص هذه المقابر الجانبية لدفن أفراد تحتم عليهم أن يرافقوا سيدهم الملك إلى عالم الموتى . وإنى أسوق هنا الحالات المشابهة فمثلا مقابر ملوك أور (جنوبى العراق) والتى ترجع إلى عصر أحدث قليلا من عصر الأسرة الأولى الفرعونية ، والتى تثبت وجود نفس التقليد الذى لابد أنه قام على أسس متشابهة من العادات، وكذلك عثر على نفس الظاهرة فى مقابر الحكام فى مدينة كرما من عصر الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ ق.م) ، وبدت كذلك واضحة فى النطاق الخارجى لجبانة «قسطول» التى ترجع إلى أوائل العصر المسيحى.

ولم تصل إلينا من عصر الأسرة الأولى معلومات عن بعض الأحداث التاريخية. ولا غرابة فى ذلك إذ أن المصريين لم يتعودوا تسجيل هذه الأحداث بشئ من التفصيل طوال عصر الدولة القديمة، ونحن نعرف أنهم استخدموا الكتابة الهيروغليفية منذ عصر الأسرة الأولى، ولابد أنهم اخترعوها قبيل هذا العصر ، وهو ولا شك يعتبر من أهم الاختراعات التى وصل إليها العقل البشرى، إذ أن ما نعتبره اليوم أمرا عاديا بالنسبة إلى وجود لغة تحوى حروفا نعبر بها كتابة عن كل صوت ، أو بعبارة أخرى تحوى الحروف الأبجدية ، هذا الأمر العادى ظهر على أيدى المصريين لأول مرة

فى تاريخ البشرية حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م . وأخذ المصريون ابان عصر الأسرة الأولى يستخدمون لغتهم فى الكتابة لتسجيل موضوعات مختلفة ، وصلتنا على اللوحات الحجرية، أو على اللوحات الصغيرة المصنوعة من العظام والأوانى الفخارية ، ولم تصل إلى أيدينا حتى الآن أية وثائق مكتوبة على أوراق البردى بطريقة العلامات المختصرة، أو ما نسميه الكتابة الهيراطيقية التى ترجع إلى هذا العصر المبكر من التاريخ المصرى. ولكن هناك بعض محاولات للكتابة بالخط الهيراطيقى فوق قطع صغيرة عثر عليها فى مقابر ملوك الأسرة الأولى بأبيدوس، مما ينم على أن هذا الخط كان معروفا لدى المصريين فى ذلك الوقت .

ويجدر بنا أن نذكر حادثين للتدليل على مدى اتساع الأفق الحضارى للمصريين بالنسبة إلى علاقاتهم بالبلاد الأجنبية المتاخمة لهم. لقد وصلت إلينا من عصر الأسرة الأولى أخبار تدل على وقوع معارك بينهم وبين البدو القاطنين فى شبه جزيرة سيناء، ولا شك أن هذه المعارك لم تكن إلا نوعا من الصدام المسلح بين الطرفين ولم يأخذ مطلقا ذلك الشكل الحربى الواسع النطاق الذى يهدف إلى استعمار ، كما أرادت بعض النصوص المتأخرة وصفه فى كلمات رنانة طنانة. لقد لعبت منطقة سيناء دورا هاما عند المصريين نظرا لاحتوائها على كنوز كثيرة ، أهمها النحاس ، ولقد وصل المصريون إلى هذه المنطقة عن طريق مصر العليا مخترقين الصحراء التى تؤدى إلى الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر مارين بالجبال العالية عند وادى الحمامات . وهناك عرف المصريون منذ عصور غارقة فى القدم أماكن مختلفة «تزخر بالملاخبت» «الدهنج» وسرعان ما تعلموا طريقة صهره لاستخراج النحاس منه ، وبقيت سيناء الآلاف من السنين المورد الرئيسى للنحاس بالنسبة إلى المصرى القديم ، ومن ثم اعتاد الملوك فى كل مرة يرسلون فيها البعثات لاستخراج النحاس والفيروز من هناك، أن يسجلوا أخبار انتصارهم على البدو القاطنين فى هذه المناطق فى كتابات ينقشونها فوق الصخور، ولعل أقدم النقوش الخاصة بتسجيل النصر على البدو يرجع إلى عصر الملك «سمرخنت» وهو ممن حكموا مصر فى أواخر عصر الأسرة الأولى . ويحوى هذا التسجيل رسوما ثلاثة للملك تمثله فى حالتين مزينا رأسه بالتاج الأبيض لمصر العليا وفى الصورة الثالثة (وهى الوسطى) تمثله بالتاج الأحمر الخاص بمصر السفلى ، والملك فى أحد رسومه الثلاثة السالفة الذكر نراه وهو يهوى بصولجانه على رأس أسير من بدو سيناء مثل راكعا بين قدميه، ويعتبر هذا الاسم بمثابة أقدم نموذج للتمثيل الرمزى لانتصار الملك الذى حرص المصريون على تسجيله فى كل العصور حتى عصر الرومان فى مصر .

لقد توغل مصريو هذا العصر إلى أبعد من سيناء ، إذ تجولوا فى البحر المتوسط ووصلوا إلى «جبيل» على الشاطئ الفينيقى (تقع حاليا إلى الشمال من بيروت) وذلك لاستيراد خشب الأرز الثمين، كما وصلوا أيضا إلى جزيرة كريت ، ونحن نستدل على ذلك من القطع الأثرية ذات الأسلوب الفنى السائد فى مصر فى عصر الأسرة الأولى، والتى عثر عليها فى المنطقتين ، ولو أنه من العسير أن نقرر هنا طريقة الوصول إلى هاتين المنطقتين النائيتين، وهل قام المصريون بها أنفسهم أم استخدموا فيها بعض الوسطاء من الأجانب؟

وإذا كان المنقبون قد عثروا فى جبانة أبيدوس على سبع مقابر على الأقل تخص ملوك الأسرة الأولى، فهم لم يوفقوا فى العثور إلا على مقبرتين من مقابر ملوك الأسرة الثانية الذين كانوا ممن ينتمون أيضا إلى الثينيين، هذا مع العلم أن قوائم الملوك ذكرت عددا منهم يعدو هذين الملكين، ولو أن الأحداث التاريخية المنسوبة إليهم تقل جدا فى أهميتها عن تلك التى سجلتها هذه القوائم لملوك الأسرة الأولى ، أما المقبرتان الملكيتان فى أبيدوس فهما للملك «بر - ايب- سن» و الملك «خع سخموى» وعثر فى المقبرة الأولى على لوحتين حجريتين منقوشتين . ومن الغريب أن نجد فوقها صورة الإله «ست» قد هيمنت على واجهة القصر بدلا من صورة الإله «حوريس» الممثل على هيئة صقر . ومعنى هذا أن الملك لم يذكر اسمه الحوريسى بل ذكر أنه «ست - بر - ايب- سن» . ونحن نعرف مما ذكرناه على الصفحات السابقة أن «ست» كان الاله الرئيسى الذى هيمن على مصر العليا فى عصور فجر التاريخ كما ذكرناه سابقا ، ولا سبيل لنا إلى تفسير هذه الظاهرة إلا على أساس أنه حدث فى عصر «بر - ايب - سن» وفى مصر العليا بالذات، انقلاب محلى يهدف إلى القضاء على تلك السطوة والسيطرة التى حظى بهما الاله حوريس ، وهو الاله الذى لا يستطيع منافسة «ست» فى شهرته القديمة الممتدة إلى أعماق التاريخ . أما مقبرة «خع سخموى» ، وهو آخر ملوك الأسرة الثانية، فقد سجلت ظاهرة جديدة : فبينما نجد المبنى كله وقد شيد بالطريقة العادية أي من اللبن ، تظهر جدران حجرة الدفن الرئيسية وقد كسيت من الداخل بلوحات ضخمة من الحجر الجيرى الأبيض ، لقد عثر فى هذه المقبرة على لوحة حجرية وعلى واجهة القصر فيها كل من «ست»، و «حوريس» ومعنى ذلك أن هذا الملك استطاع أن يصلح ذات البين بين الإلهين ويجمع بينهما ويرسمهما فوق اسمه . وهناك ملك ثالث، لم يعثر على مقبرته فى ابيدوس ، هو «خع - سخم» الذى أراد أن يتسم بصفته الرئيسية كملك من ملوك مصر العليا والذى فاخر بأن يكون من الذين حرصوا على عبادة حوريس فى هيراكونبوليس (الكاب) . وفى

هذه المدينة عثر على تمثالين له يمثلانه جالسا وعلى رأسه التاج الأبيض الخاص بمصر العليا . ونجد على قاعدتى هذين التمثالين رسوما محفورة تمثل أعداء قد سقطوا فى حومة الوغى . وغير هذا فقد عثر له في نفس المنطقة على أوان حجرية نقش فوقها ما يثبت انتصار الملك علي مصر السفلى . وهكذا نستطيع أن نقرر هنا أن الوحدة التى أقامها « مينا » كانت قد انهارت فى عصر هؤلاء الملوك الذين عاصروا أواخر الأسرة الثانية ، ثم ما لبثوا أن تغلبوا وانتصروا وأعادوها مرة ثانية. وليس من شك فى أن الآثار التى عثر عليها فى معبد هيراكونبوليس بمصر العليا تعتبر الدليل الواضح على حدوث هذا الانقلاب بل وعلى الأسباب التى دعت إليه .

لم يستطع المنقب أن يكشف لنا حتى الآن عن مقابر أخرى لملوك الأسرة الثانية. إلا أننا نعرف تمثالا عثر عليه فى منف، لكاهن قام بالخدمة فى طقوس جنازية لثلاثة من ملوك الأسرة الثانية . وهذا يدلنا على أن هؤلاء الملوك الثلاثة لابد أنهم شيدوا مقابرهم فى جبانة منف أى فى سقارة ، وأنه لابد أن حذا حذوهم ملوك آخرون لم نوفق إلى الكشف عن مقابرهم حتى الآن.

ومع ما نعرفه عن هذا الانقلاب الذى حدث فى عصر «بر - ايب- سن» والذى كان موجها ضد مصر السفلى للتقليل من مركزها المتفوق الذى زاد أهميته وجود العاصمة «منف» فى ربوعها ، فهناك أكثر من دليل يثبت أن الأحداث كلها أخذت تجرى فى صالح مصر السفلى حتى بعد أن نجح أهل الصعيد فى إعادتها إلى حظيرتهم بالقوة. ولا غرابة فى ذلك فالتاريخ يبدو وكأنه يعيد نفسه، إذ حدث فى مصر منذ آلاف السنين ما يحدث بها الآن من أن مركز الثقل فى الحضارة والنمو الاقتصادى كان ولا يزال موجودا فى مصر الشمالية. ومنذ الأسرة الثالثة استقرت أسباب القوة والسيطرة فى الدلتا وتركزت كلها فى منف واستمرت على هذه الحال طوال عصر الدولة القديمة ، وأخذ ملوك هذا العصر يشيدون مقابرهم فى جبانات منف. ولابد لنا أن نعتقد أن الكثيرين من ملوك الأسرة الثانية قد أقاموا مقابرهم أيضا فى سقارة ، إلا أن هذه المقابر اضطرت أن تفسح المجال لمقابر أولئك الذين حكموا مصر فى عصور لاحقة فاختفت معالمها .

لقد سبق لنا أن بينا كيف أن تقدير «ادوارد- مايز» لعصر الأسرتين الأولى والثانية بحوالى ٤١٦ سنة مبالغ فيه جدا كما ذكرنا ، ونحن نعتقد أن نصف هذا التقدير يكفى لهذه الفترة ، وبذلك نكون قد أصبنا الهدف إذا قلنا إن هذه الفترة قد بدأت حوالى عام ٢٨٥٠ وانتهت حوالى ٢٦٠٠ قبل الميلاد .

٢- عصر بناة الأهرام
(من ٢٦٥٠ إلى ٢١٩٠ ق.م)

١- الأحداث التاريخية :

تبدأ الأسرة الثالثة بالملك زوسر (سماه الاغريق «توزورتوس» وذكرت ورقة تورين البردية أسماء أربعة ملوك لهذه الأسرة حكموا مجتمعين مدة خمس وخمسين سنة (من ٢٦٥٠ إلى حوالى ٢٦٠٠ ق.م) ووصف مانيتون هذه الأسرة بأنها «منفية»، ويبدو أنها نجحت فى أن تجعل من «منف» المركز الحقيقى للبلاد وأن تبقى هكذا طوال الدولة القديمة . وتعتبر الملكة «فى ماعت- حب» حلقة فى استمرار التقاليد الملكية، فمن الثابت كما يظهر من اسمها الذى يحوى كلمة «حب» (أى الإله الثور «ابيس») أنها منفية المحتد، وقد ورد اسمها مكتوبا على أختام اسطوانية عثر عليها فى مقبرة «خع سخموى» آخر ملوك الأسرة الثانية وكذلك فى مقبرة «زوسر» أول ملوك الأسرة الجديدة أى الأسرة الثالثة، ونحن لا نعتقد أن زوسر يرتبط عن طريق النسب بالأسرة السالفة. إذ أن كل القوائم الملكية تبدأ به أسرة جديدة. ولقد تمكن الأستاذ يونكر من أن يلفت النظر إلى الدور المهم الذى كانت تلعبه الملكات عندما يأفل نجم الأسرة الملكية وتطيح بحكمها الأحداث فكن كممثلات للدم الملكى، يحافظن على التقاليد الملكية بارتباطهن بالأسرة الجديدة، سواء أكان أول ملوكها زوجا للملكة أم ابنا لها . ولست أميل بالنسبة إلى الملكة التى نحن بصددها إلى أن أوافق على نظرية «يونكر» الذى يقول بأننا لم نعثر على أثر لها يذكرها مع اللقب الرسمى «زوجة ملك» ، ولذلك فهو يعتقد أنها ليست - كما كان السائد عنها فيما سبق - زوجة للملك «خع - سخمورى» بل هى ابنته ، ولعل السبب فى عدم موافقتى على نظرية «يونكر» هو أنه ليس من المعقول أن نتصور ملكا يعتز كل الاعتزاز بعصبيته التى تنتمى إلى «صعيد مصر» ثم يطلق على ابنته اسما تنتمى عناصره كلها إلى مصر السفلى. ومن أجل هذا اعتقد أن «نى- ماعت- حب» الشمالية كانت تمثل الدم الملكى لمصر السفلى وأنها تنتمى إلى أولئك الأعداء الذين صورهم «خع - سخموى» فوق قاعدة تمثاله السالف الذكر وقد ظهرت عليهم الذلة والمسكنة بعد انتصاره عليهم، وإذا ما تمت له الوحدة اختارها زوجة له ، دون أن يجعل من حقها أن تحظى باللقب الرسمى «زوجة ملك» وهو اللقب الذى لم تذكره لها الآثار مطلقا ، أما ابنها «زوسر» كما تردد الآثار ذلك بوضوح، فقد كان من أب آخر ينتمى إلى أهل الدلتا، وتمكن

زوسر فى آخر الأمر بعد أن ارتبطت أمه برباط الزوجة مع آخر ملوك الأسرة المنتهية ، من أن يكتسب شرعية مقدسة أهلته ليؤسس أسرة ملكية جديدة.

وليس فى استطاعتنا أن نتحدث عن حقائق تاريخية بعينها بالنسبة إلى ملوك الأسرة الثالثة، إلا أن مؤسسها ، الملك زوسر قد خلد لنفسه اسما سيبقى متألقا عند علماء الآثار المصرية على مدى السنين ، وذلك لأنه الأول بين المصريين الذى تملكته الجرأة فصمم لنفسه ، ولأول مرة، مقبرة ضخمة شيدها كلها من الحجر وارتفع بها إلى ما يقرب من ٦٠ مترا، نقصد بذلك المسطبة المدرجة بسقارة، وهى التى تعارف الناس على تسميتها خطأ «الهرم المدرج» ونظرا لأن هذا البناء قد أقيم على قاعدة من زوايا قائمة فإنه من غير الممكن إقامة هرم كامل على مثل هذه القاعدة . أما أسلوب المقبرة الذى تطور منذ أول العصر التاريخى فى تلك المساطب المشيدة من اللبن ، فهو يختلف لأنه يتكون مما يشبه الصندوق المشيد فوق قاعدة مربعة زواياها قائمة ، وجدرانها تميل إلى الداخل كلما ارتفعت بحيث يكون قطاعها الطولى مربعا منحرف الأضلاع . هذا الطراز من المقابر المشيد من الحجر والمزود بحجرة دفن منقورة فى أعماق الأرض الصخرية، أصبح هو النموذج السائد فى بقية فترات الدولة القديمة لمقابر أقرباء الملك وعظماء الناس من الكهنة وأصحاب المراكز الكبرى فى الدولة وهم الذين يحظون بشرف السماح لهم بإقامة مقابرهم فى الجبانة الملكية وحول الأهرام. وست من هذه المساطب التى تعلو الواحدة منها الأخرى تكون المظهر الخارجى للمقبرة الملكية لزوسر ، ولم تكن المقبرة الملكية، حتى حين أصبحت فيما بعد فى شكل هرمى كامل الأضلاع ، تعتبر كعنصر معمارى يقوم بمفرده ، بل اعتبرت جزءا من مجموعة من المبانى تشيد لتقام فيها الطقوس الجنازية من أجل الملك المتوفى، وينطبق هذا الأمر أيضا على مجموعة زوسر ، ولكن نظرا لأن تنفيذ هذا المشروع فى الحجر كان لأول مرة ولم يحدث ما يماثله فى العصور السالفة ، لذلك تغير الترتيب فى مواقع أجزاء المجموعة وهى تغاير أيضا الترتيب الذى استقرت عليه فى عصر الأسرة الرابعة وما بعدها .

ولقد كشف عن مجموعة الملك زوسر منذ ما يقرب من عشرين عاما، كما أنه منذ مدة وجيزة نوه الدكتور «ريكه» بأن أجزاء هذه المجموعة بعناصرها المعمارية المختلفة التى كشف عنها لا تمثل إلا الأبنية الهامة التى اعتاد الملك أن يستعملها كحاكم حى فى عاصمته منف، فشيدها فى الجبانة لكى يستعملها كملك ميت يحكم فى عالم الدنيا السفلى .. فهذه الأجزاء فى الواقع دليل على ما كان يسود العقيدة المصرية من تصور للعالم الآخر فى عصر الدولة القديمة ، وكان

هذا التصور يحتم أن تعتبر حياة ما بعد الموت مطابقة لحياة الدنيا الأولى بل هى تكملة لها. ومعنى هذا أن الملك يجب أن يمكن من تولى سلطاته الرسمية فى الدنيا السفلى تماما كما تولاها فى الدنيا الأولى حين كان يحكم فى عاصمته منف، ولعلنا لا نستطيع هنا أن ندخل فى تفاصيل أثرية نصف فيها عناصر هذه المجموعة الجنازية وما هيمن على أقسامها من الثنائية الخاصة بوجود قطين فى مصر أحدهما هو الوجه القبلى والآخر هو الوجه البحرى ، ولكن يجدر بنا أن نوجه النظر فى إجمال إلى مسألتين: أولاهما أن هذا الأثر أقيم على مساحة ممتدة طويلة فوق التلال الصخرية المقابلة تماما فى الغرب لمدينة «منف» ، كما أن الأثر كان محاطا بسور ضخم شيد من الحجر الجيرى الناصع البياض بنفس الأسلوب الذى عرفناه فى مقابر الأسرة الأولى والممثل فى مقبرة نقادة التى ورد الحديث عنها على الصفحات السابقة . وهو الأسلوب الذى يتميز بمداخل ومخارج على هيئة أسوار الحصون . وليس من شك فى أن هذا كان تقليدا لما شيده «مينا» حول مدينة منف الذى أصبح بمثابة الرمز لها ، ألا وهو الحائط الأبيض، وهكذا أقام الملك لنفسه ما يجعله يشعر فى دنياه الثانية بما يشعر به فى دنياه الأولى .

أما المسألة الأخرى فهى تختص بالمقبرة الملكية نفسها . فحجرة الدفن منقورة فى أعماق الأرض أسفل البناء الضخم للمسطبة المدرجة . وهذه الحجرة ، مثلها فى ذلك مثل كل المقابر الملكية من عصر الدولة القديمة ، وقعت فريسة للنهب والسلب. وتدل كل المظاهر المعمارية وطرق النقش وكذلك النصوص، على أن هذه الحجرة حوت يوما من الأيام جثمان الملك. وغير هذا فهناك مقبرة أخرى مماثلة منقورة فى أعماق الأرض أسفل الضلع الجنوبى للسور المحيط بالمنطقة والذى قلنا أنه تقليد كامل «للحائط الأبيض» وينصب هذا التماثل على النقوش والنصوص وغيرها من طرز الزخرفة . فنحن هنا إذن أمام مقبرة ثانية لنفس الملك. ولقد تضاربت الأقوال فى تفسير مهمة هذه المقبرة. وكانت هناك نظرية قديمة تقول إن الملوك اعتادوا إقامة مقبرتين إحداهما لمصر السفلى والأخرى لمصر العليا، بحيث تتم فى هذه الناحية الجنازية أيضا «الثنائية» التقليدية التى ترمز إلى قطرى مصر . ومن أجل هذا اعتدنا فى الماضى تفسير المقبرة الضخمة المشيدة من اللبن والتى ترجع إلى عصر الأسرة الثالثة والمقامة فى منطقة «بيت خلاف» بالقرب من أبيدوس ، على أنها المقبرة الجنوبية للملك زوسر ، واعتمدنا فى تفسيرنا هذا على قرينة واحدة وهى العثور على اسم الملك منقوشا على بعض السدادات الطمية، بواسطة أختام حجرية ، وبقيت هذه النظرية قائمة دون أن نعتمد على قراءة أخرى مرجحة . أما الآن وقد عثرنا على هاتين المقبرتين على أن احداهما

لملك مصر العليا والأخرى لملك مصر السفلى، بل نفسر المقبرة المنقورة أسفل المسطبة المدرجة بأنها هى التى تمثل المقبرة الشمالية ، على أساس أن زوسر اعتبر ممن يمتون بصلة النسب إلى مصر السفلى (كما ورد فى مانيتون) أى «منفى الأصل» ، بينما المقبرة المنقورة أسفل الحائط الجنوبى، تمثل المقبرة الرمزية لمصر العليا ، ولعل فى وضعها فى أقصى الجنوب من المنطقة ما يرمز أيضا إلى ذلك. وإذا صحت هذه النظرية وكانت فكرة «الثنائية» ترمز بالفعل إلى التقسيم التقليدى لمصر إلى قطرين ، فتكون هذه بمثابة إثبات قاطع للحقيقة التاريخية بأن زوسر هو الذى غلب مصر السفلى على مصر العليا وجعلها المركز الذى تتجمع فيه عناصر الحكم وظل هذا المركز طوال عصر الدولة القديمة. (وهناك تفسير آخر لهاتين المقبرتين يجدر بنا أن نذكره ، وهو أن المقبرة المنقورة أسفل الضلع الجنوبى للسور) ، هى مقبرة «الكا» ، و «الكا» هى إحدى الصور التى تبدو عليها الروح عند المصريين) .

ومن بين القطع التى عثر عليها فى منطقة زوسر ، القاعدة الخاصة بتمثال للملك زوسر (والتمثال للأسف مفقود) وكتب عليها اسم الملك كحاكم لمصر السفلى، كما ذكر أيضا اسم «رئيس المهندسين المعماريين أيمحوتب» وصاحب هذه الشخصية التى لعبت دورا هاما فى بلاط زوسر ، والذى اعتبرته النصوص المتأخرة ، مشيدا للمسطبة المدرجة. وفى الواقع نعتبره من أهم المهندسين المعماريين الذين عاشوا فى العصور القديمة، إذ أنه صمم ذلك الأثر الضخم من الحجر الصلد واستن بذلك فى مصر سنة جديدة نعتبرها الازدهار الأول للحضارة المصرية، بل نعتبر هذه المقبرة أحد النماذج الرئيسية لعظمة المدنية الفرعونية . فلا غرابة إذن ، إذا أحاط المصريون اسمه بهالة من التقديس طوال الألف من السنين، بل أصبح صاحب هذا الاسم «مقدسا» واعتبر على مر الأعوام إلها يرعى أصحاب القلم ويحميهم، ثم قام الاغريق المتمصرين بمقارنة «ايمحوتب» (نطق بالاغريقية «ايوتس») بالههم «اسكلبيوس» وجعلوا منه أيضا الها للطب. أما عن آثار هذا الرجل التى وصلت إلينا من عصره فلم تتعد قاعدة التمثال السالفة الذكر، ونعتقد أن المسطبة المدرجة هى العمل العظيم الذى يذكرنا بشخصيته الفذة.

ووصلت إلينا بعض الوثائق الخاصة بتقسيم مصر من الناحية الجغرافية وببعض الأحداث الهامة التى وقعت فى عصر زوسر ، إلا أن هذه الوثائق ، حالها حال ما عرفناه عن «ايمحوتب» ترجع كلها إلى أحداث العصور التاريخية . نعرف من هذه الوثيقة أن حدود مصر الجنوبية امتدت

فى عصر زوسر ولأول مرة من جنوبى الشلال الأول إلى جزيرة «تاكمسو» عند المحرقة . وهناك فى جزيرة «سهيل» نص طويل نقش على صخرة عالية فى عصر البطالمة ، ويذكر هذا النص أنه حدثت مجاعة لمدة سبع سنوات نتيجة لفيضانات مجدبة ، فأمر الملك زوسر بإهداء هذا الجزء من بلاد النوبة السفلى إلى «خنوم» اله الشلال الأول ومعبود جزيرة الفنتين لعله يرضى ويهدأ . وهذا الجزء بعينه هو الذى عرف فى العصر البطلمى تحت اسم «أرض الأميال الاثنى عشر» (دوديكا شاينوس) . فنحن إذا اعتبرنا هذا النص مزيفا ، فهو مكتوب ولا شك فى العصر البطلمى ويدعى كاتبه أنه من الأسرة الثالثة، فيجب علينا أن نرى فيه على الأقل صدى لأحداث قديمة، وأن سيطرة مصر فى عصر الأسرة الثالثة امتدت إلى هذا الجزء من بلاد النوبة السفلى.

ونحن لا نعرف شيئا عن أحداث تاريخية هامة وقعت فى عصر الأسرة الثالثة ولا نستطيع أن نعتمد على تلك النقوش المعروفة باسم «لوحات النصر» والموجودة فى شبه جزيرة سيناء ، فقد نقشها زوسر وعدد كبير من ملوك الدولة القديمة ، ونقوشها لا تمدنا بحقائق تاريخية . أما عن ملوك هذه الأسرة الآخرين فلا نكاد نعرف سوى اسمائهم ولذلك نعتقد أن علينا الانتقال مباشرة إلى الحديث عن الأسرة الرابعة ذات الأهمية الخاصة.

نحن لا نعرف على وجه الدقة الطريقة التى انتقلت بها السلطة من ملوك الأسرة الثالثة إلى الأسرة الرابعة ، ولكننا نعلم الدور الرئيسى الذى لعبته إحدى الملكات فى هذا الإنتقال أيضا ، كانت سليلة الدم الملكى فنقلت الحق المقدس إلى زوجها المدعو «سنفرو» (نطقه الاغريق «سوريس») مؤسس الأسرة الرابعة، ونكاد نجهل نسبه، ولكن هناك بعض الأدلة التى استنتجناها من ظاهرة بدت فى بعض رسومه التى حرصت على تمثيله متحليا برموز كلها تمت بصلة إلى مصر السفلى ، دون العناية كثيرا بتلك الخاصة بمصر العليا، ولعل هذا الأدلة تنم على أنه ينتمى إلى إحدى مناطق الدلتا. ونحن نرى فيه الملك الأول الذى بدأ عصر بناة الأهرام وهو العصر الذى أصبح الهرم فيه علما ميزه عن العصور الأخرى . وهناك ثلاثة أهرامات ضخمة يبدو أنها أخذت تتنازع فيما بينها شرف احتوائها لجثمان «سنفرو» فى يوم من الأيام . ونكاد نعتقد أن الملك اختار فى أول الأمر «ميدوم» (إلى الجنوب من سقارة) ، مكانا لتشييد مقبرته . وفى هذه الحالة سارع بعض كبار رجال البلاط إلى بناء مساطبهم الضخمة من اللبن والمزودة بحجرات للقرابين من الحجر الجيرى الأبيض ، بجوار أهرام ملكهم الذى بدئ بتنفيذه ، ولكن لسبب من الأسباب لا نعرفه لم يتم تنفيذ بناء هذا الهرم ولذلك لا يزال منظره حاليا بدرجاته الثلاث ينم على عدم

الانتهاء منه، كما أن معبده الجنازى كان فى طور البناء ولم ينته منه إلا بعض أجزاء، نخص بالذكر منها لوحتين كبيرتين غير منقوشتين استعمل فى تنفيذهما الأسلوب الخاص باللوحات الملكية فى أبيدوس كما سبق القول . ومنذ سنوات قليلة فقط أظهرت الدراسات الجديدة أن الهرم المنكسر الأضلاع فى دهشور (إلى الجنوب من سقارة) ، قد شيده سنفرو ، وفى نفس الوقت نعرف أن «الهرم الأحمر» الموجود فى نفس المكان والذى يبلغ ارتفاعه حوالى ١٠٠ متر ، للملك ذاته . ولابد لنا أن ننظر حتى تتم أعمال الكشف عن الهرمين الأخيرين لنعرف أيهما قد استعمل فعلا كمقبرة لدفن جثة الملك . ونحن نعتبر الهرم المنكسر الأضلاع حلقة من حلقات التطور المعمارى فى أسلوب بناء المقبرة الملكية وأنه الحلقة الأخيرة التى تسبق بناء الهرم الكامل . ولعلهم اضطروا لخطأ فى حساب التصميم المبدئى ، أن ينفذوا المشروع على مرحلتين مع تغيير فى زاوية الأضلاع عند منتصف ارتفاع المبنى وهكذا انكسرت الأضلاع . وهكذا يمكن أن نقول أن «الهرم الأحمر» يعتبر بحق أقدم «النماذج للهرم الكامل . ولم يكشف حتى الآن عن المعبدين الجنازيين لهرمى دهشور سالفى الذكر»[١] .

نتبين من القوائم الملكية أن الملك سنفرو حكم ٢٤ عاما ولكن لا نستطيع أن نذكر أحداثا تاريخية هامة ووقعت فى عهده غير النص الذى سجل فيه سنفرو انتصاراته فى شبه جزيرة سيناء، فقد ورد على «حجر بالرمو» ذكر الحملة التى تمت فى عصره وقد وجهها الملك نحو بلاد النوبة والتى يذكر النص أن الملك رجع منها بغنائم كثيرة ، ويغلب على الظن أنه مبالغ فيها ويشير الحجر نفسه إلى خروج بعثة كبيرة إلى الشاطئ الفينيقى لاستيراد خشب الأرز ، فكان ورود ذكر هذا النوع من الخشب لأول مرة فى النصوص المصرية.

أما زوجة الملك سنفرو ، وهى السيدة «حوتب حرس» التى مكنته بدمها الملكى الأصيل من أن يعتلى عرش مصر ، فيبدو أنها دفنت فى أول الأمر فى منطقة دهشور إلا أن ابنها «خوفو» اضطر لسبب لاندريه ، أن ينقل المحتويات الفاخرة التى كانت قد أودعت مقبرة أمه، إلى مقبرة أخرى بناها بالقرب من هرمه فى منطقة الجيزة. ولقد عثر «رايزنر» أثناء تنقيبه فى الجيزة حوالى

---

(١) قام الدكتور أحمد فخرى بالكشف عن عناصر مجموعة الهرم المنكسر الأضلاع للملك سنفرو عام ١٩٥١ ونشر التقرير الأول عنه فى عام ١٩٥٤ فى مجلة مصلحة الآثار

The Bent Pyramid of Dahshor» (Annals du Service des Antiqutés de l'Egypte, Tome LD.

عام ١٩٢٠ على هذه المقبرة ، ودهش لذلك الأسلوب البسيط مع الفخامة التى هيمنت على أثاث هذه المقبرة وهو الأثاث الذى أصبح من بين الكنوز الفاخرة التى تسترعى أنظار الناس عند زيارتهم للمتحف المصرى.

أما خوفو (أسماه «هيرودوت» كيوبس، بينما أطلق عليه مانيتون اسم «سرفيس») فقد حاز شهرة عالمية كمشيد أكبر أهرامات الجيزة. ونحن لا نعرف الكثير عن عصره الذى بلغ ٢٥ سنة، أو عن عصرى خليفته اللذين شيدا أيضا هرمين بمنطقة الجيزة، ما حدث بالنسبة إلى الملوك الثلاثة: خوفو ، وخفرع ، ومنكارع الذين شيدوا أهرامات الجيزة الضخمة العالية. ولعل من العسير أن نفرد فى هذا الكتاب صفحات عديدة لنصف فيها كل العناصر المختلفة الخاصة بهذه الأهرامات، ولكن يجدر بنا أن نعلق بالكلمات الآتية على هذه المقابر .

لعل الدراسة التى قام بها «أوفو هولشر» لمجموعة أبنية هرم الملك خفرع تعتبر أوفى الدراسات التى تتيح لنا فرصة لفهم العناصر المعمارية للنموذج العام لأبنية أهرام الدولة القديمة. ومن هذه الدراسة نعرف أن كل مجموعة هرمية تتكون من أبنية عناصر معمارية يتلو الواحد منها الآخر وهى تبدأ من الأرض المنزرعة فى الشرق وتمتد صاعدة إلى أعلى الهضبة تم تنتهى فى الغرب ببناء المقبرة الهرمية الشكل بحجمها الضخم الشامخ . ونحن نجد فى هذا التقسيم الأسس التى اتبعت فى كل المعابد المصرية من جميع العصور، وهى الأسس الدينية التى تقوم على إبراز فكرة الانتقال من الحياة الدنيا إلى قدس الأقداس بالنسبة إلى المعابد المشيدة لعبادة الآلهة أو الانتقال من الحياة الأولى إلى الموت أو قل الحياة الأبدية بالنسبة إلى المقبرة التى يرمز إليها هنا بالهرم. وكانت الكميات الضخمة من الأحجار الجيرية ، التى تقطع من محاجرها فى طره (الواقعة على الشاطئ الشرقى للنيل أمام منطقة الجيزة) ، تنقل أثناء موسم فيضان النيل على مراكب وتجمع فى مكان فى الوادى ، ثم يجرى نقلها بواسطة حمالين أو دواب الحمل (مثل الثور أو الحمار، أما الحصان فلم يكن معروفا بعد فى عصر الدولة القديمة) صاعدين بها فوق طريق يعبد خصيصا لهذا الغرض ليصل بين الوادى وبين المنطقة التى تقرر تشييد الهرم والمعبد الجنازى فوقها . ونحن حتى الآن لم نستطع معرفة طريقة بناء الهرم إذا لم تصلنا وثائق مكتوبة أو صرر مرسومة تحدثنا بأمرها وستبقى هذه الطريقة طلسما تضعه بين المعضلات الكثيرة. كما أننا نعتبر هذه الطريقة من بين المعجزات الهندسية، خاصة وأننا نعتقد أن الأدوات التى استعانوا بها فى تشييد الهرم، كانت بالنسبة إلينا ، بدائية. وإذا ما تمت الأعمال فى تشييد الهرم ومعبده الجنازى فوق الهضبة،

أخذ المصرى يحول ذلك المكان الذى كان يستقبل كميات الأحجار والذى كان يقع فى الوادى، إلى معبد كبير يعرف باسم «معبد الوادى» ثم يحول الطريق الصاعد إلى ممر مسقوف يصل بين المعبدين، وتسير فيه جموع الكهنة والزائرين عند صعودها إلى المعبد الجنازى فوق الهضبة، وهكذا تتكون العناصر الأربعة لكل هرم وهى : ١- معبد الوادى ٢- الممر الصاعد ٣- المعبد الجنازى ٤- الهرم ، والتزم المصرى هذه العناصر طوال عصر الدولة القديمة وأصبحت تكون أقسام المقبرة الملكية، وإذا تعرضت لبعض التغييرات، فكان هذا بالنسبة إلى الأسلوب الفنى الخاص بالتنفيذ فقط وهو أسلوب خضع باستمرار للتطور الزمنى.

تكونت مجموعة هرم خوفو الأكبر من هذه العناصر المعمارية الأربعة. ولكن لم يبق منها إلا الهرم نفسه بينما اختفت الأقسام الثلاثة الأخرى. ولعل السبب فى ذلك هو أن هذا الهرم يقع فى أقصى الشمال من الهضبة ويستقبل لذلك وفود الزائرين القادمين من الوادى ، فيثير إعجابهم بضخامته (إذ يبلغ ارتفاعه الآن ١٣٩ مترا) ولعل هذا الهرم قد استرعى اهتمام عدد كبير من الزائرين كما لقى الكثير من أعمال الهدم والتخريب، ويجدر بنا هنا أن نكرر هنا ما يقوله ويؤكده علم الآثار ، وهو أن هذا الأثر لم يشيد إلا ليكون مقبرة ضخمة لتحوى رفات ملك من ملوك الفراعنة . وأن ليس هناك فى مقاييسه المختلفة ما يدعو مطلقا إلى إقامة نظريات معقدة تدل على أسرار خفية، كما اعتاد بعض أدعياء العلم تأكيده عن هذا الهرم. وليس من شك فى أن عظمة هرم خوفو لا ترجع إلى الأسرار التى تحيط بمقاييسه ، بل هى ترجع إلى أنه يؤثر بضخامته الهائلة كمبنى كامل الأجزاء ، ويفوق كل الأبنية الأخرى التى خلفها لنا المصريون القدماء بأنواعها المختلفة.

أما خفرع (أو كما سماه هيرودوت «خفرن») فهو ابن خوفو وصاحب الهرم الثانى فى منطقة الجيزة (يبلغ ارتفاعه الآن ١٣٦ مترا) ، ولكنه لم يخلف أباه مباشرة على العرش، إذ سبقه أخ آخر سماه «ددفرع» تتحدث عنه آثاره وتحدد مدة حكمه بثمانى سنوات ولا نعرف الكثير عن نسبه. تزوج إحدى بنات خوفو، أى أخته غير الشقيقة وهذا أمر كان يحدث كثيرا بين المصريين من الأسرة المالكة. وقد عثر على رسم لهذه السيدة التى أطلق عليها اسم جدتها «حوتب حرس» فى مقبرة ابنتها وقد تمتعت بكل الألقاب الملكية. ومن الطريف حقا أنها بدت فى رسومها بشعر أشقر وعينين زرقاوتين وملابس غير المصرية. ونحن نعتبر هذه السيدة الممثلة الأولى للشعب الليبى ذى الشعر الأشقر (أو شعب «التمحو» كما سماه المصريون) وانحدرت منه القبائل التى تسكن

شمال غربى أفريقيا، ولابد أن هذا الشعب بدأ يتصل بالمصريين إبان تلك الفترة . والعثور على هذا الرسم الذى يمثل ابنة خوفو بشعرها الأشقر يدفعنا إلى الاعتقاد بأن خوفو كان قد تزوج من أم هذه السيدة ، وأنها كانت شقراء ليبية .. أما «ددفرع» فقد اختار لنفسه مكانا آخر يشيد فيه مقبرته ، ويقع فوق الهضبة عند أقصى الشمال وبالقرب من الموقع الذى تأخذ فيه الدلتا فى الاتساع. وهرمه هذا الذى كان فى يوم من الأيام يهيمن على منطقة أبى رواش تعرض لأعمال النهب والتهشيم التى أتت عليه ولم يبق منه إلا الطريق المنحدر الذى كان يصل إلى الحجرة التى حوت التابوت فى أعماق الهرم .

وبعد «ددفرع» استمر الفرع الرئيسى للأسرة المالكة فى الحكم ممثلا فى «خفرع» و «منكاورع» وانتهى حكم الأسرة بالملك «شبسسكاف» ولعله كان أحد أبناء «منكاورع» ولقد ترك منطقة الجيزة أيضا واختار منطقة تقع إلى الجنوب من سقارة وبنى فيها مقبرته بأسلوب غير هرمى الشكل، بل بنى مسطبتين تعلو إحداها الأخرى، وهى المعروفة الآن باسم «مسطبة فرعون» . وفى الواقع أن هذه المقبرة تبدو فى شكل تابوت عظيم الضخامة يعلوه غطاء مقوس، أما المعبد الجنازى بهذه المقبرة فقد تهشم إلى حد ضاعت معه معالمه .

أضاف «مانيتون» على أسماء الملوك الستة الذين سبق ذكرهم ، أسماء لثلاثة ملوك آخرين، لم تذكرهم القوائم المصرية للملوك، كما لم تصل إلينا منهم آثار معروفة. ولعل أصحاب هذه الأسماء الثلاثة، كانوا قد كونوا أسرات حاكمة فى مناطق محلية أو أنهم قاموا بحركات ثورية لم تعرها الوثائق المصرية أى اهتمام ، ومن واجبنا إلا نعتبرهم من ملوك الأسرة الرابعة.

ونرى فى النقوش المسجلة على جدران مقابر بعض الشخصيات البارزة التى عاصرت عهود أكثر من ملك وثائق هامة ، تساعدنا على التحقق من التاريخ الخاص بعصور أسرات الدولة القديمة، وبخاصة أن هذه الفترة تفتقر إلى وثائق نحدد عهودها بشكل ثابت كما سبق ذكره ، ومثل هذه النقوش يجب عند تقدير عدد السنوات التى تمثلها أن نفترض لها أطول مدة لحياة الإنسان الواحد، وذلك لأن مثل هذه الشخصيات البارزة التى تقلدت أكثر من وظيفة رئيسية ، من عادتها أن تبالغ فى تسجيل الأحداث التى وقعت لها فى حياتها الطويلة وفى عهود أكثر من ملك. فإذا نحن قابلنا هذه النقوش بعضها ببعض ورتبناها بحسب أسماء الملوك التى ذكرت فيها ثم وضعنا لكل من هذه الشخصيات عددا من السنين على أساس أنه بلغ من الكبر عتيا وجمعنا هذه السنوات لوجدنا أن التقدير الذى ذكره «ادوارد ساير» لأسرات الدولة القديمة مغالى فيه كل

المغالاة. ونحن إذا افترضنا أن ملوك الأسرة الرابعة قد حكموا فعلا تلك السنوات التى ذكرتها لهم الآثار ، فيجب أن نقدر لهؤلاء الستة عهدا يمتد من ٢٦٠٠ ق.م إلى ٢٤٨٠ ق.م.

حدث الانتقال من الأسرة الرابعة إلى الأسرة الخامسة على يد إحدى أميرات الأسرة القديمة التى أعطت زوجها حق ارتقاء العرش وتأسيس أسرة جديدة. هذه الأميرة هى «خنت كاوس» ويغلب على الظن أنها إحدى بنات «منكاورع» ، والتى تزوجت «أوسركاف» مؤسس الأسرة الخامسة. وهذا الانقلاب الذى أدى إلى تغيير الأسرة الحاكمة، وما أنتجه من آثار جديدة على الديانة المصرية على نحو ما سنتحدث به على الصفحات التالية، قد بقى أجيالا طوالا فى أذهان الناس تتناقله الألسن، ولقد عرفناه من وثيقة صيغت فى صورة أسطورة كتبها صاحبها حوالى عام ١٦٥٠ ق.م وهذه الأسطورة تتحدث عن ساحر تنبأ للملك خوفو بأن أسرته ستفقد الملك على أيدى أبناء ثلاثة سيولدون من سيدة واحدة عن طريق معجزة إلهية وأن هؤلاء سيصبحون الملوك الثلاثة الأول للأسرة الجديدة ، ولقد أسهبت هذه الأسطورة فى وصف تفاصيل هذا الحادث ، وفى اشتراك قوى الهية عظيمة فى مجرياته. واعتبرت الأسطورة الأب البشرى لهؤلاء الأطفال الثلاثة، كاهنا من كهنة الاله «رع» ، وهو الاله الذى ظهرت عبادته فى هذه الفترة بشكل واضح فى مصر ، عمدت هذه الأسطورة إلى تسجيل انتصاره وجعلت الناس يتحدثون به ، وهذا الانتصار واضح من أسماء ملوك الأسرة التى تنتهى باستمرار باسم اله الشمس (أى تنتهى بلفظ «رع») ، وكذلك سجلت حرص كل ملك على أن يشيد بجوار مجموعته الهرمية، معبدا للاله «رع» .

ونحن نفتقد بالنسبة إلى هذه الأسرة مثل سابقتها وثائق تاريخية تحدثنا عن أهم الأحداث التى جرت فى عصرها ، وهو العصر الذى نعتبره من وجوه عدة أزهى فترات الدولة القديمة ، ولو أننا فى نفس الوقت نستطيع أن نؤرخ لملوكهم أكثر من تاريخنا لملوك الأسرة الرابعة ، وذلك على أساس أن الاتجاه الفنى فى عصر هذ الأسرة اختلف وأصبح يسمح بملء المسطحات الواسعة لجدران المعابد الجنازية والمعابد المقامة للاله «رع» ، بمجموعة كبيرة من المناظر المنقوشة التى تحدثنا بالكثير عن هذا العصر. ويجدر بنا أن ننوه هنا بأن هذه المناظر ليست من النوع الذى تسجل لنا على وجه التدقيق حادثا تاريخيا بعينه مثل انتصار الملك على أحد الشعوب التى هاجمت مصر فى وقت ما ، بل هى مناظر ذات طابع عام مثلها مثل النقوش التى حرص كل ملك على أن يسجلها على صخور شبه جزيرة سيناء وقصد بها إظهار عظمة فرعون مصر وانتصاره الرمزى، ولاشك أن هذا يقلل كثيرا من القيمة التاريخية لمثل هذه المناظر.

وهناك منظر ورد منقوشا على جدران المعبد الجنازى للملك «ساحورع» ، لعله يختلف عن النوع الذى ذكرناه ، فهو يمثل لنا بضع سفن عائدة إلى مصر من الشاطئ الفينيقى ، ويرى الأستاذ «مونتيه» فى هذا المنظر وثيقة تاريخية تتحدث عن إحضار أمير سورية من بلادها إلى بلاط الملك المصرى. مثل هذه المناظر لاتفيدنا كثيرا من الناحية التاريخية، لكنها تساعدنا فى تكوين صورة لما كانت عليه حضارة مصر فى أزهى عصورها إبان الدولة القديمة ، ويجدر بنا هنا أن نذكر أيضا المناظر التى تصور لنا أفرادا من الشعوب التى اتصلت بمصر فى عصر الأسرة الخامسة، مثل الساميين الذين قطنوا شبه جزيرة سيناء، وأولئك الذين سكنوا الموانئ الفينقية ، ثم الليبيين (التحنو) الذين انتموا إلى نفس الجنس الذى انتمى إليه المصريون وسكنوا المناطق الزنجية فى المناطق المتاخمة للحدود الجنوبية لمصر فى عصر الدولة القديمة. وإننا على حق إذا قلنا أن النقوش التى كشف عنها «بورخاردت» أثناء تنقيبه لحساب «الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية» فى منطقة أبو صير إلى الجنوب من الجيزة ، والتى كانت تغطى جدران المعابد الجنازية لأكثر من ملك من ملوك الأسرة الخامسة ، إن هذه النقوش بموضوعاتها قد قضت على الفكرة التى كانت تصف مصر فى عصر الدولة القديمة بأنها بلد مغلق لا تربطه علاقات مع الشعوب التى تسكن العالم المتاخم له، بل على العكس من ذلك فقد أظهرت هذه النقوش أن مصر كانت قد فتحت أبوابها أمام العالم وأن تجارتها قد امتدت إلى بلدان نائية.

واستمر الأسلوب المعمارى الذى انتشر فى عصر الأسرة الرابعة للمجموعات الهرمية متبعا فى عصر الأسرة الخامسة وفى أهراماتها المشيدة فى أبو صير (نظرا لأن هذه هى الوحيدة التى تم دراستها دراسة علمية دقيقة) وظهر معه أيضا الاختلاف الذى كان مرجعه تحلل الفن من القيود القديمة، وليس هذا الكتاب هو المكان الذى أستطيع أن اتحدث فيه عن اتجاهات الأساليب الفنية فى مظهرها الجديد، إذ أن هذا الحديث موضعه كتاب يعالج تاريخ الفن ، أما الأهرامات نفسها فهى تتميز بصغر حجمها ولذلك تتضاءل أمام الأهرام التى بناها الملوك الثلاثة. «ساحورع» و «نفر- اير- كارع» و «نى - اوسر - رع» ، إذ أن أهرامات سائر ملوك هذه الأسرة قد اختفت أو أننا لم نكشف عنها حتى الآن. إذ أن أهرامات سائر ملوك هذه الأسرة قد اختفت أو أننا لم نكشف عنها حتى الآن. وتقدر القوائم الملكية فترة حكم الأسرة الخامسة بحوالى ١٣٠ سنة (أى من ٢٤٨٠ ق.م إلى ٢٣٥٠ ق.م) .

ولقد اعتدنا أن نجعل من «أوناس» (نطقه المصريون «ونيس» والاغريق اونوس) وهو آخر ملوك الأسرة الخامسة، أول ملوك الأسرة الجديدة السادسة وذلك لأن هؤلاء الملوك اعتادوا ملء جدران حجرات الدفن فى أهراماتهم بنقوش دينية نطلق عليها اسم «متون الأهرام» ، وقوائم الملوك تعتبر «أوناس» آخر ملوك الأسرة الخامسة ، ونحن لا زلنا نجهل الأسباب التى دعت إلى انتهاء الأسرة الخامسة وظهور أسرة جديدة ولو أن «يونكر» يعتقد أن هذا التغيير حدث على يد ملكة ممن تمتعن بالدم الملكى المقدس، نقلت قدسيته إلى زوجها المؤسس للأسرة الجديدة والتى وصلت إلينا أسماء ملوكها عن طريق «متون الأهرام» وهم «ثيتى» ، و «بيبى الأول؛ و «مرنوع» و «بيبى الثانى» ، وقد شيد هؤلاء جميعا أهراماتهم فى سقارة حيث تجمعت ، وكذلك هرم الملك «أوناس» آخر ملوك الأسرة الخامسة ، فى مكان يقع إلى الجنوب من المسطبة المدرجة التى شيدها «زوسر» من الأسرة الثالثة مع ملاحظة أنه لم يستطع أحد من ملوك الأسرة السادسة أن يرتفع بهرمه إلى ارتفاع يمكن أن نقارنه بارتفاع هذه الأسرة الخامسة، إلا أن المناظر المنقوشة أخذت تزداد كما أخذت تعالج بعض الموضوعات التى اعتدنا رؤيتها فى مقابر الأشراف فقط. وهذا الدليل إذا أضفناه إلى حضارتها حجم الأهرامات وإلى ضعف العناية بالتنفيذ، يثبت لنا تخلف مصر فى حضارتها إبان هذا العصر . ولقد حدث فى تلك الفترة أن أطلق المصريون اسم هرم «بيبى الأول» أى «من – نفر» على العاصمة، ونحن لا ندرى الأسباب التى دعتهم إلى ذلك ، ولكن هذا الاسم لصق بالعاصمة «منف» وبقى ملتصقا بها حتى آخر العصور الفرعونية .

ونعود فنعترف بأن معلوماتنا عن الأحداث التاريخية الخاصة بملوك هذه الأسرة ضئيلة وقليلة، ويبدو أن «بيبى الأول» قد قبض على ناصية الحكم بقوة وعزم كما كان الحال مع من سبقه من الملوك . أما «بيبى الثانى» فقد حددت له القوائم الملكية مدة تسعين عاما حكم فيها مصر . وتدل النقوش التى وصلت إلينا من عصره أن السلطة المركزية أخذت تضعف وبدأت مصر تضمحل وتنقسم إلى إقطاعات مختلفة . ووصلت إلينا وثيقة أدبية ترجع نسختها المحفوظة فى متحف «ليدن» إلى عصر الأسرة الثانية عشرة. وتحوى وصفا لما كان يحدث فى مصر فى عصر الملك «بيبى الثانى» . إن كاتبها يندب حظ مصر التى وقعت فريسة للاضطرابات فى عصر ملك كهل، قليل النشاط ، ولقد صاغ كلماته فى أسلوب حاول فيه أن يصف ما اعترى مصر من اضمحلال جعل الناس يقومون بثورة جامحة أدت إلى انفصال مصر العليا عن العاصمة ، كما سهلت الفرصة

أمام جماعات من الشعوب الأجنبية لدخول مصر من شبه جزيرة سيناء والاستقرار فى الدلتا . وهكذا ذبلت حضارة مصر بعد أن انبثقت وازدهرت فى عصر الدولة القديمة) .

وتذكر القوائم الملكية بعد عصر «ببىى الثانى» الذى امتد فترة طويلة ، اسمين لملكين فقط، ثانيهما هو اسم الملكة «نيتوكريس» التى لا نعرف عنها شيئا . أما الأسرة السابعة التى ذكرها «مانيتون» وقال عنها أنها تتكون من سبعين ملكا حكموا مصر لمدة سبعين يوما ، فنحن نوافق «ماير» على عدم الاعتراف بها . وتتكون الأسرة الثانية من ثمانية عشر ملكا ، لا نعتقد أن سلطانهم امتد إلى أبعد من حدود العاصمة منف. كما أننا لا نعرف عنهم أكثر من أسمائهم ، بل لم تصل إلينا أية معلومات عن المكان الذى حوى مقابرهم . أما قائمة الملوك فى بردية تورين فهى تذكر لملوك الأسرتين السادسة والثامنة عددا من السنوات بلغ ١٨١ عاما ثم تفصل بعد ذلك بينهم وبين الملوك الذين خلفوهم ، وهذا دليل على أن كاتب هذه الوثيقة أراد أن يدلل على وجود فاصل جوهرى فى التاريخ المصرى وهو ما نطلق عليه اليوم عصر الدولة القديمة وأن هذا الجزء قد انتهت أيامه . ونحن نعتقد أن عصر هاتين الأسرتين السادسة والثامنة يقع فيما بين عامى ٢٣٥٠ ق.م و ٢١٩٠ ق.م.

ب- الملك والدولة

كانت الحكومة المصرية . وخاصة فى عصر الدولة القديمة ، تتركز بشكل واضح فى يد الحاكم ذى السلطان المطلق ، ولذلك لا نستطيع أن نفرق بين الدولة والملك. فالملك هو المحور بل هو الروح التى تبعث الحياة فى الدولة ، وكل ما يحدث فيها وحي منه . قامت قوته على أسس دينية عميقة الأثر ، فهو «الاله العظيم» ، والاله الصقر «حوريس» الذى تجسم فى هيئة بشرية، ومن أجل ذلك لقب ملوك العصور الأولى أنفسهم بلقب واحد وهو «حوريس» . أما «بر ايب سن» وهو أحد ملوك الأسرة الثانية فنراه يؤكد انتماءه إلى مصر العليا فيطلق على نفسه لقب «ست» وهو الاله القديم التقليدى الذى هيمن على الوجه القبلى ، وفى آخر الأمر نجد أن آخر ملوك الأسرة الثانية يلقب نفسه «حوريس - ست» وهو بذلك يعبر عن نجاحه فى إيجاد وحدة جمعت بين قطرى مصر ، رمز لها بالتوحيد بين الألهين المهيمنين على هذين القطرين. أما الألقاب الخمسة التقليدية فقد أخذت تتكون مع اطراد الزمن، وأصبحت تذكر بترتيب معين بحيث يسبق كل منها اسما للملك، وإكتملت عناصرها فى عصر الدولة القديمة.

وهذه الألقاب تبدأ عادة بلقب «حوريس» الذى يثبت انتماء حامله إلى عالم الآلهة ، ثم لقب «ملك مصر العليا ومصر السفلى» الذى يثبت أن شخصية حامله من البشر. ومن الواضح طبعا أن «مصر العليا» تذكر دائما قبل «مصر السفلى»، والسبب فى ذلك أن الاتحاد الكامل الحقيقى بين قطرى مصر قام على يدى الملك مينا الذى ينتمى إلى مصر العليا، واستمر هذا التفضيل طوال العصور، فى حين أن كثيرا ما تفوقت مصر السفلى وتركزت فيها كل عوامل السلطة والحضارة. ولقد حدث فيما بعد أن كان اللقب «ملك مصر العليا ومصر السفلى» يأتى فى المرتبة الرابعة من الألقاب، وكان يسبق باستمرار اسم العرش للملك. وهو الاسم الذى كان الملك يختاره لنفسه قبل اعتلائه رسميا لعرش مصر . أما الاسم الشخصى للملك فكان يذكر بعد اللقب الخامس الذى يصف الملك بأنه «ابن رع» ، وهذا الاسم بالذات هو الذى اعتدنا ذكره للملوك الذين حكموا مصر فيما بعد الدولة القديمة (مثل تحوتمس وامنحوتب وغيرهما) ، واللقب الخامس هذا ظهر فى عصر «منكاورع) فى أواخر عصر الأسرة الرابعة وفى ظهوره دليل واضح على الاتجاه الدينى الجديد الخاص بعبادة اله الشمس «رع « ويشير بقرب حدوثه ، وسوف نعود إلى الحديث عن هذا الموضوع على الصفحات القادمة.

ولما اعتبر الملك المصرى منذ أول العصور بمثابة الصورة البشرية التى تجسد فيها حوريس، فقد حق على المصريين أن يروا فيه مخلوقا الهيا ، يجب عليهم أن يقدموا له فروض التقديس. فنجد مثلا فى رسوم معابد الأسرة الخامسة صورا تمثل الملك يرضع من ثدى إلهة مصر العليا «نخبت» معبودة مدينة «الكاب» ، أو تمثله وهو يتحلى بتاج مقدس وقد مثل بين يديه كل من الاله انوبيس والالهة أتو . وهناك صورة تمثله على شكل أسد يطأ بقدميه أعداءه من الليبيين، وهذا التمثيل لابد أنه يرجع إلى العصور العتيقة التى كان المصرى يعيش فيها فى حالة بدائية، وهو ولا شك تمثيل يدفع بالملك إلى مرتبة سامية غير بشرية ، وهذا حدث فيما بعد حين صور على هيئة أبى الهول .

وعثر فى معبد الوادى للملك «منكاورع» ، على عدد كبير من التماثيل ، كل منها يمثل الملك مع الإلهة «حاتحور» وإلهة أخرى من المعبودات المحلية التى تهيمن على أحد أقاليم مصر، ومهما كانت الأهداف الحقيقية لاقامة هذه التماثيل ، فهناك معنى مستتر لا شك فيه وهو أن الملك اله وأنه يختلط مع الآلهة وأنه يقف منهم موقف الند للند ، ولذلك لا ندهش مطلقا إذا حرص المصريون فى عصر الدولة القديمة على اخفاء الناحية البشرية من ملوكهم، أو على الأقل عدم ابرازها بشكل

ملموس . ودليلنا على ذلك أن الزوجة الملكية لم تلعب دورا هاما ، ومن النادر أن نجد تماثيل للملك وزوجته ولعل الاستثناء الوحيد هو التمثال الذى يمثل «منكاورع» وزوجته ، وهو قطعة فنية رائعة ولكنه لايبرز الناحية الملكية بل هو يُضفى على الزوجين مظهرا من المسحة الشعبية يجعله لا يفترق كثيرا عن التماثيل التى قدت لأى زوجين من الشعب من عصر الأسرة الخامسة.

وهكذا رأى الشعب المصرى فى ملكه الها يحيا فوق الأرض، تنحنى له الهامات وتدق له القلوب هلعا وخوفا عند رؤيته . وإذا حدث أن سجل أحد من أصحاب العزة والجاه ، على مقبرته أنه حظى بتقبيل أقدام الملك بدلا من تقبيل الأرض أمامه، فمعنى هذا أنه سجل شرفا عظيما يفاخر به ، ولعل الاسم المعروف «فرعون» وهو الاسم الذى ورد فى العهد القديم بمعنى «الملك المصرى» ، وكثيرا ما يطلق خطأ على أنه اسم شخصى للملك، هذا الاسم هو دليل قوى على مدى تأليه المصريين لملوكهم ، وبخاصة فى عصر الدولة القديمة ومعناه «البيت العظيم» . ونستطيع أيضا أن نذكر العقيدة التى تجعل الذل والعار يحيق بكل من يلمس الملك أو يلمس شيئا من أدواته ، ولقد وصلت إلينا وثيقة سجلها أحد كبار رجال الدولة على جدران مقبرته ، وهى تقول إنه حدث مرة عندما اجتمع صاحب المقبرة بالملك أن لمست عصا فرعون هذا المسكين دون قصد ، ومعنى هذا عندى المصرى أنه سوف يحل به عقاب الآلهة، ولذلك أمر الملك أن يسمح لهذا الرجل بتسجيل الحادث على أنه وقع عن غير قصد وأن يخلد هذا الاعتراف للناس إلى أبد الآبدين ، ولعل هذه القصة الصغيرة تصور لنا مدى تعلق مصرى الدولة القديمة بفكرة تأليه ملوكه، فالملك فى واقع الأمر لم يكن إلا الاله العظيم «الذى يحيا فوق الأرض» .

ولعلنا لا ندهش وقد بينا عقيدة المصرى فى قدسية ملوكه، إذا عرفنا أن هؤلاء الملوك، بما سيكون لهم من سلطة وسيطرة تمتد إلى عالم ما بعد الموت، قد حرصوا على أن يشيدوا لأنفسهم مقابر ضخمة ، وعلينا ألا نشترك فى الخطأ الذى فسَّر به البعض بأن الدافع إلى تشييد تلك المقابر الضخمة فوق مساحة شاسعة هو إظهار لجبروت الملك وعظمته ، بل من الواضح أن الدافع هو إقامة مركز تقدم فيه فروض العبادة إلى الميت الذى كان الها . وهو بعد موته لا يزال يتمتع بقدسيته ، وإنى أعتقد أن هذه المشاعر تملكت المصرى دائما الذى عرف بالتقوى والحرص على أداء شعائره الدينية . ولقد ساهمت البيئة المصرية بنصيب كبير فى تنفيذ هذه المشروعات . فنحن نعرف أن النيل يأتى بفيضانه مرة كل عام، وأن مياه الفيضان تغمر حقول مصر لعدة شهور يبطل فيها كل هرم كبير . بل أن هرم خوفو الأكبر ظل قرونا عديدة مركز لأكبر جبانة مصرية تحيط به .

وبعد أن مضى على موت خوفو أكثر من أربعة قرون، كان المصريون الذين ينتمون إلى الطبقات الكادحة يحرصون على اقامة مقابرهم بالقرب من هرم ذلك الملك العظيم ، فإذا كان خوفو من بين العتاة المستبدين ، لما ظلت ذكراه الطيبة عالقة بأفئدة المصريين طوال هذه القرون ولما حرصوا على تقديسه بهذا الشكل . لقد كان الهرم ومعبده الجنازى بمثابة المركز الدائم لإقامة الشعائر الدينية للملك ولكل أصحاب المقابر الذين دفنوا فى الجبانة المترامية الأطراف ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل أصحاب هذه المقابر من رجالات الدولة البارزين لا يحرصون على تزويد مقابرهم بمناظر أو بمتون دينية يذكرون فيها الآلهة أو ملكهم ، هذه حقيقة لا نحب أن تطغى على حقيقة أخرى وهى حب المصرى فى عصر الدولة القديمة الحياة الدنيا الأولى وحرصه على التمتع بمباهجها ، وهو الحب الذى دفعه إلى أن يزود مقبرته بكل المناظر التى تذكره بمباهج الحياة المختلفة ، لعلها تتيسير له فى حياة ما بعد الموت.

وإذا كان الملك يرنو من ناحيته إلى أن يحظى من أفراد شعبه بكل معنى من معانى التقديس كما رأينا فيما سبق ، فإنه من ناحية أخرى كان يحيط رعاياه بعنايته ويبذل لهم المعونة بطرق مختلفة . ونحن نلمس هذه الرعاية فيما يتعلق بحياة الفرد فى الدنيا الثانية، فمثلا نجد فى النص الذى نطلق عليه اسم «متن تقدمة القرابين» (وهو متن لا تزال الآراء تتضارب فى تفهم القواعد اللغوية الخاصة به بل وفى كيفية ترجمته) والذى يبدأ دائما بأن الملك هو الذى يتفضل ويهب المتوفى القرابين التى تقدم له فى مقبرته . وفى الحقيقة كانت المقبرة كلها هبة من هبات الملك يقدمها إلى أحد المخلصين له من بين شعبه ، وذلك مكافأة له على ما قام به من أعمال فى خدمة سيده . وحدث طبعا أن هؤلاء جميعا حظوا بهبات الملك وأقاموا مقابرهم بالقرب من الهرم . وفى عصر الملك «خوفو» - وهو العصر الذى تميز بالنظام والدقة فى التنفيذ- شيدت هذه المقابر بأسلوب واحد وصفت فى خطوط متوازية يفصل بين كل منها شارع، ونطلق على هذه الشوارع اسم شوارع المساطب[1]. وليس فى استطاعة أحد، بعد أن يزور تلك الطرق الممتدة فى الجبانة الغربية

---

(١) نطلق اسم «المسطبة» على المبنى الذى يشيد فى الجبانة حول الهرم ليكون مقبرة لأحد اشراف الدولة القديمة، وكانت المسطبة ، وبخاصة فى عصر ازدهار الدولة القديمة ، تكسى من الخارج بألواح من الحجر الجيرى الأبيض ، وتحوى عادة حجرة لإقامة الشعائر الجنازية ولتقدمة القرابين، أما الجثة كانت تدفن فى حجرة اسم سرداب) . يكون موضعها إلى جانب حجرة القرابين وليس لها أى مدخل . والكلمة «مسطبة» اعتاد أهل مصر أن يطلقوها الآن على مقعد مبنى مستطيل الشكل يعدونه خارج منازلهم للجلوس عليه .

لهرم خوفو، وقد كشف عنها معول الحفار بعد أن بقيت مطمورة فى الرمال آلافا من السنين، إلا أن يرى فى أسلوبها المعمارى الموحد المهيمن على المساطب فيها صورة لما كان يحدث فى ذلك الوقت، من أن مهندسا واحدا هو الذى كان يقوم بالتخطيط ثم بالتنفيذ ، بحيث أن صاحب المقبرة لم يكن يشترك مطلقا فى مواصفات قبره الذى كان يهبه الملك إليه . إن هذه القاعدة تنطبق على الأقل على المساطب التى بنيت من عصر كل من خوفو أو خفرع فى جبانة الجيزة . وقد أكد ذلك «يونكر» ووصفه فى كتابه الأول عن حفائره فى منطقة الجيزة . هذه الهبات كان يختص بها فى أول الأمر أقرباء الملك ممن تقلدوا أكبر مناصب الدولة الدينية والمدنية ، وهم الذين حظوا بلقب «رخ - تيسوت» وهو لقب فخرى يعنى «الذى عرفه الملك» ويترجم عادة «صديق الملك» أو «قريب الملك» وفى غمرة الأحداث التى وقعت فى مصر بعد انتهاء الأسرة الرابعة ، قلت قيمة هذا اللقب «رخ تيسوت» ، بحيث نجد أفرادا عاشوا فى أواخر الدولة القديمة ولم يتمتعوا فى حياتهم بمركز اجتماعى كبير، ولكنهم حملوا هذا اللقب، ولقد كثر عددهم إلى درجة أننا نكاد نعتقد لأول وهلة أن كل المصريين فى ذلك الوقت كانوا «أقرباء للملك» .

وكان الملك من جانبه يهب صاحب المقبرة بعض القرى، التى غالبا ما تكون بعيدة عن الجبانة ، وذلك ليضمن له دخلا ثابتا يكفى للصرف منه على تقدمة القرابين وإقامة الشعائر الجنازية وكانت القرابين تتكون من اللحم والخبز والجعة وغير ذلك من المواد اللازمة لمثل هذه المناسبات الدينية. وبمرور الزمن أصبحت هذه الهبات ، التى نشأت فى فكرتها الأولى لضمان تزويد المقبرة بقرابينها ، من بين أملاك أسرة المتوفى، وهكذا ظهرت فى مصر رويدا رويدا فكرة تملك الأرض للأفراد ، فى حين أن مصر فى عصورها الأولى كانت كلها ملكا للملك وحده .

ويبدو أن مصر كانت على الأقل أثناء حكم ملوك الأسرة الرابعة تسود فيها مركزية مطلقة . ويشرف على شئونها ملك تتركز فيه كل السلطات ، وكانت العاصمة منف هى المركز الرئيسى الذى تدار منه دفة الحكم، وكان الملك يشرف بنفسه على اختيار من يتولى وظائف الدولة الرئيسية، وهى وظائف لم تكن فى عصر الأسرة الرابعة تخضع لنظام التوريث ، وإذا تم هذا الاختيار قام الموظفون بأعباء وظائفهم التى تنتشر فى طول البلاد وعرضها ، على أن يوالوا الاتصال بالمركز الرئيسى الذى بقى ممثلا فى «منف» . ولقد خرجنا بصورة واضحة ، وبخاصة بعد الانتهاء من كثير من التنقيب الأثرى ، وهذه الصورة هى أن مصر كانت تتركز إبان العصر المزدهر للدولة القديمة، أى من الأسرة الثالثة إلى آخر الأسرة الخامسة، فى العاصمة منف ، فقط، ودليلنا على ذلك أن الجبانة

الرسمية للبلاد امتدت من «أبو رواش» (شمالى الجيزة) إلى الجيزة فأبو صير فسقارة ثم تنتهى فى الجنوب عند دهشور، أى أنها تمتد فى مساحة يبلغ طولها حوالى الثلاثين كيلو مترا على الشاطئ الغربى للنيل، وفى الواقع لم تظهر لنا فى مصر كلها وفى امتدادها الطويل آثار ذات قيمة من هذا العصر الذى وصفناه بالعصر المزدهر للدولة القديمة، غير هذه الآثار. ومن الغريب حقا أننا نجد فى نفس الوقت الذى سادت مصر فيه هذه المركزية المطلقة فى نظام حكمها محافظة كاملة على الثنائية التقليدية (مصر العليا ومصر السفلى) وكان لايزال هذا الحكم قائما يرمز إليه بالصورة المعروفة «اتحاد قطرى مصر» التى نقشوها خاصة على كراسى العرش فى كل وقت وفى كل عصر، وهذه الثنائية لم تتعارض مع الوضع الفعلى القائم وهو المركزية المطلقة.

وكثيرا ما تحدثنا نقوش المقابر عن الترقيات التى يفوز بها الموظف فى عصر الدولة القديمة، كما أنها تظهر لنا كيف أن أبناء بعض الأسرات الكبيرة ، ممن ينظر إليهم نظرة خاصة بالنسبة إلى توليهم الوظائف الكبرى فيما بعد ، هؤلاء الأبناء كانوا يظفرون بتربية خاصة فى البلاط الملكى تتم باختلاطهم مع الأمير الملكى . وكان الموظف يبدأ حياته يتعلم الكتابة والقراءة وهى عملية لم تكن على جانب كبير من اليسر، وكان يقبل عليها عدد كبير من الناس، ولعل ذلك هو السبب فى عثورنا على حالات كثيرة يستعمل فيها أصحابها لقب «كاتب» ، وإنى أعتقد أن هذا اللقب كان يعنى على قدر فهمنا لهذا المعنى الآن «الموظف» . وكان الرئيس الأعلى لموظفى الدولة هو الوزير (بالمصرية القديمة «ثاتى») الذى كان يشرف فى نفس الوقت على القضاء فى مصر إبان الدولة القديمة قليلة ، وبينما دون الناس قوانينهم فى بابل القديمة فإنه لم تصل إلينا صورة واحدة لأى قانون مصرى كتب على بردية من عصر الدولة القديمة، وليس معنى هذا أن المصريين لم يعرفوا القانون، بل إننا لا زلنا نفتقد هذه الوثيقة التى لابد أنها كانت موجودة ، ولم تصل إلينا بعد ، ومن أجل هذا كله نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتماد على بعض الوثائق المتفرقة، منها ما هو منقوش ومنها ما وصلنا على برديات لكى نستخلص منها ذرات عن هذا الموضوع .

أما معلوماتنا عن الاقتصاد المصرى فى عصر الدولة القديمة فهى وإن كانت قليلة إلا أنها كافية لإعطاء صورة تكاد تكون واضحة . ويجدر بنا قبل كل شئ أن نوضح أن مصر القديمة طوال عصورها ، الزاهرة والمضمحلة ، ظلت ملتزمة لطرق الاقتصاد البدائية بمعنى أنها لم تعرف أى نوع من أنواع الاقتصاد الذى يقوم على تبادل العملة. وكانت المدفوعات التى تستحق على الأفراد للدولة مثل «الضرائب» ، تؤدى بطريقة عينية. وهناك نظام، يرجع بلا شك إلى أقدم العصور ،

ويهدف إلى القيام بتعداد كامل للماشية فى البلاد فى فترات متقاربة ، وكان هذا التعداد يتم لتسهيل عملية جباية الضرائب ، ووصل فى أهميته حدا جعل الناس فى عصر الدولة القديمة يؤرخون أعوامهم بحسابها من عام تعداد الماشية . كما عثرنا فى عصر الدولة القديمة على أنواع مختلفة من أحجار الموازين وقد مهر كل حجر بعدد الوحدات التى يمثلها .

وأدى انتشار نظام تمليك الأراضى للأفراد وبخاصة فى عصر الأسرة الخامسة التى اشتهر ملوكها بسياستهم التى هدفت إلى التقليل من المركزية المطلقة، إلى زيادة أهمية «الاقليم» وأخذ كل إقليم على مر السنين ينافس العاصمة «منف» فبدأ حكام الأقاليم منذ عصر الأسرة الخامسة لا يشعرون بضرورة بناء مقابرهم بالقرب من أهرام ملوكهم، وأخذوا بتشييدها فى أقاليمهم التى أشرفوا على حكمها أثناء حياتهم الأولى. لقد سبق لنا الحديث عن الأوقاف التى كان الملوك يهبونها للأفراد ليربطوا دخلها على المقابر. هذه الأراضى أصبحت خاضعة للتوريث وأخذت تنتقل عن طريق الزيجات إلى الشخصيات البارزة اقطاعيات واسعة. وتمكن آخر الأمر بعض الحكام بالأقاليم من أن يجعلوا وظائفهم هذه خاضعة للوراثة وبخاصة فى مصر العليا، كما يبدو ذلك واضحا من نقوش بعض مقابر هؤلاء الحكام . وهكذا أصبحت تلك الوظائف التى كان الملك يختار من يتقلدها ، وقفا على أفراد أسرة واحدة استقروا فى اقليم بعينه وهيمنوا عليه، وأبقوا على علاقاتهم الحسنة بالعاصمة ما دام ملك البلاد الجالس فيها يستطيع أن يقبض بيد قوية على شئون البلاد ، إلا أن كلا منهم فى حل من هذا الخضوع إذا اختلفت الظروف . وعلى كل حال فنحن الآن نتحدث عن عصر أخذت فيه بذرة الاقطاع تنمو وتزدهر ، وهذا العصر بدأ فى أواخر الدولة القديمة، ولا نشك فى أن ظهور عوامل الاقطاع في مصر من هذا العصر هو السبب الرئيسى الذى أدى إلى اضمحلال هذه الدولة ومن ثم إلى سقوطها .

لعل أقدم مقابر لحكام الأقاليم الذين عاصروا الأسرة الخامسة هى التى عثرنا عليها فى منطقة «طهنسا» فى مصر الوسطى ، وكان أسلوبها المعمارى يقوم على نفس العناصر التى شرحناها بالنسبة إلى المساطب الضخمة المشيدة فى جبانة العاصمة وحول أهرام الملوك. ونظرا لأن طبيعة وادى النيل فى مناطق مصر العليا لم تسمح بمساحات واسعة تصلح لاستغلالها لاقامة جبانات، إذ أن التلال الموازية لهذا الوادى تمتد ملاصقة للأراضى الزراعية ، لذلك نجد أن المصرى أخذ يستغل هذه التلال لنقر مقابره فى جوفها وما دامت الأراضى الصحراوية لا تسمح بتشييد مساطب على غرار ما أقامه المصريون فى صحراوات سقارة والجيزة، وهكذا ظهرت المقابر الصخرية ذات

الحجرات الواسعة المنقوة فى جوف الصخر. وكانت هذه المقابر طوال الفترة من أواخر الدولة القديمة حتى آخر الدولة الوسطى، ولم يبطلوا هذه العادة إلا فى الفترة القصيرة التى وقعت مصر فيها فريسة للثورات ، وعلى كل حال فنحن على استطاعة الآن أن نتتبع تطور نظام المقبرة الصخرية من عصر الأسرة الخامسة حين كانت تتكون فقط من صالة مستعرضة ، إلى عصر الدولة الوسطى حيث أصبحت المقبرة تمتد فى جوف الصخر وتتكون من أكثر من حجرة طولية، وكان جدران الحجرات تملأ برسوم مختلفة تمثل الحياة اليومية كما كانت عليه الحال فى مساطب الدولة القديمة، وهذه الرسوم إما أنها كانت تنقش إذا سمحت مادة الحجر بذلك وإما أنها كانت ترسم بالألوان. وكانت هذه الرسوم أيضا خالية تماما من العناصر الدينية الخاصة بالطقوس المختلفة واكتفت بتسجيل النشاط اليومى الذى كان يملأ حياة الفرد فى ذلك العصر . وكانت كلما قربت منطقة هذه المقابر من العاصمة منف ظهرت فيها بوضوح بعض التأثيرات الفنية التى كانت منتشرة فى جبانة العاصمة . وما دمنا نفتقد تلك الصور التى تتحدث عن بعض الأحداث التاريخية، حتى فى جبانة العاصمة، فإننا لا نعجب مطلقا إذا كانت المقابر الصخرية المنتشرة فى جبانات الأقاليم لم تمحو إلا صورة واحدة من هذا النوع، وهى صورة تمثل اقتحام إحدى القلاع الموجودة فى منطقة تقع عند الحدود المصرية الفلسطينية ، وهناك صورة أخرى مماثلة لهذه عثر عليها مرسومة على جدران إحدى مقابر سقارة .

وكانت كلما بعدت أمكنة المقابر الصخرية فى مصر العليا عن العاصمة اختلف فيها الأسلوب الخاص بفن الرسم الذى تحدثنا عن عناصره فيما يتعلق بمقابر جبابات العاصمة . وينصب هذا الاختلاف على أن الخطوط الفنية للصور واللوحات تبدو فى مقابر مصر العليا غير متزنة بحيث أننا نستطيع أن نحكم بأن المصرى فى هذه الأماكن النائية كان لايعرف الأصول المتبعة فى الفن التقليدى الذى تسير عليه العاصمة ولعل هذا الاتجاه جعل الفنان يصل إلى عناصر لها أهميتها وطرافتها . ويجدر بنا أن نوجه النظر إلى أن الاختلاف بين فن العاصمة فى التصوير والنقش وبين الفن الذى وصل إلينا فى نقوش ورسوم المقابر الصخرية بمصر العليا وهو ما نستطيع أن نسميه «فن الريف» قد أصبح موضوع دراسة واسعة لاتتسع صفحات هذا الكتاب للتنويه به أو حتى للتعليق المجمل عليه .

لقد وصلت إلينا بعض الحقائق التاريخية عن طريق تلك المجموعات الكبيرة من النقوش والكتابات التى سجلت فوق جدران المقابر الصخرية بمصر العليا فمثلا نعتز كثيرا بنص الوزير

«أونى» الذى عاش فى عصر الأسرة السادسة والذى ترك نصه هذا فوق جدران مقبرته المتهدمة التى لا زالت بقاياها فى جبانة أبيدوس والذى لم يتميز بوظيفة حاكم إقليم فحسب بل شغل وظيفة أخرى هى «المشرف على مصر العليا» ، ومعنى ذلك أنه كان موظفا حكوميا يمثل الملك أو قل أنه كان مندوبا للملك يدير شئون مصر العليا بأكملها . ويذكر فى نصّه سالف الذكر فى جملة ما ذكر حملة حربية سارت إلى الساحل السورى الفلسطينى وضمن حديثه معلومات كثيرة ذات أهمية ، ولو أنه للأسف استخدم أسلوبا شعريا حلاه بألفاظ رنانة وكان يهمنا أن يذكر الحقائق دون الزخرف من الألفاظ . واختار كثير من أسر حكام الأقاليم فى مصر العليا مواقع فى التلال الصخرية حرصوا على أن تشرف على الوادى المتسع حيث يقع اقليمهم ، وكانت مقابرهم هذه تنقر فى الصخر الطبيعى على ارتفاع لا يعدو ثلاثة أرباع ارتفاع التل . ولعل أهم المقابر التى تركها أمراء الاقليم هى تلك التى نقرها أعضاء أسرة حكام الاقليم الأول من مصر العليا والذين اختاروا جزيرة الفنتين كمعقل لهم شيدوا فوقها عاصمتهم وكان التل الصخرى الذى يطل على الوادى يقع على الشاطئ الغربى للنيل ويواجه مدينة أسوان الحالية وفى الواقع يستطيع المرء أن يتمتع بأجمل منظر طبيعى إذا ما وقف فى هذه البقعة وأطل على الوادى من هذا الارتفاع الشاهق. ولقد عاش هؤلاء الأمراء الذين نقروا مقابرهم فى هذه المنطقة فى عصر الأسرة السادسة واعتبروا بمثابة حماة الحدود المصرية الجنوبية فى عصر الدولة القديمة. كما أنهم كانوا يتحكمون فى طرق التجارة مع البلاد الواقعة إلى الجنوب منهم ، والتى كانت تصدر إلى مصر سلعا مهمة مثل العاج وجلد الفهد (الذى كان اللباس الرسمى لطبقة معينة من الكهنة المصريين) وذلك بناء على المعلومات القيمة التى نستقيها من نقوشهم والتى سجلوها على مقابرهم سالفة الذكر . ولقد عثر على أوان مرمرية نقشت بأسماء ملوك الأسرة السادسة فى هذه المنطقة الجنوبية وفى حدود وصلت إلى الشلال الثالث جنوبا ، ومعنى هذا أن المصريين توغلوا جنوبا إلى مديرية دنقلة الحالية. هذا غير بعثة بحرية أرسلت إلى بلاد بونت الواقعة عند باب المندب فى جنوبى البحر الأحمر أى عند بلاد الصومال الحالية، والتى اهتم المصريون بها نظرا لأنها كانت المورد الوحيد لمختلف أنواع البخور. ونحن نستقى معلوماتنا عن هذه البعثة البحرية مما سجل على حجر بالرمو الذى دون أهم الأحداث التى وقعت فى مصر طوال عصور الأسرات من الأولى إلى الخامسة ومنها هذه البعثة التى أرسلها الملك « ساخورع» من الأسرة الخامسة.

ج- الدين والفن

هناك ظاهرتان مهمتان تعتبران من أهم المظاهر الحضارية لمصر والتى وصلت إلى ذروة الازدهار فى عصر الدولة القديمة أى إبان القرن الثلاثين قبل الميلاد. ويجدر بنا أن نذكر كلمة عن هاتين الظاهرتين قبل الانتهاء من الحديث عن تاريخ عصر الدولة القديمة . وسبق لنا الحديث عن التقديس الذى كان فرعون مصر يحظى به كإله أثناء حياته الأولى على الأرض كما ذكرنا أنه كان يشيد لنفسه كإله فوق الأرض مقبرة ضخمة على هيئة هرم كبير . ووصلت إلينا فى بعض هذه الأهرامات وعلى وجه التخصيص فى هرم آخر ملوك الأسرة الخامسة وفى أهرامات ملوك الأسرة السادسة نقوش كثيرة تعارفنا على تسميتها بمتون الأهرامات التى تتحدث عن معتقدات المصرى القديم فى آلهته وعن الطقوس المختلفة الخاصة بديانته ، وهى تعتبر في نفس الوقت أقدم التسجيلات التى وصلت إلينا من هذا النوع ولا زلنا نحاول التعرف على العصر الذى نشأت فيه هذه المتون وبدء استعمالها ولكن محاولاتنا لم تصل إلا إلى تحديد هذه الفترة بين الأسرة الثالثة وبين أوائل الأسرة الخامسة كعصر تكون وتجمع هذه العناصر الدينية فى شكل متن محبوك الأطراف. أو بعبارة أخرى نحدد نشأة هذه المتون فى فترة الانبثاق والازدهار لحضارة الدولة القديمة . ويخصص الجزء الأكبر من هذه المتون اعطاء هذه الحياة صورا هامة وممتعة ويؤكدون أن الملك المتوفى سيصبح الها مرة أخرى وسيحيا مع أقرانه الآلهة فى السماء . وهكذا جاءت تلك الصورة الجغرافية التى تخيلها المصرى لعالم الآلهة فى السماء وهى صورة تتفق وطبيعة أرض مصر . وكان أهم ما يشغل بال المصرى هو كيف يصل الملك المتوفى إلى السماء لكى يجتمع مع الآلهة الأخرى ليحيا معها الحياة الأبدية. ويشغل نفسه بهذه المعضلة وأخذ فى تفسيرها فتارة يتخيل الملك على هيئة أوزة كبيرة أو صقر يطير إلى السماء وتارة يتخيله يتسلق سلما نحو السماء. هذه هى بعض الصور التى نعرضها لما ذكره المصرى عن كيفية صعود الملك المتوفى إلى عالم الآلهة ثم بعد صعوده كان الملك يأخذ مكانا فى سفينة الشمس التى يعبر بها الاله السماء يوما بعد يوم من الشرق إلى الغرب وغير ذلك ، وهنالك معضلة كبرى شغلت تفكير المصرى وهى مصير سلطة الملك وسيطرته بعد موته- عندما يصبح واحدا من بين الآلهة الكثيرة التى تعيش فى السماء . لقد وجد المصرى حلا لهذه المعضلة ، عبر عنه فى أحد متون الأهرام بأنه إذا ما وصل الملك إلى السماء فعليه أن يفترس كل المخلوقات الإلهية التى تقابله هناك ويتغذى بها وذلك لكى يضمن الفوز بقواهم

السحرية كلها ، هذا المتن الغريب فى معناه لابد أنه كان يرمز إبان عصر الدولة القديمة المزدهر إلى ذكريات متوغلة فى القدم ترجع إلى العصور الأولى من حياة الإنسان عندما كان منهم من يعتدى على الآخر ويتغذى بلحمه، ونحن على حق إذا اعتبرناه من أقدم المتون المتوارثة كما أنه لا شك يمثل اتجاها طبيعيا لا زخرف فيه . هدفه تصوير تلك الأحداث البشعة والتى لا تتفق بأى شكل مع مشاعرنا . وهكذا تختلف متون الأهرام فى ناحيتها هذه عن كل المتون الأخرى التى ظهرت عند المصرى فى عصوره اللاحقة والتى تتحدث عن حياة الميت باستمرار فى الدنيا السفلى وعن خوف الناس من الأطياف المؤذية ومن الشياطين المختلفة التى تهيمن على ذلك العالم.

لقد سبق لنا أن ذكرنا على الصفحات السابقة وعند الحديث عن الأحداث التاريخية الخاصة بالأسرة الخامسة، أن معظم أسماء ملوك هذه الأسرة تنتهى باسم «رع» إله الشمس. وفى هذه الأسماء بالذات تنكشف لنا بعض الاتجاهات الدينية الجديدة. ففى استطاعتنا أن نفرق بين طائفتين من الآلهة عند المصريين ظهرتا منذ أقدم العصور . أولاهما تتكون من مجموعة من الآلهة ذات أجسام بشرية على الأغلب وكانت رءوسها تمثل باستمرار على هيئة رءوس الحيوانات وهذه عبدت فى مصر العليا، وهى بذلك تتبع اتجاها حضاريا يغلب عليه الطابع الأفريقى. أما الطائفة الثانية فهى تتكون من مجموعة صغيرة من الآلهة ذات أجسام ورءوس بشرية وهى تمثل آلهة الطبيعة، ونعتقد أن البيئة التى نشأت فيها هى مناطق شرق الدلتا ، أى فى المنطقة التى كانت على اتصال مباشر مع بلدان الشرق الأدنى القديم. وفى هيلوبوليس وهى المدينة التى تمُتُّ جغرافيا إلى الدلتا، نشأت ديانة الشمس حاوية لمجموعة من الآلهة تتكون من الطائفتين سالفتى الذكر، وعلى رأسها رع اله الشمس ومعه أتوم الاله المحلى لهليوبوليس بجسمه البشرى الكامل، وتكون من الاثنين اله واحد هو «أتوم رع» وفى ظل ديانة رع الهيليوبوليتانية اضطر الملك أن يقنع ببنوته لرع ، ومن هنا أتى اللقب الخامس من الألقاب الملكية الذى يسبق اسمه الشخصى.

ومع هذا التطور الذى اتجه إلى الإقلال من مركز الملك بحيث أصبح ابنا لرع ، نجد أن الصفة التى لازمت فرعون كاله قد تغيرت من «الاله العظيم» إلى «الاله الطيب».

ولعل الاسم الذى اشتق من الصفة، وهو «العظيم» كان يطلق ابان إحدى الفترات القديمة على أحد آلهة الكون فى هيليوبوليس ، وهو الاله الذى حاول الكثيرون وعلى رأسهم «يونكر» أن يصلوا إلى معناه وإلى كنهه ولكنهم لم يستطيعوا ذلك حتى الآن، ولو أن من الجائز أن نلتمس

فيه ذلك «العظيم» (فى المصرية القديمة «رو») الذى يدل على معنى من معانى التوحيد القديمة التى وصل إليها المصرى فى أقدم عصوره .

عرف كهنة هيليوبوليس بالتعمق فى ثقافتهم فى جميع العصور ، وأنشأوا هناك عقيدة تقوم على تقديس معبودات تسعة (وهم الذين نطلق عليهم اسم «التاسوعة الكبرى» لهيليوبوليس) وكان أهمها بحق هو الاله خالق النبات «اوزوريس» . ولقد قامت أساطير مختلفة عديدة حول هذا الاله، لو أردنا التعرض لها على صفحات هذا الكتاب لخرجنا عن الاطار التاريخى الذى نلتزمه فيه، إلا أن من الواجب علينا هنا أن نلمس نقطة جديرة بالذكر، وهى أنه منذ ظهور ديانة «رع» فى هيليوبوليس، أخذ الملوك فى تشييد معبد له ، وبخاصة ملوك الأسرة الخامسة الذين توصلنا إلى الكشف عن معابدهم فى أبوصير ، إلا أن هذه المعابد اختلفت فى أسلوبها المعمارى عن تلك المخصصة لعبادة الآلهة الأخرى والتى شيدت فى عصور لاحقة، غير هذا فقد عبرت النصوص والمناظر المنقوشة فوق جدران معابد الشمس عن العناية والحنان الذى يبديه اله الشمس نحو جميع الآلهة الآخرين، وذلك بأسلوب فنى ينبض بالحياة وتتدفق منه المشاعر والأحاسيس الجميلة.

وما دام الحديث قد وصل بنا إلى ذكر الأسلوب الفنى الجميل الذى عبرت عنه نقوش معابد الشمس من الأسرة الخامسة، فيجدر بنا أن ننهى هذا الباب بكلمة عن الفن المصرى فى عصر الدولة القديمة، وبخاصة إذا عرفنا أن هذه الناحية بالذات هى السبب الرئيسى الذى يدفع بالكثيرين منا إلى العناية بالحضارة المصرية بل وإلى دراستها . ليس من شك فى أن دراستنا العميقة للآثار المصرية قد علمتنا كيف أن الفنان المصرى فى العصور الأولى من تاريخه قد اختار بعضا من الامكانيات الكثيرة التى وضعتها الطبيعة تحت بصره، وكون منها أسلوبا فنيا ، معينا يبرز به «الشكل» و «العنصر» . وتمكن منذ الأسرة الثالثة أن يرسى هذا الأسلوب الفنى على قواعد ثابتة شملت كل نواحى فنه والتزامها طوال العصور حتى آخرها . هذه القواعد الثابتة التى يلتزمها فى تنفيذ ناحية معينة من الفن قد شملت تمثيل الإنسان فى الرسم والنحت كما شملت رسم الآنية أيضا ، وشملت – وهنا تعطى مثلا لا يتعلق بناحية من نواحى الفن الحقيقى– طريقة رسم العلامات الهيرغوليفية ، مع العلم أن طريقة الكتابة الهيروغليفية كانت باستمرار من أهم أركان الفن فى الحضارة الفرعونية.

وإذا كان المصرى القديم لم يستخدم قواعد الرسم المنظور في رسومه وأضفى نوعا من الجمود وعدم الحركة على تماثيله ، فإن مرجع ذلك إلى بعض القيود التى فرضها المصرى على فنه وجعلها أساسا لتعبيراته ، هذا الأسلوب بالذات لا نستطيع استساغته الآن لأننا بلا شك تأثرنا بالفن الاغريقى القديم الذى يقوم على قواعد فنية مختلفة تهدف إلى إظهار أعماق الصورة بطريقة الرسم المنظور. وإذا كان الفن المصرى تقيد بقاعدة «الخطوط المتوازية» وقاعدة «الأمامية البحتة» فإن هناك داخل هذا الإطار اتجاهات فنية مختلفة ميزت الأسلوب الفنى لعصر من العصور عن عصر آخر، وهذا ما حدث فى الفن الاغريقى أو فى فن أية أمة حديثة، فمثلا نستطيع فى يسر، أن نفرق بين الأسلوب الفنى المتبع فى نحت تمثال من عصر الأسرة الرابعة، وبين المتبع فى تمثال من الأسرة السادسة.

ولقد تأثر الفن فى مصر بالديانة تأثرا واضحا . فالمناظر المرسومة كانت تكسو جدران حجرات المقابر أو أبهاء المعابد، أما تماثيل الملك فكانت تقام فى المعابد ، بينما كانت تماثيل الأشخاص تودع الحجرات المغلقة الملحقة بالمقابر والتى اصطلحنا على تسميتها بالسرداب . ولذلك فنحن نحيد عن الهدف الأصلى بل ونرتكب خطأ كبيرا ، إذا ما وضعنا التماثيل المصرية فى الحجرات الواسعة بالمتاحف ، نسلط عليها الأنوار المتألقة ثم نحاول أن نشاهدها من جميع زواياها، ونطلب بعد هذا كله أن ترضى ميولنا الفنية وتفوز بإعجابنا. ولم تلعب مطابقة ملامح التمثال لصاحبه أو حتى محاكاة هذه الملامح، أى دور فى فن النحت عن المصريين القدماء. فالمثال المصرى كان يهدف إلى تمثيل الشخص فى هيئته المعبرة بحيث يسجل له هذه الهيئة على أحسن ما يستطيع مختارا لها أبهى صورة فى أحسن سن، واستطاع أن يبرز هذا كله من الناحية الفنية ببراعة كبيرة. وهكذا امتازت روائع فن النحت من عصر الدولة القديمة بدقة فى الاخراج وبجمال يقف أمامه الزائر حاليا مشدودها، مترنما بأن فن النحت إبان الدولة القدمية يعتبر بحق من أرقى فنون النحت التى وصلتنا من العصور القديمة، كما أن الفنان المصرى فاق أقرانه بحساسيته الفنية وببراعتــه فى الإخـراج .

٣- عصر الاضمحلال الأول

(من ٢١٩٠ إلى ٢٠٥٢ ق.م)

كان «ارمان» على حق حين قال : «وفى أواخر الأسرة السادسة خيم الظلام فجأة على مصر، وكأن كارثة كبرى قد حلت بها». هذه الحقبة المظلمة التى تفصل بين عصرى الدولة القديمة والدولة الوسطى أخذت ظلمتها تنقشع وتبدو لنا رويدا رويدا ، ولو أن الكشوف الأثرية عنها لا تزال قليلة. ولقد سبق لنا الحديث عن الأسرة الثامنة ، وهى الأسرة التى تمثل النهاية التاريخية لعصر الدولة القديمة، وعن بدء ظهور نظام الإقطاع وأمراء الأقاليم فى العصر الثانى من الدولة القديمة، كما سبق القول، والنقوش التى وصلتنا من عصر الملك بيبى الثانى، والذى حددت له ورقة تورين البردية مدة حكم زادت على التسعين سنة، تفصح لنا عن الضربة القاصمة التى أصابت السيادة الملكية فى هذا العصر ، بحيث لا نستطيع مطلقا أن نتحدث الآن عن السلطة المقدسة لفرعون مصر التى تمتع بها ملوك الأسرة الرابعة، وكذلك ملوك النصف الأول من الأسرة الخامسة . ونحن نعلم من النصوص التى وردت على جدران المقابر الكبرى المنقورة فى الصخر فى مصر العليا ، أن أصحابها من حكام الأقاليم كانوا منهمكين فى كفاح مرير يهدف كل منهم من ورائه إلى أن يقيم لنفسه أسرة ملكية ترتقى عرش البلاد بعد أن ينجح فى ضم أكبر جزء من مصر تحت لوائه. ونكاد نلتمس القرائن التى تدل على ظهور أسرتين فى البلاد ، إحداهما فى قفط والأخرى فى أبيدوس وكل منهما حاول أن يجمع كلمة الإقليمين ولكنهما لم ينجحا وما لبثا أن اختفت مجهوداتهما .

أما المصريون أنفسهم يعترفوا فى وثائقهم إلا بأمراء اقليم اهناسيا (هيراكليوبوليس) كخلفاء حقيقيين لفراعنة الدولة القديمة ، وذكرتهم قوائم الملوك الرسمية على أنهم ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة . وتقع عاصمتهم أهناسيا فى أقصى الشمال من مصر العليا وهى تقابل منطقة الفيوم. ونجح هؤلاء فى الوقت نفسه فى أن يسيطروا على العاصمة القديمة منف. وإذا كانت الكشوف الأثرية لم تظهر لنا حتى الآن مقبرة لأحد هؤلاء الملوك، إلا أن لدينا من المعلومات المستقاة من نصوص هذا العصر ، ما يدلنا على أنهم قد اختاروا سقارة كجبانة لمقابرهم ، كما أن القليل من الآثار الذى وصل إلينا من عهدهم يدل بوضوح على أن الاتجاه الفنى السائد فى مصر كان هو بعينه الاتجاه الذى سار عليه المصرى فى العصر الذهبى للدولة القديمة. وإذا كان هذا العصر قد أحدث

بعض التجديد فى طرق الدفن . مثل تزويد أحد الجوانب الطويلة للتابوت الخشبى برسم العينين، أو إيداع حجرة الدفن نماذج صغيرة خشبية لسفن أو مخازن حبوب أو غير ذلك من الأشياء التى يحتاج إليها الميت فى دنياه الثانيه ، فإن هذا التجديد عثر على مثيل له فى بعض المقابر التى ترجع إلى عصر الأسرة السادسة، كما أنه انتشر وأصبح من المظاهر التقليدية فى عصر الدولة الوسطى. وهذه المظاهر الأثرية بالذات هى التى دفعت بعضا من الأثريين فى القرن الماضى (مثل «ليسيوس» وأقرانه) إلى اعتبار الفترة من الأسرة الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة، مكملة لعصر الدولة القديمة . ولم نفصل عصر الدولة الوسطى ونجعل منه عصرا قائما بذاته إلا على أساس الدراسات الحديثة التى أثبتت أنه من العصور التى أظهرت حضارة مزدهرة لها طابعها الخاص ، كما سيرد الحديث عنه على الصفحات القادمة، ولو أنه من الواضح تماما أن الفجوة الرئيسية التى اعترضت تطور الحضارة المصرية فى تاريخها الطويل، حدثت إبان العصر الذى يفصل بين الدولتين الوسطى والحديثة، وهو العصر الذى نحدده فيما بين ٢٠٠٠ ق.م و ١٥٠٠ ق.م .

كان «خيتى» (أطلق عليه الاغريق أختويس) هو المؤسس للأسرة التاسعة الأهناسية، وقد جعل من منف مقرا لحكومته ، ولم يستطع مد سيطرته على مصر العليا بأكملها ، بل كاد نفوذه لا يتعدى منطقة أبيدوس، أما المناطق الواقعة إلى الجنوب منها ، أى اقليم طيبة والأقاليم الأخرى حتى الشلال الأول فقد ناوأته ، منضمة تحت لواء أمير اقليم طيبة، وهو الذى تمكن فى آخر الأمر من أن ينجح فى القضاء على أسرة أهناسيا واقامة أسرة جديدة ، هى الأسرة الحادية عشرة، التى تبدأ بها عصر الدولة الوسطى.

وعلينا الآن أن نواجه معضلة التاريخ الزمنى للعصر الأهناسى، ونبدأ بمحاولة «ادوارد ماير» فى ربط هذا العصر بالتحديد الزمنى المؤكد لعصر الدولة الوسطى على أساس بعض الدراسات الحديثة ، ويؤسفنى أن أقول إن هذه المحاولة تعتبر الآن فاشلة ، وذلك لأن فترات الحكم الخاصة بملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة ، قد ضاعت وفقدت من الجزء الخاص بها من ورقة تورين البردية. وعلى هذا الأساس نجد أنفسنا مضطرين ، إلى الاعتماد على نتائج الكشوف الأثرية وما تنطق به بعض النقوش التى وصلتنا من كلا الجانبين : الأهناسى والطيبى على أن ندخل فى الاعتبار كان بينهما من عداء وحقد . ونستطيع أن نقدر مدة قرنين لفترة حكم ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة، وذلك بناء على الكشوف الأثرية والدراسة التاريخية التى قام بها «وينلوك» على الآثار التى عثر عليها فى المعبد الجنازى الخاص بالأسرة الحادية عشرة والقائم فى جبانة طيبة على الشاطئ الغربى

للنيل ، وذلك أثناء التنقيب المتكرر الذى أجراه هناك لحساب متحف المتروبوليتان بنيويورك . ويقدر «وينلوك» أن انهيار الأسرة الأهناسية حدث حوالى عام ٢٠٥٢ ق.م بعد انتصار الأسرة الطيبية التى قام من بينها ملوك الأسرة الحادية عشرة. ولكن ما مدى ارتباط الأسرة التاسعة بالأسرة العاشرة؟ هذا ما لا نستطيع تأكيده تاريخيا حتى الآن. نحن نعرف من بين ملوك الأسرة العاشرة الملك «خيتى الثالث» وابنه الذى خلفه كان الملك «مرى كا- رع» الذى فاز بشهرة خاصة بعد العثور على الوثيقة التى تحوى التعاليم السياسة التى وجهها والده إليه، والتى سيأتى الحديث عنها بإسهاب على الصفحات التالية. ونعتقد أن هذين الملكين يمتان بصلة تكاد تكون أكيدة إلى مدينة الأشمورنيين (هرموبوليس) بمصر الوسطى وأن هذه الصلة تدفعنا إلى اعتبارهما من الأسرة العاشرة التى تنتمى إلى هذه المنطقة، وفى هذه الحالة نعتبر ملوك الأسرة التاسعة من أهناسيا. ومن الثابت طبعا أن نجاح أمراء طيبة فى القضاء على الأسرة العاشرة، تم مباشرة بعد حكم الملك «مرى- كارع» .

كانت الدلتا من المناطق التى خضعت تماما لسلطان ملوك الأسرة الأهناسية . إلا أن هناك بعض النصوص تشير إلى الخوف الذى أخذ يملأ قلوب الناس من تسرب بعض العناصر الآسيوية على هيئة هجرات بطيئة إلى مناطق الدلتا الشهيرة بخصبها وأن هذه الهجرات مكنت جماعات كبيرة من البدو من الاستقرار هناك. ويبدو أن هناك بعض الأدلة على أن هذه الهجرات بدأت منذ عصر الأسرة السادسة ، وطبعا لم تأخذ مطلقا شكل حملات عسكرية أرسلتها إحدى القوى الفتية التى ظهرت فى مناطق الشرق القديم فى غرب آسيا ، ولكن نستطيع أن نحكم بشكل واضح على أن فى ذلك العصر قد حدثت بعض التطورات الخطيرة والتى كان لها نتائج عظيمة الأثر فى منطقة الدلتا. حقيقة يهدف البعض إلى أن يربط بين هذه التجمعات وبين بعض الأحداث الكبرى التى كانت تجرى فى منطقة آسيا القريبة فى نفس الفترة ، أى فيما بين ٢٣٠٠، ٢٢٠٠ ق.م، حين خرج الملك الأكدى «سرجون» ومن بعده «نارامسين» من بلاده محاولا تشييد امبراطورية متسعة الأرجاء وصلت فى اتساعها إلى الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، إلا أن هذا الربط يقوم على أسس واهية ، وبخاصة إذا أخذنا عليها، فإننا فى هذه الحالة نكون فى الواقع مغالين كل المغالاة ، ونكون قد أخذنا بنظرية تعوزها كل القرائن العلمية.

وإذا كان عصر الاضمحلال الأول لم يترك شخصية واحدة من شخصيات التاريخ البارزة، فإن مرجعه ولا شك إلى القلاقل والاضطرابات التى هيمنت على حياة المصرى فى ذلك الوقت ، إلا زنه

يعتبر بالنسبة إلى الإنتاج الفكرى المصرى بمثابة أهم العصور وقد كانت له نتائج حاسمة، ظهرت آثارها بوضوح فيما وصل إلينا من نصوص تتحدث عن الأدب والدين فى تلك الفترة، ونحن على حق إذا اعتبرنا هذا العصر من أهم العصور لازدهار الأدب المصر القديم، ولقد نجح «بونكر» فى وصف التغييرات وذلك فى كتابه عن المصريين الذى نشره فى مجموعة .

Junker, H.: «Die Vøolker des Antiken Orients»

هناك ناحية أخرى تسترعى النظر وهى التغيير الذى حدث فى الناحية الاجتماعية ، فنحن نلاحظ ابتداء من أواخر الأسرة السادسة أن نظام الطبقات فى مصر أخذ يختلف اختلافا ذكرته شكايات الحكيم «ايبو – ور» فى كثير من التفصيل . وهو الكاهن الحكيم الذى يعرض على الملك كل ما يحدث من أمور وصلت بالبلاد فى عهده إلى هوة التدهور والاضمحلال . وإذا كانت هذه المخطوطة المحفوظة بمتحف ليدن قد كتبت فى عصر الدولة الحديثة، إلا أن ما تصفه الوثيقة بأنه بلغ من الكبر عتيا وأصبح كسولا لا يقوى على الحركة ، والذى وجه «ايبور – ور» حديث إليه، كما أكد «ارمان» منذ أول الأمر، هو الملك بيبى الثانى من ملوك الأسرة السادسة والذى سبق الحديث عنه، أنه جلس على العرش أكثر من تسعين عاما . وتتكون الشكايات من مجموعات منظومة ، كل مجموعة منها تتميز ببداية معينة ترد فى مطلع كل بيت . ولنعط مثلا أخذناه من ترجمة «ارمان» .

هذا أمرنا ، إن الحقراء أصبحوا يمتلكون النفائس

ومن كان لايمتلك حذاء ، أصبح يقتنى كنوزا

هذا أمرنا ، أهل العزة فينا أصبحت شكاياتهم تملأ الفضاء

أما الحقراء فهم فى نعيم متصل

وقد أخذت كل مدينة تقول، فلنطرد الأقوياء من بيننا

هذا أمرنا ، أصبح الناس يأكلون الأعشاب ويشربون الماء

وأصبحنا لا نجد الفواكه ولايجد الطير عشبا يقتات به

بل أخذ الناس يسرقون نافلة الطعام من أفواه الخنازير

ولا يستطيع أحد منهم أن يقول للآخر

هذا لك فخذه بدلا منى

لأن الناس أصبحوا جميعا جياعا

هذا أمرنا ، أن محصول القمح قد ضاع

وأصبح الناس لا يجدون لباسا أو عطورا أو زيوتا

والكل يقول : لقد ذهب كل شئ

وأصبحت مخازن الحبوب خاوية

وحارسها ملقى على الأرض (أى أنه قتل)

هذا أمرنا ، إن كل شئ رأيناه بالأمس

أصبح اليوم أثرا بعد عين

لقد ترك الحبل على غاربه فى بلادنا

وأصبحنا مثل عود الكتان بعد أن ينزع من الأرض

ليت الدنيا تصبح بلا ناس

وليت النساء لا يحملن ولا يلدن

وليت الأرض تصبح صامتة لا نسمع فيها صوتا ولا تحدث فيها مشاحنة

هذا أمرنا ، لقد اختفى الضحك وأصبح الناس لا يعرفونه

وعم الحزن البلاد وأصبح الناس لا هم لهم إلا الشكوى.

وهكذا تسير الشكايات وهى تدور حول نقطة واحدة عبر عنها هذا الحكيم بقوله : «إن الدنيا تدور كما لو كانت عجلة الفخرانى».

ليس من شك فى أننا هنا أمام دليل واضح يثبت بعد تلك النماذج القليلة من الشكايات سالفة الذكر، أن مصر قد وقعت فريسة لثورة اجتماعية جامحة فى أواخر عصر الأسرة السادسة من الدولة القديمة. ومن القرائن التى تثبت ذلك أيضا أعمال التخريب والتهشيم التى وقعت للمقابر فى ذلك العصر ، فمثلا عثر «يونكر» أثناء تنقيبه فى جبانة الجيزة على مساطب لمصريين عاشوا فى أواخر الدولة القديمة وانتموا إلى الطبقات الفقيرة من الشعب ، إلا أنهم استعانوا فى تشييد مساطبهم هذه بأحجار سرقوها من مساطب لغيرهم عاشوا فى عصور تسبقهم . بل أكثر من هذا نعتقد أن أعمال التخريب التى وقعت فى المعابد الكبرى مثل المعبد الجنازى للملك خفرع (من الأسرة الرابعة) قد حدثت فى ذلك الوقت بالذات ، ونحن نرى آثار هذه الحركة ظاهرة فى تماثيل الملك التى هشمت إلى آلاف من القطع الصغيرة.

هذا الاتجاه فى تخريب كل ما تعلق به المصرى من المثل العليا ، كان له أعمق الأثر فى الأخلاق والفكر عامة وأدى بلاشك إلى تغيير شامل فى العقائد المصرية. ولقد سبق لنا الحديث عن عقيدة المصرى فى قدسية ملكه وما أصابها من تدهور كبير، ومن الغريب أننا نجد الآن أن الرموز الملكية التى كانت بمثابة الأدوات التى تثبت سلطته المستمدة من الآلهة والتى تشير إلى قدسيته ، أخذ يستخدمها الفرد العادى. إذ بدأ الناس منذ عصر الاضمحلال الأول، يرسمون تلك الرموز الملكية مثل التيجان والصولجانات والعصى على سطوح توابيت الأفراد فى صفوف ممتدة، وهدفهم فى ذلك أن ينتفعوا هم أيضا من القوة السحرية الخاصة بهذه الأشياء ، بل نجد أن هذه الرموز الملكية ذات القدسية الكبيرة، قد أصبحت تصنع على هيئة تمائم صغيرة تباع للناس بأبخس الأثمان وذلك فى العصور المتأخرة حين أخذت ديانة المصريين تفقد أصولها الأولى أى حوالى القرن العاشر قبل الميلاد . وهكذا نجد ذلك التغيير الشامل فى العقائد المصرية. وقد كان اتصال الناس بآلهتهم فى السماء من قبل لا يحدث إلا عن طريق الملك وحده الذى يمثل بمفرده كل الشعب المصرى، فأصبح كل إنسان مسئولا عن نفسه فى اتصاله بالآلهة . هذا الشعور بمسئولية الفرد أمام الاله كان له أثر عميق فى الديانة المصرية.

وإنى أذكر هنا جزءا هاما من التعاليم الموجهة إلى الملك مرى كارع، التى سبق ذكرها، وهى تعتبر أقدم مثل يضرب لتفسير هذا الاتجاه الذى يخص الفرد على أن يأتى من الأعمال فى حياته الأولى ما يستطيع أن يقدم الحساب عنه أمام المحكمة الإلهية ، وهذا النص يجرى على الوجه الآتى : «القضاة الذين سيحكمون على أولئك الذين كثرت سيئاتهم ، اعلم تماما أنهم لن

يكونوا رحماء فى ذلك اليوم الذى سيتقدم فيه الشريرون للقضاء ، وفى الساعة التى سيقومون فيها بمهام منصبهم والويل للمتهم إذا كان على علم، ولا تطمئن إلى السنوات بمفرده بعد الموت، وستتراكم أعماله بجانبه . إن الحياة هناك (أى فى الدنيا الثانية) ستدوم إلى الأبد ، وغافل هذا الذى يشكو منها، أما من يتقدم إليهم وقد خلا من السيئات فسوف يكون هناك اله يتجول مثل سادة الأبدية».

لقد تمكنا من إعطاء القارئ نموذجين من نماذج الأدب الراقى فى عصره المزدهر تحت حكم الملوك الاهناسيين، الذين للأسف لم يخلقوا لنا تمثالا واحدا نستطيع منه أن نحكم على هيئتهم وملامحهم ، إلا أنهم بلاشك كانوا يتمتعون بقسط وافر من الثقافة لم يتوفر لأعدائهم العتاة الذين سكنوا إقليم طيبة فظهروا بمظهر ينم على جهلهم وعدم عنايتهم بالفنون، أو كان هذا حالهم على الأقل فى الفترة الأولى من عصرهم. وغير هذا توجد وثيقة كتبت على ورقة بردية محفوظة فى متحف «موسكو» وتحوى نصا للتعاليم الموجهة إلى الملك «مرى - كا - رع» كتبت على النحو الذى انتشر فى عصر الدولة القديمة أى أنها صيغت على أساس صدورها من موظف كبير عركته الأيام، لابنه الشاب. هذه الصيغة تختلف عن الصيغة التى قدمنا منها بعض الشذرات ، إلا أنها فى نفس الوقت تزيد عليها فى معانيها العميقة وفى تغليب الجانب الإنسانى فيها.

ونحن نرجع «شكايات الفلاح الفصيح» إلى نفس العصر ونعتقد أنها قدمت إلى أحد ملوك الأسرة العاشرة، وتمتاز هذه الوثيقة بأن صاحبها اعتمد إعتمادا كبيرا على العناية بالبلاغة ، ولو أنها تدور فى نفس الوقت حول نقطة واحدة هى البحث المستمر عن قاض عادل، وهذا أمر يتفق تماما مع مظاهر الاضمحلال والثورة السائدة فى مصر فى ذلك الحين، وتروى هذه الوثيقة قصة فلاح سرق منه حماران محملان ببعض السلع، فالتجأ إلى موظف ادارى كبير لعله ينصفه ويقدم له العون وأخذ يعرض قضيته فى أسلوب أخاذ ضمنها تسع شكايات ، طالبا بعد كل شكوى قاضيا عادلا . متسائلا عن العدالة وأين يجدها؟

ولعل أهم جزء من هذا التراث الأدبى العظيم هو النص الذى ورد على بردية محفوظة فى متحف برلين وهو «حوار بين زاهد فى الحياة وبين روحه»، ونحن نرجع هذه الوثيقة إلى العصر الأهناسى مع أنه لم يرد فيها اسم لأى ملك من ملوك هذه الفترة ، ولكنها تتفق فى أسلوبها ومضمونها مع هذا العصر . وهى لا تعتمد على أى سند تاريخى كالوثيقة الخاصة بالتعاليم

الموجهة إلى الملك «مدى كا - رع» إلا أنها تختص بناحية نفسية تتمثل كفاح مرير تعبر عنها بأسلوب يغلب عليه النقد اللاذع والتهكم وخاصة عند معالجة المسائل الدينية، وهذا أمر نعجب له أشد العجب . وعلى كل حال نجد أنفسنا ولأول مرة أمام وثيقة تتحدث عن الخطيئة والذنوب وعن الغفران عنها وهن الهيئة القضائية المكونة من الآلهة والدور الذى تلعبه فى الحياة الثانية. ونحن نجد هنا من عقد العزم على أن يفارق الحياة الأرضية وملذاتها ، ويحاول فى مقطوعات أربع أن يقنع «روحه» وينجح فى ذلك بعد أن سرد فى المقطوعة الثانية ما آلت إليه الأحوال من سوء (كما فعل «ايبور» فى شكاياته) ثم بعد أن أخذ يصف فى المقطوعة الثالثة التى تتميز بشعر جميل روعة الموت ومزاياه نراه يقول : «أن الموت يقف اليوم أمام عينى وأرنو إليه كما يرنو المريض إلى شفائه أو كما يسعد الأسير بحريته .

إن الموت يقف اليوم أمام عينى مثله كمثل المطر وقد توقف هطوله ، ومثله كمثل الرجل المحارب وقد عاد إلى بيته أن الموت يقف اليوم أمام عينى .

وله عبيق المر، بل هو كالمظلة يحتمى بها الرجل فى يوم عاصف

إن الموت يقف اليوم أمام عينى

وأرنو إلي كما يرنو الرجل فى الرجوع إلى بيته بعد أن ظل مسجونا مدة طويلة.

أما رأى «الروح» فهو يختلف تماما عن هذا ، فهى تؤكد ألا أمل فى حياة ما بعد الموت ولذلك تنصح الناس أن يقبلوا على نعيم الدنيا ويرتشفوا من ملذاتها فنراها تقول : «دع الهموم جانبا وأسعد نفسك تماما»

هذا الاتجاه الذى يطلب إلى الناس أن يسعدوا بحياتهم الدنيوية قام على أساس فكرة واحدة، وهى أننا لا نستطيع أن نعلم ماذا يحدث بعد الموت، ويبدو أن هذا الاتجاه ملأ على المصرى تفكيره فى ذلك العصر ، إذ كثيرا ما عبرت عنه الأغانى القصيرة التى اعتاد المنشدون إيقاعها على القيثارة فى المناسبات الجنازية . وأقدم هذه الأغانى ترجع إلى نفس العصر الذى ندرسه الآن، أى أنها عصر الأسرة الحادية عشرة، وهذه فقرات منها أخذناها عن ترجمة «ارمان» :

«إن الآلهة (أى الموتى من الملوك) الذين كانوا على قيد الحياة، يرقدون اليوم فى أهراماتهم، وكذلك النبلاء والمرموق إليهم من الناس تضمهم مقابرهم، لقد شيدوا المنازل ، ولكنها أصبحت

أثرا بعد عين. ما الذى أصابها ؟ لقد تهدمت جدرانها واندثرت معالمها ، وأصبحت كأنها لم تكن من قبل. لم يأت أحد من هناك (دنيا الموت) حتى يحدثنا عن أحوالهم أو يقول لنا ماذا يستخدمون فتهدأ قلوبنا ، حتى نصل إليهم فى المكان الذى ذهبوا إليه، فكن مرحا ودع القلب ينسى أنك ستموت يوما . واستجب لرغباتك ما دمت حيا ، وضع الطيب (المر) فوق رأسك ، وتدثر بأفخر الكتان وتطيب بالعطور النادرة التى تتخذها الآلهة، أكثر مما تطيب له نفسك، ولا تدع قلبك يصبح خاملا، استجب لرغباتك ، وقدم لنفسك ما تحبه ، واقدم على عمل كل ما تحتاج إليه فوق الأرض ولا تعذب قلبك حتى يأتى ذلك اليوم الذى تصيح فيه (الندابات) . حقا أن «صاحب القلب الذى لا ينبض (أى ازوريس) لا يستمع إلى صراخهم، كما أن الرثاء لم يخلص أحدا من الندابات السفلى».

ولعل من أهم المظاهر الدينية التى تميزت بها فترة الاضمحلال الأولى ثم انتشرت وعمت مصر فى العصور التالية كان تغلغل عقيدة أزوريس فى البلاد ، وهى العقيدة التى نشأت فى الشمال الشرقى من الدلتا حيث بوزيريس أقدم المدن التى عبد فيها ازوريس الها للإنبات. ويمكننا أن نتتبع انتشار عبادة هذا الإله بالتدريج ابان عصر الدولة القديمة في كل من هيليوبوليس ومنف ولكن لا نلبث أن نرى هذا الإله يستقر فى عاصمته الكبرى فى مصر العليا ، أى فى أبيدوس وذلك ابتداء من أواخر الدولة القديمة، حيث اتحد مع الاله الأصلى لهذه المنطقة والذى كان يهيمن على عالم الموتى، ومن هنا أصبح ازوريس ربا للموتى ثم قاضيا فى الدنيا السفلى وهو الذى يقوم من بين أعضاء محكمة الموتى بالنطق بالحكم . ولصقت هذه الصورة بأزوريس وأصبحت هى الغالبة عليه فيما بعد أي فى عصر الدولة الحديثة، وحدث هذا بعد تطور طويل الأمد كما رأينا .

لقد سبق لنا الحديث عن الهزة العنيفة التى أصابت الناس فى أواخر الدولة القديمة كنتيجة لضعف السلطة الملكية واضمحلالها ، وأن هذه الهزة جعلتهم يفيقون إلى أنفسهم ولا يكترثون مطلقا بالعقيدة التى حتمت على أن يكون الملك الإله هو الوسيط الوحيد بين الآلهة والناس، وكانت النتيجة أن أصبح من حق كل فرد أن يحصل على تلك القرابين التى كان الملوك يهبونها للناس عن طريق الطقوس السحرية . نرى هذا بوضوح فى النصوص التى نعتبرها مشتقة من المتون الخاصة بالملوك (أى متون الأهرام) ثم أصبحت فى هذا العصر وبعد التعديلات التى أدخلت عليها تنقش فوق الجدران الداخلية للتوابيت الخشبية ، ونطلق عليها اسم «نصوص التوابيت» . إلا أن هذه النصوص لم تجعل مصير الفرد العادى من الشعب أن يصعد إلى السماء كما كان الحال مع

الملوك فى عصر الدولة القديمة ، بل جعلت هذا المصير هو الإقامة بعد الموت فى الدنيا السفلى، فى العالم الذى يحكمه إله الموتى وقاضيهم أوريس.

ومما يؤسف له أن تلك الفكرة الناضجة المتطورة الخاصة بعقيدة المصريين فى عالم ما بعد الموت والتى أثارت إعجابنا بالإنتاج الأدبى فى العصر الاهناسى، لم تتطور فى عصر الدولة الوسطى ولا فى عصر الدولة الحديثة . وكان من المتوقع أن تزدهر هذه الفكرة وتكمل ولكن لم نعثر على ما يجعلنا نتتبع هذا التطور. وكنا نتوقع أيضا أن تصبح عقيدة أزوريس ومحكمة الموتى التى تكون أهم أركانها، ذات أثر فعال على الناس فى مصر، ولكن هذا لم يحدث . والسبب فى ذلك أن أزويريس لم يكن الإله البعيد عن الناس والذى يرنو إليه كل فرد كمثل أعلى، يرجع ذلك إلى أن الناس أخذوا بفكرة تطبيق صفات أوزيريس على كل فرد منهم . وهكذا أخذت الفوارق بين البشر والآلهة تزول، واختفت معها الأهداف التى كان الناس يتطلعون إليها وهى التقرب إلى الآلهة عن طريق التقوى والصلاح . وحل محل هذا كله الشعور القوى بأن كل فرد أصبح فى مقدوره أن يكون هو نفسه الاله. هذه المقارنة جلبت معها مظهرا جديدا كان له أكبر الأثر فى حياة المصرى. تقول أساطير الآلهة إن أزوريس المحب للخير قتله أخوه الشرير «ست» ، وحين أعيدت إليه الحياة وتقدم إلى مجمع الآلهة، أخذت الاتهامات تنهال عليه ولكن محكمة الآلهة اقتنعت ببراءته الكاملة وأصبح «صوته» بالنسبة إليهم هو «الحق» ، ومن أجل ذلك نصبوه سيدا وقاضيا على دنيا الموتى.

ومنذ ذلك الوقت أصبح التعبير «صوته هو الحق» ينعت به كل إنسان ويعنى أن «فلانا» برئ من كل خطيئة كالاله أزوريس. يترجم «بالمرحوم» إذ أن المصرى لم يقصد به فى آخر الأمر سوى أن ذلك الإنسان قد توفى. وأعود فأكرر أن تلك الأحاسيس العميقة والناضجة التى وضحت لنا فى الإنتاج الأدبى إبان العصر الأهناسى، قد قضى عليها وانهارت أمام الجمود الذى طغى على عقيدة المصريين كنتيجة لانتشار العقيدة الأوزيرية، وهو أمر نأسف له كل الأسف.

وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى ديانة هيليوبوليس التى جعلت عقيدة «رع» إبان عصر الأسرة الخامسة تهيمن على سواها من العقائد، كما أخذت تزداد انتشارا فى العصر الأهناسى، إلا أنها ارتطمت بصخرة العقيدة الأوزيرية بعد ذلك وأخذت تضمحل . ونلاحظ انتشار أسماء الآلهة التى تحوى اسم «رع» مثل الاله «خنوم- رع» والاله «سوبك- رع» والاله «آمون رع» الذى ذاع صيته

فى العصور اللاحقة، لكن الانتشار لا يعنى شيئا كثيرا بل إننا لا نستطيع مطلقا أن نتبين أى أثر لوجود لون من التوحيد الإلهى للاله رع فى ذلك العصر على الأقل.

وإذا كنا قد بينا أهمية التطور الفكرى الذى حدث فى أواخر الدولة القديمة أى فى عصر الاضمحلال الأول، وذلك بناء على ما وصل إلينا من وثائق تخص الناحيتين الأدبية والدينية، فإننا نستطيع أن نقرر أن الفنون كانت قد اضمحلت تماما ؛ ولا غرابة فى ذلك إذ أن القلاقل والاضطرابات كانت قد بلغت حدا لا يساعد على ازدهارها، بل إن النقوش المحفورة على اللوحات الحجرية المقامة فى المقابر والقطع الأثرية الأخرى التى عثر عليها فيها بلغت حدا من الاضمحلال الفنى يندر أن نجد مثيلا له فى أى عصر آخر. ومن بين القطع الأثرية التى بدأت تظهر فى هذا العصر والتى لها أهمية تاريخية خاصة كانت «الأختام» التى اعتاد الناس استعمالها فى مصر منذ أواخر فجر التاريخ وطوال الدولة القديمة ، حالهم فى ذلك حال أهل بلاد ما بين النهرين، وهى عبارة عن اسطوانة صغيرة على سطحها الخارجى نقوش بارزة يمرون بها على سطح مستو من الطمى رطب فتنطبع عليه تلك النقوش . وليس من شك فى أن هذه الطريقة فى ختم الأشياء كانت مقبولة فى بلد كالعراق القديم والتى لم تسمح بيئته إلا بالطمى الرطب كمادة للكتابة عليه، ولا غرابة مطلقا إذا عرفنا أن هذه الأختام الاسطوانية قد اخترعت هناك وليس فى مصر حيث استعمل الناس أوراق البردى للكتابة فلم يكن هناك ما يدعو إلى استعمال لوحات الطمى فى هذا الغرض، ومن أجل هذا اختفت الأختام الأسطوانية من مصر وحل محلها نوع من الأختام أكثر نفعا وهو المستدير الشكل، ومن ثم اتخذ المصرى شكل الجعل واستخدمه فى هذا الغرض . وهو الذى عرف باسم «الجعران» وأصبح فيما بعد الشكل الوحيد المنتشر بين المصريين. ولعل أقدم الأختام التى على هيئة الجعل ظهرت فى مصر فى عصر الأسرة السادسة، أى فى أواخر الدولة القديمة ثم أخذت طريقها فى الانتشار رويدا رويدا حتى عمت كل المناطق الواقعة فى دائرة نفوذ الحضارة المصرية. ونوع آخر من الأختام المستديرة الشكل تميز بوجود علامات رمزية منقوشة على سطحها بطريقة غريبة تبعدها عن الطابع المصرى. وهذا النوع ظهر فى عصر الاضمحلال إلا أنه اختفى بانتهائه. ولقد اختلفت الآراء فى مصدر هذه العلامات الرمزية غير المصرية الطابع، فالبعض يرجعها إلى تأثير أجنبى أتى من المناطق الواقعة على الشاطئ السورى أو شاطئ آسيا الصغرى، والبعض الآخر يرجعها إلى تأثير كريتى.

أما مراحل الكفاح بين أسرتى أهناسيا وطيبة فالأولى تمثل فى التاريخ المصرى الأسرتين التاسعة والعاشرة. والثانية تمثل أواخر الأسرة الحادية عشرة. ونحن نؤرخ لها من النصوص التى تركها لنا إقليم أسيوط والبرشة فى مصر الوسطى على جدران مقابرهم، وهؤلاء الحكام كانوا منطوين تحت لواء الأسرة الأهناسية ، كما نؤرخ لها من النصوص التى وردت على اللوحات الجنازية التى عثر عليها فى جبانة طيبة. ولعل الطابع الحربى الذى هيمن على هذا العصر يبدو واضحا من النقش الذى سجله أحد أمراء إقليم أسيوط على جدران مقبرته ممثلا فيه فرقة كاملة من الجند تسلحت تسليحا كاملا، ولم يكتف بهذا بل زود مقبرته بنموذج كامل لفرقة من الجند صنعت تماثيل أفرادها من الخشب.

وبهذا نترك الدولة القديمة بحديثنا الموجز عن العصر الأهناسى الذى يمثل آخر عصور هذه الفترة ثم تتجه بحديثنا إلى الذين ظهروا فى طيبة مكونين الأسرة الحادية عشرة ونعتبرهم أول ملوك الدولة الوسطى.

الفصل الرابع

الدولة الوسطى

(من عام ٢٠٥٢ إلى ١٦١٠ ق.م)

الدولة الوسطى

(من عام ٢٠٥٢ إلى ١٦١٠ ق.م)

١- انتصار طيبة وتأسيس الأسرة الحادية عشرة
(من ٢٠٥٢- إلى ١٩٩١ ق.م)

بعد أن انتهت فترة القلاقل والاضطرابات التى مرت فيها مصر منذ أواخر الدولة القديمة وهى الفترة التى تحدثنا عنها فوق الصفحات السابقة، أخذت البلاد تستعيد قوتها وتسارع الخطى نحو الوحدة الكاملة وكان ذلك على أيدى رجال من طيبه ، عاصمة الإقليم الرابع من مصر العليا ، ومن ذلك الوقت أخذت هذه المدينة مكانها على صفحات التاريخ وسلطت عليها الأضواء. ويتكون رمز هذا الاقليم من صولجان تتحلى قمته بريشة تتدلى منها بعض الأشرطة ، واستعمل هذا الرمز أيضا للتدليل على عاصمة الإقليم ونطقه المصريون «ويزى» ، وإذا كنا اليوم نطلق على هذه المدينة اسم «طيبة»، فإن ذلك يرجع إلى طريقة الاغريق فى عصورهم المتأخرة من اطلاق أسماء إغريقية لمناطق مشهورة لديهم على مناطق أخرى أجنبية لا يستطيعون نطق أسمائها ، ولعل الذى دفعهم إلى اختيار هذا الاسم للمدينة بأكملها وجود قرية صغيرة على مقربة منها تحمل هذا الاسم فى العصور المتأخرة . ومن الغريب أن الإغريق لم يستعملوا فى لغتهم الاسم الحقيقى لهذه العاصمة وهو «ويزى» .

هذه العاصمة تقع على شاطئ النيل وقد فازت بنصيب كبير فى ملحمة «هومير» وأطلق عليها اسم «طيبة ذات المائة بوابة» وكان ذلك حوالى عام ٢٠٠٠ق.م ، أقول إن هذه العاصمة لم تكن فى عصر الدولة القديمة سوى أرض زراعية عادية تكتنفها الصحراء حالها كحال الشريط الطويل الممتد من الأراضى الزراعية فى مصر العليا وتتناثر فيها بعض القرى التى لا تتميز بأية أهمية . وكان معبود هذا الإقليم الرئيسى هو «منثو» رله الحروب وهو ذو رأس على هيئة رأس

الباشق وكانت عبادته تتركز فى مدينة «هيرمونتيس» العاصمة القديمة لهذا الاقليم والتى يعنى اسمها «هيليوبوليس منتو» وهى التى نطلق عليها الآن اسم «أرمنت» والواقعة على مسافة ٢٠ كيلو متر إلى الجنوب من مدينة الأقصر الحالية.

ولعل أقدم الآثار التى وصلت إلينا من طيبة هى تلك المقابر القليلة المحفورة فى الصخر الذى تتكون منه التلال العالية الممتدة إلى الغرب من شاطئ النيل، ولقد جرى نقر هذه المقابر على نفس الطراز الذى تميزت به مقابر الدولة القديمة فى فتراتها المتأخرة أما نقوشها فهى بسيطة لا تدل على فن متقدم . وتخص إحدى هذه المقابر أمير من أمراء هذا الإقليم، وهى فى طرازها وأسلوبها الفنى ترجع إلى آخر الأسرة السادسة بل لعلها ترجع إلى عصر الاضمحلال الأول نفسه. وغير هذا فهناك نصوص عديدة خلفها أصحابها الذين ينتمون إلى أسرة واحدة حكمت هذا الإقليم وتسموا جميعا باسم «أنف» ثم أضافوا إلى هذا الاسم اسما آخر من الأسماء الحوريسية ، تماما كما كان يفعل الملوك فى أول العصور التاريخية، ولا شك أنهم أرادوا أن يظهروا أنفسهم ملوكا يسيطرون على البلاد ، وأن كلا منهم هو خليفة «حوريس» ويجلس على عرش البلاد. وإن ذلت هذه الظاهرة على شئ فهى تدل على الطموح الذى كان يساور نفوس أفراد هذه الأسرة ، كما تدل أيضا على مدى ضعف سلطان الملوك الذين كانوا حتى ذلك الوقت يحكمون البلاد فى «منف» ، ولو أننا فى نفس الوقت لا نستطيع أن نجزم بوجود ثورة جامحة قام بها الجنوبيون ضد الشماليين أو وقوع حرب أهلية بينهما أهلكت الحرث والنسل، وليس من شك فى أن هؤلاء كانوا يحاولون بسط سيطرتهم على مصر بأجمعها ، ومن الأدلة على ذلك أننا عثرنا أخيرا على الاسم الحوريسى لأحد أفراد هذه الأسرة وترجمته : «هو الذى أسبغ السعادة على الأرضين» (وهو يقصد الأرضين هنا مصر بأجمعها) .

ظلت أسماء أمراء هذه الأسرة الطيبية التى حكمت المقاطعة ثم من بعدهم أولئك الذين حكموا مصر كملوك للأسرة الحادية عشرة، ظلت تكون مشكلة تاريخية نظرا لعدم استطاعتنا ترتيبها تربيا تاريخيا وذلك لقلة ما عثرنا عليه من نصوص ترجع إلى عصرهم إلا أن الحفائر التى قام بها فى الفترة الأخيرة متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك برئاسة «وينلوك» كشف لنا عن الكثير مما جعل هذا العصر يصبح من العصور الواضحة المعالم. ولقد نشر «وينلوك» كتابه الجامع عن الدولة الوسطى نشأتها وسقوطها ، وهو الكتاب الذى اعتمدت عليه كثيرا فيما يلى من حديث عن هذا العصر وخاصة فى التاريخ لهذه الدولة.

ولعل من المظاهر التى تنم عن طموح أمراء أسرة الأناتفة الطيبية إلى فرض سلطانهم على مصر بأجمعها كانت الطريقة التى اتبعوها فى إقامة مقابرهم ، هذا غير ما بيناه من اتخاذ كل فرد منهم لقبا حوريسيا . فقد اختلفت مقابرهم اختلافا كليا عن مقابر زملائهم من أمراء الأقاليم الأخرى التى اعتادوا نقرها فى الصخر . إذ حفروا مقابرهم فى الأرض الجدبة المملوءة بالحصى والواقعة إلى الشرق من التلال الصخرية التى تمتد غربى النيل فى طيبة، وتميزت المقبرة بصالة عرضية ، جانبها الشرقى المطل على الفناء الخارجى يتكون من فتحات متعددة، هى فى الواقع بمثابة مداخل ، ولو أنها تشبه فى شكلها العام المنافذ ، ولعل طرازها هذا هو الذى دفع أهل هذه المنطقة اليوم إلى تسميتها «الصف» ومن الواضح أن هذا النوع من المقابر يعتبر فى طرازه تجديدا قام به أهل طيبة، إذ لم نعثر على مثيل له فى أية جبانة من جبانات الدولة القديمة حين كانت العاصمة هى «منف» .

ونظرا لأن أمراء هذه الأسرة قد تسموا جميعا باسم «انتف» أو «منتوحوتب» (الاله منتو راض) ولكى نتجنب الخلط بين الأسماء المتشابهة ، رأينا أن نستعمل الاسم الحوريسى لكل منهم. ونحن نعرف عن جدهم الذى تذكره المراجع «أنتف الرابع» والذى اسمه الحوريسى هو «راح- عنخ» ، أنه بدأ الكفاح ضد الأهناسيين وبعد أن نجح فى السيطرة على الإقليم الثامن استمر فى تحركه نحو الشمال حتى وصل إلى الإقليم العاشر . وهناك أهمية كبرى لسيطرته على الاقليم الثامن من الناحية التاريخية ومن الناحية الدينية إذ تقع فيه المدينة الغارقة فى القدم أى «ثينه» كما تقع فيه أبيدوس التى أصبحت المركز الأول لعبادة ازوريس . ويعتقد «وينلوك» أن مدة حكم «واح - عنخ» التى استمرت خمسين عاما - كما تذكر بعض النصوص - قد بدأت عام ٢١٣٠ وانتهت عام ٢٠٨١ ق.م . ويجدر بنا أن نؤكد أن حكام الأسرة الأهناسية لم يجعلوا الطريق أمام منافسيهم - وهم حكام طيبة الطموحون- مفروشا بالزهور ، إذ أذاقوهم الأمرين قبل أن يصلوا إلى السيطرة على مصر المتحدة. ونحن نعرف من النص المعروف باسم التعاليم الموجهة إلى الملك «مرى- كار - رع» أن مؤلفه وهو الملك «خيتى الثالث» أحد ملوك الأسرة الأهناسية (حوالى ٢٠٦٥م) قد استعاد السيطرة على إقليم «ثينة» وتمكن من الاحتفاظ به لأعوام . ولعل هذا هو السبب الذى جعل هذه التعاليم تذكر الأحوال السياسية فى مصر العليا على أنها هادئة ولم تصبغها بصبغة الخطورة. وفى الواقع جانب الصواب مؤلف هذه التعاليم، إذ أن الهجوم الساحق الذى شنه الطيبيون ضد الدولة الأهناسية وقع فى فترة لا تتعدى بضع سنوات ، وكان أشد هجوم

عليهم بدليل أن دولتهم قد دالت تماما وكان ذلك على يد «منتوحوتب» حوالى عام ٢٠٥٢ ق.م حسب تاريخ «ويتلوك» . وعلى كل حال يحق لنا أن نعتبر قيام الأسرة الحادية عشرة الطيبية منذ ذلك الوقت وأن نفرد لها مكانا بين الأسرات الشرعية التي حكمت مصر ، بل لقد بدأت بها «الدولة الوسطى» . ويبدو منذ هذه الفترة أن ظلام التاريخ سينكشف عنه الستار وستتضح لنا الأحداث فى شئ من اليسر والسهولة .

لقد سبق لنا الحديث عن التوقيت المصرى وأهمية الاعتماد على ظهور النجم «الشعرى اليمانية» فى ترجمة التاريخ المصرى القديم إلى التاريخ الذى نتبعه نحن فى عصرنا هذا . ولقد عثر «بورخاردت» فى أوائل هذا القرن على تاريخ ظهور النجم «الشعرى اليمانية» فى السنة السابعة من حكم الملك «سنوسرت الثالث» أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة ، كتب هذا التاريخ فى ورقة اللاهون البردية ويعتبر من أهم الوثائق لتحديد فترات هذا العصر، ونظرا لأن سنى حكم كل ملك من ملوك هذه الأسرة بالذات قد عرفناه على وجه التحديد من ورقة تورين البردية ، فقد أصبح من السهل علينا أن نصل إلى السنة التى بدأ فيها الملك «امنمحيت الأول» أول ملوك هذه الأسرة ، حكمه للبلاد. وتمكن «وينلوك» بتعديل طفيف لا يعدو سنتين أن يحدد هذا العام على وجه قاطع بعام ١٩٩١ ق.م .

ومما يؤسف له حقا أن يكون هذا التاريخ الذى ورد فى بردية «اللاهون» هو أقدم التواريخ من هذا النوع ولعله سيظل هكذا . وهو يقع فى منتصف إحدى دورات النجم «الشعري اليمانية» أى أنه حدث فى وقت كان الفرق فيه بين غرة العام الجديد حسب التوقيت المصرى وبين ظهور النجم فى الصباح أى أول العام حسب التوقيت الفلكى الصحيح، كان هذا الفرق يقرب من نصف عام، وليس من شك فى أن هذا الفرق كان قد أصاب التوقيت المصرى بكثير من الاختلافات وسبب الكثير من الاضطراب فى النظام أيضا ، ولعل هذا هو الذى دفع الناس إلى الاعتماد على ظهور النجم وأبلغوا المعابد فى كل البلاد بهذا التاريخ . ولم تكن البردية إلا إحدى هذه التبليغات فأصبحت بالنسبة إلينا من أهم الوثائق التى سجلت لنا تاريخ ظهور هذا النجم وساعدتنا على وضع هذه الفترة فى موضعها الحقيقى بالنسبة إلى التاريخ الحديث. ولعل الناس فى عصر الدولة القديمة لم يشعروا بالحاجة إلى الاستعانة بمثل هذه الظواهر الفلكية لأن غرة العام الجديد سواء للسنة الشعبية أو للسنة الفلكية كانت تقع فى أيام متقاربة واستمر هذا طوال قرون عديدة.

وتمكن «وينلوك» أيضا ، معتمدا على نقطة ارتكاز هذه من ناحية وعلى ما ورد فى بردية تورين من ذكر لسنى جكم كل ملك من ناحية أخرى، من أن يحدد لملوك الأسرة الحادية عشرة مدة ١٤٣ عاما وبذلك تكون هذه الأسرة قد بدأت عام ٢١٣٤ ق.م . هذا مع العلم أن الأمراء الذين سموا باسم «انتف» قد شملهم فى حسابه هذا . ولقد سقطت دولة الأهناسيين عام ٢٠٥٢ ق.م كما سبق القول وذلك على أيدى الملك «منتوحوتب» واسم العرش الخاص به هو «نب - حبت - رع» ويعتقد «وينلوك» أن الكفاح استمر فترة تسع سنوات من عصره ثم توطدت له الأمور فحكم مدة ٤٢ عاما (وذكرت النصوص أنه حكم مدة ٥١ سنة) . وبذلك اختفت الأسرة العاشرة أي دالت دولة الأهناسيين دون أن تخلف وراءها أى أثر يدل على حكمها . أما الملك «منتوحوتب» فقد رأى فيه المصريون البطل الذى أعاد وحدة البلاد فقدسه مصريو الدولة الحديثة ، ولا غرابة فى ذلك لأنهم اعتبروه المؤسس الأول لدولة طيبة كما اعتبروه الها من آلهة الجبانة ويدل على ذلك رسومه التى وردت على جدران كثير من مقابر الدولة الحديثة فى جبانة طيبة .

وكما كان الحال فى ذكر أسماء أمراء الأناتفة ، فعلينا بالنسبة إلى المناتحة (الذين سموا باسم منتوحوتب) ألا نذكرهم بهذا الاسم ، بل الأفضل أن نذكر اسم العرش لكل منهم، وذلك لأن أولهم أخذ بالعادة القديمة وهى أن يتلقب كل ملك بخمسة ألقاب ، وإذا كان منتوحوتب، الذى قضى على دولة الأهناسيين ، تارة يذكر على أنه الثانى، وتارة على أنه الثالث ، فيرجع ذلك لأنه تلقب بلقبين للعرش أو قل لأن لقبه يمكن قراءته بالهيروغليفية على أساس نطقين مختلفين، ولو أننا فى نفس الوقت نكاد نجزم بأن هذين اللقبين هما لملك واحد.

والأثر الوحيد الذى خلفه لنا ملوك الأسرة الحادية عشرة ، هو المقبرة الضخمة التى شيدها «منتوحوتب» السالف الذكر فى منطقة الدير البحرى الواقعة فى الجزء الشمالى من الشاطئ الغربى لطيبة. وإذا كنا قد وصفنا مقابر الأناتفة بأنها تمثل طرازا جديدا فى العمارة الجنازية ، فإننا هنا نعتبر طراز هذه المقبرة الملكية تطورا هائلا لهذا الأسلوب المعمارى الجديد، ويبدو أن إعادة وحدة مصر كاملة تحت سيطرة ملك واحد، كان الدافع الأول لملوك طيبة الجدد أن يجعلوا مقر دفنهم فى أسفل هرم ضخم، كما كان الحال مع ملوك الدولة القديمة الذين حكموا مصر من منف . إلا أن المصرى فى ذلك الوقت شعر بأن إقامة هرم كبير يشيد من الحجر يحتاج إلى أرض سهلة واسعة ، ولكن من الصعب إقامته فى طبيعة جبلية ترتفع حتى تصل قمتها إلى ٥٠٠ متر، ليس من شك فى أن المصرى أحس أن هذه البيئة المرتفعة الضخمة لا تستطيع قوى البشرية أن تنافسها فى اقامة

هرم كبير من الحجر بين جنباتها، ولذلك اهتدى مهندسو الملك منتوحوتب إلى فكرة عجيبة وهى بناء معبد كبير مكون من طابقين فى الوادى المحصور بين صخور التلال فى هذه المنطقة، وأحاطوا المعبد بصفوف عديدة من الأعمدة ثم أقاموا فوق هذا كله الهرم المشيد من الحجر الجيرى. وللأسف لم يبق لنا من هذا الهرم سوى قاعدته . وليس فى استطاعتنا إلا أن نتخيل الشكل الأصلى في رسومات هندسية تقوم على حسابات دقيقة. غير هذا فإن أجزاء المعبد نفسه قد وصلت إلينا فى حالة من التهدم اختفت معها الكثير من أقسامه ، إلا أن هناك أجزاء كبيرة من الأحجار المهشمة بعضها موجود فى المنطقة نفسها والبعض الآخر تسرب إلى المجموعات الخاصة فى العالم وهى لا تزال تحمل على سطوحها نقوشا ومناظر عديدة ، تكفى للتدليل على أن الأسرة الحادية عشرة كانت تمتاز بفن خاص فى نقوشها يقوم أسلوبه على إظهار جسم الإنسان نحيلا رفيعا تنقصه علامات التعبير سواء فى ملامح الوجه أو فى عضلات الجسم. كما اختلفت مناظر الأسرة الحادية عشرة عن مثيلاتها من الدولة القديمة ، بأنها أظهرت الملك مختلطا بسيدات البلاط فى المناسبات الرسمية، بل لقد سمح الملك بأن تقام لست من زوجاته غير الشرعيات حجرات دفن داخل المعبد الجنازى الخاص به ، ولقد اعتبرت التقاليد المصرية اظهار الزوجات غير الشرعيات للملك أمرا مكروها نبذته طوال التاريخ المصرى، اللهم إلا ابان عصر العمارنة حين أمر الملك اخناتون بتصويرهن معه . وغير هذا فقد وجد كثير من القطع الحجرية التى تحمل أجزاء من مناظر تمثل معارك حربية، وهى لا شك تسجل تلك الانتصارات التى فاز بها الطيبيون فى كفاحهم مع مصريى الشمال. ومن الطريف أن نلاحظ فى هذه المناظر ما يجعلنا نجزم بأن المعارك لم تكن بين مصريى الجنوب ومصريى الشمال، بل هناك فرق أجنبية (من النوبيين والليبيين) كانت تقاتل مع كل من الجانبين .

ولعل من أهم الأسباب التى جعلتنا نتأرجح بين الجزم بأن المعبد الملكى الكبير الذى شيده أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة فى منطقة الدير البحرى، هو لملك واحد وليس لملكين وأنه أعد لدفن جثة ملك واحد، وجود حجرتين للدفن ، ومع أن كلتيهما قد وقعت فريسة للنهب والسلب إلا أن إحدى هاتين الحجرتين تبدو بوضوح أنها أعدت لتحوى رفات ملك، وهى الحجرة الواقعة إلى الغرب من الهرم ونصل إليها بطريق منحدر منقور فى الصخر الطبيعى للجبل . أما الحجرة الثانية فهى التى نقرت فى أسفل الهرم والتى نصل إليها من فتحة تقع فى الصالة ذات الأعمدة والمحيطة بالهرم. وهذه الحجرة هى التى يطلق عليها الآن أهل هذه المنطقة اسم «باب الحصان» . وعثر فيها على تمثال للملك منتوحوتب قد لف بعناية فى ملاءات من الكتان ، وهو يمثل الملك متحليا

بالرداء الأبيض الذى يلبسه الملوك فى مناسبة الاحتفال بالعيد الثلاثينى. وهذا التمثال محفوظ الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة . ولقد عثر على تماثيل أخرى مماثلة لهذا فى الفناء الواسع الذى يتقدم المعبد، وهى لا تزال قائمة فى مكانها، ولو أنها تقل كثيراً عن التمثال السالف الذكر فى احتفاظها برونقها ، بل هى كلها مهشمة وينقصها كثير من أجزاء الجسم. وهذه التماثيل تدل على أسلوب جديد فى فن النحت أخذ يظهر فى عصر الأسرة الحادية عشرة، وهذا الأسلوب إن دل على شئ فهو يدل على أن الفنان كانت تنقصه التجربة والمران، وأن الظروف لم تساعده على أن يقوم بنحت تماثيل ملكية قبل هذا الوقت . وعلى كل حال يجب أن نضيف أن الإنسان يشعر أمام هذه التماثيل غير المتقنة الصنع بنفس الشعور الذى يحس به بالنسبة إلى فن النقش فى هذه الفترة. بمعنى أن فنى النحت والنقش هما باكورة فن جديد أخذ يتطور ونضج إبان عصر الدولة الوسطى.

لم يصلنا من عصر الأسرة الحادية عشرة غير هذا المعبد وآثار قليلة يوجد معظمها فى المناطق الجنوبية من مصر العليا ، بينما تقل أو تكاد تنعدم كلما اتجهنا شمالا وقربنا من منطقة نفوذ منف عاصمة الدولة القديمة، ومن الطريق أن نذكر أن هذه العاصمة لم تكن تحمل بعد الاسم المشهور لدينا «منف» وهو المشتق من الاسم الذى كان يطلق على هرم «ببيى الأول» بل كانت تسمى «دجد سوت» (المقر الدائم) وهو الاسم الذى كان يطلق على هرم الملك «تيتى» مؤسس الأسرة السادسة. ويتكرر ذكر اسم العاصمة هذا فى كثير من وثائق عصر الاضمحلال الأول والأسرة الحادية عشرة وخاصة فى المراسلات التى كتبها المدعو «حكانخت» أحد كبار الموظفين الطيبيين الذى عاش فى عصر الأسرة الحادية عشرة، وهى تعتبر من الوثائق الهامة لأنها تعرضت للوسائل المختلفة التى اتبعت فى ذلك الوقت لإحلال الأمن والسلام بين أجزاء مصر شمالا وجنوبا .

وهناك نقشان فى المتحف المصرى بالقاهرة عثر عليهما فى منطقة الجبلين (على مسافة ٢٨ كيلو متراً إلى الجنوب من طيبة) وهما يسجلان انتصارات الملك منتوحوتب على الطريقة البدائية التى عرفناها فى النقوش القديمة بشبه جزيرة سينا . ونحن نرى الملك فى أحد هذين النقشين يقوم بمعاقبة عدوه الممثل فى شخصية رجل ليبى وهو يهوى على رأسه بصولجانه . أما النقش الثانى فهو يمثل نفس المنظر ولكن الملك يعاقب بعض الأعداء المختلفى الأجناس ومنهم المصرى والنوبى والآسيوى والليبى. وفى هذين المنظرين نكاد نتحسس الطموح القوى الذى ظهر فى هذه الأسرة الملكية والذى كان يهدف إلى سيادة العالم . ولو أن الملك فى كل من المنظرين السالفى الذكر كان يكتفى بالظهور بالتاج الأبيض فقط وهو رمز السيادة على مصر العليا .

لقد قام «وينلوك» من جديد بنقل النقوش والمناظر المرسومة على سطوح الصخور الموجودة فى الوادى الصحراوى المعروف باسم «شط الرجال» وهو الذى يقع على مقربة من جبل السلسلة وإلى الشمال منه وذلك فى الجزء الجنوبى من مصر العليا ، ونشر هذه النقوش والمناظر فى كتاب له صدر حديثا. ومن بين هذه المناظر ما يمثل الملك «منتوحوتب» موحد القطرين واقفا وبجانبه أمه وأحد الأمراء ويستقبله عدد من كبار الموظفين . ولقد كثرت التفسيرات لهذا المنظر ، إلا أن التفسير الجديد الذى أدلى به «وينلوك» يعتبر أكثرها وضوحا ، وهو أن هذه المنطقة بالذات هى التى كانت ولا تزال حتى الآن أكثر المناطق المناسبة لمقابلة الوافدين من الجنوب والمخترقين للطريق البرى الذى يمتد فى الصحراء لتفادى العراقيل الطبيعية التى تمنع الملاحة عند أسوان وذلك لقرب هذا المكان من النيل، وعلى هذا الأساس يكون الملك قد تفضل وذهب بنفسه إلى هذا المكان ليرحب ببعض عظماء الدولة بعد رجوعهم من بعثة توجهت إلى بلاد النوبة، ولابد أن هذا المكان كان يمثل أقصى الحدود الجنوبية التى يستطيع الملك أن يذهب إليه للقيام بهذا الترحيب .

لقد قلنا فيما سبق أن الملك «نب - حبت - رع» (منتوحوتب) قد حكم البلاد ٥١ سنة ثم خلفه ابنه «سعنخ- كا - رع» (منتوحوتب) واستمر حكمه ١٢ سنة (من ٢٠١٠ إلى ١٩٩٨). ويبدو أن سيطرة الطيبيين كانت قد توطدت فى فى كل مناطق مصر إبان النصف الثانى من حكم «نب حبت رع» وفى فترة حكم ابنه السالف الذكر. وعلى كل حال لم نعثر على أى نص يتحدث عن نشاط حربى حدث فى هذا الوقت فى مصر أو خارج مصر. ونظرا لأننا لم نعثر بعد على مقبرة الملك منتوحوتب «سعنخ كارع» ، فإنه من المتعذر أن نتكهن بأحداث الفترة التالية. لقد أراد البعض أن ينسب إليه ذلك المسطح الكبير والطريق الصاعد إليه على أنه المكان الذى كان يزمع تشييد مقبرته الضخمة عليه ولكن هذه المقبرة التى تقع إلى الجنوب من مقبرة الملك، «نب حبت رع» لم تتعد طور الإعداد فقط ولم تنفذ مطلقا. ويجدر بنا أن نذكر هنا أن رجالات البلاط فى عصر الأسرة الحادية عشرة حذوا حذو أجدادهم الذين عاصروا ملوك الدولة القديمة وذلك فى تجمعهم فى مقابرهم حول مقبرة الملك. وإذا كانت مقابر أشراف الدولة القديمة قد شيدت على هيئة مساطب ضخمة حول هرم الملك. فقد كانت مقابر أشراف هذا العصر عبارة عن حجرات متسعة منقورة فى التلال الصخرية التى تحيط بمقبرة ملكهم «منتوحوتب» بمنطقة الدير البحرى بل إن مقبرة «سنعخ كارع» التى لم تتعد طور الاعداد ، كان تصميمها على أساس أن تحيط بها مقابر رجالات الدولة. وفى الواقع عثر على مقبرة هامة من عصر الملك «سنعخ كارع» وهى مقبرة «مكتى رع» وترجع

أهميتها إلى تلك المجموعة الكبيرة من النماذج الخشبية الملونة التى تمثل الحياة اليومية والنشاط الذى كان يجرى فى المنزل أو فوق النهر.

ومن الطريف أن ننسب إلى هذا العصر ظهور تلك النصوص السحرية «نصوص اللعنة» وهى لا شك وليدة تلك المشاعر المصرية نحو السحر. فإذا أراد المصرى إيذاء آخر، لجفوة أو لعداء دفين بينهما، فإنه كان يكتب اسم عدوه على إناء من فخار ومع هذا الاسم يكتب أيضا نصا من «نصوص اللعنة» يتفق مع الضرر الذى يرغب أن يلحقه به ثم يهشم هذا الاناء فى مكان له قدسيته وغالبا ما يكون أمام المقبرة ، وهكذا تقع اللعنة على صاحب الاسم ويلحق به الضرر الذى يشير إليه النص. ولقد وصلت إلينا عن طريق تجار العاديات فى طيبة مجموعة كبيرة من القطع الفخارية الناتجة عن الأوانى المهشمة السالفة الذكر وعليها أجزاء عديدة من النصوص السحرية كتبت كلها بالخط الهيراطيقى الخاص بأوائل الدولة الوسطى، وتمكن العلامة «زيته» بعد أن بذل جهودا طويلة من أن يسجل نصوصا كاملة. ومن الملاحظ أن اللغة غالبا ما تكون موجهة إلى أعداء الأمة أى إلى أفراد من الشعوب المتاخمة لمصر، وهو أمر يتفق مع مشاعر المصريين فى ذلك الوقت ، ولكن لم يخل الأمر من ذكر بعض أسماء مصرية وجهت إليها اللعنة أيضا ومن بين هذه الأسماء «أمنمحيت وسنوسرت» وهما الاسمان اللذان سوف نقابلهما فى عصر الأسرة الثانية عشرة التى تسمى بهما أغلب ملوك هذه الأسرة وإذا أضفنا إلى هذه الظاهرة ما ورد على ورقة تورين البردية من أن مصر وقعت فريسة للاضطرابات لمدة سبع سنوات فى آخر الأسرة الحادية عشرة، أمكننا أن نرجع سقوط هذه الأسرة إلى ثورات وانقسامات حدثت بين المصريين. وهناك ملك آخر اسمه «منتوحوتب» اتخذ لنفسه اسما للعرش هو «نب تاوى رع» . هذا الملك وردت لنا من عصره عدة نصوص ، يبدو منها أنه لا ينتمى إلى أسرة المناتحة التى حققت الوحدة، وكان وزيره رجلا يدعى «امنمحيت» من أبناء طيبة الذين تدرجوا فى المناصب المختلفة، ويغلب على الظن أنه خلع «نب تاوى رع» واغتصب العرش لنفسه ، وبذلك أصبح مؤسس الأسرة الثانية عشرة . ولا زالت الحقائق التاريخية الخاصة بانتقال الحكم من ملوك الأسرة الحادية عشرة إلى أولئك الذين أسسوا الأسرة الثانية عشرة غامضة . ومن الغريب أن ذلك الملك الذى انتهت به الأسرة الحادية عشرة والذى عثرنا على نص يسجل له ألقابه الملكية الخمسة الكاملة، لم تذكره إحدى القوائم الملكية الرسمية.

وهناك نص ورد على بردية محفوظة الآن بمتحف «بيترسبورج» ، نعتقد أنه يفسر لنا طرفا من الأحداث التى سببت سقوط الأسرة الحادية عشرة . هذا النص يشبه فى موضوعه ما ورد على

لسان الحكيم «ايبو- ور» فهو يصف من ناحية انهيار الأوضاع الاجتماعية فى مصر، كما يشيد من ناحية أخرى بمناقب أمنمحيت الأول، الذى تم على يديه خلاص مصر من كبوتها . ولقد ذكرت أنه من الجنوب وأنه ابن لسيدة نوبية .

وهناك نص ورد على بردية محفوظة الآن بمتحف «بيترسبورج» ، نعتقد أنه يفسر لنا طرفا من الأحداث التى سببت سقوط الأسرة الحادية عشرة . هذا النص يشبه فى موضوعه ما ورد على لسان الحكيم «ايبو -ور» فهو يصف من ناحية انهيار الأوضاع الاجتماعية فى مصر ، كما يشيد من ناحية أخرى بمناقب امنمحيت الأول، الذى تم على يديه خلاص مصر من كبوتها . ولقد ذكرت الوثيقة اسمه «أمينى» (وهو كثيرا ما يرد كتصغير للاسم الكامل أمنمحيت) كما ذكرت أنه من الجنوب وأنه ابن لسيدة نوبية . هذا النص ورد على شكل تنبؤ على لسان رجل اسمه «نفر ريحو» وهو من الحكماء القدامى الذين عاصروا الملك سنفرو (من الأسرة الرابعة) . وإذا كنا لم نستطع حتى الآن إثبات نسبة امنمحيت الأول إلى أصل نوبى فإن من الواضح تماما أن هذه الوثيقة تتعلق بالتغيير الذى سبب سقوط الأسرة الحادية عشرة وارتقاء امنمحيت الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة عرش مصر . وفيما يلى سنتحدث عن الأسرة الجديدة التى لعبت دورا كبيرا فى التاريخ المصرى والتى نعتبرها بمثابة العصر الذهبى للدولة الوسطى.

٢- الأسرة الثانية عشرة

من (١٩٩١ إلى ١٧٧٨ ق.م)

بارتقاء امنمحيت الأول عرش مصر بدأت أسرة جديدة استمرت تقبض على ناصية الحكم فترة قرنين وثلاثة عشر عاما. وكما كان اسم العرش لآخر ملوك الأسرة الحادية عشرة المتمتعين باستقلالهم الكامل هو «سعنخ - كا - رع» (أى الذى يبقى «كا» الاله «رع» حية) اتخذ مؤسس الأسرة الجديدة لنفسه اسما شبيها للعرش هو «سحتب ايب رع» (أى «الذى يجعل قلب الاله رع سعيد») والأسرة الثانية عشرة تعتبر الأولى بين أسرات التاريخ الفرعونى التى توصلنا إلى إقامة توقيت لها تجزم بصحته، ويرجع ذلك إلى عثورنا على النص المشهور الذى يذكر ظهور نجم الشعرى اليمانية فى السنة السابعة من حكم الملك سنوسرت الثالث، واستطاع علماء الفلك تحديد هذا العام تحديدا دقيقا بالنسبة إلى توقيتنا الحديث، ويضاف إلى ذلك أن بردية تورين قد ذكرت سنى حكم كل ملك من ملوك هذه الأسرة بالسنة والشهر واليوم . ولقد استن «امنحيت الأول» سنة جديدة ما لبث خلفاؤه أن حذوا حذوها وذلك لكى يثبت أقدام حكمه فى البلاد ، وهذه السنة أنه عين ابنه شريكا له فى الحكم فى العام العشرين من سنى حكمه أى قبل وفاته بمدة قصيرة . ويبدو أن الأزمات التى كانت تعترض تعيين خليفة للملك عند موته ، وهى الأزمات التى لابد أن تعرضت لها البلاد فى أواخر عصر الأسرة الحادية عشرة والتى تعرضنا لها على الصفحات السابقة، كانت هى الدافع لابتداع هذه السنة الجديدة ، ولعل من الأمثلة الواضحة التى تضرب لذلك ما ورد فى مقدمة قصة «سنوهى» (وهى من القطع الأدبية المشهورة من عصر الأسرة الثانية عشرة) من أنه ما كاد خبر وفاة «امنمحيت الأول» يصل إلى ابنه وشريكه فى الحكم «سنوسرت الأول» الذى كان على رأس حملة عسكرية فى ليبيا، حتى سارع إلى العاصمة تاركا جيشه ، وذلك لكيلا يفوت على نفسه الفرصة وليكون فى موطن الخطر إذا ما عن لأحد أن يطمع فى العرش . ولعل هذا هو السبب فى أن ملوك هذه الأسرة قد تمتعوا بفترات حكم نعجب لطولها فمثلا سنوسرت الأول حكم ٤٥ سنة وحكم امنحيت الثالث ٤٨ سنة.

وحرص ملوك الأسرة الثانية عشرة أن يتسمى كل منهم بالاسم الشخصى «امنحيت» والتالى له يتسمى باسم «سنوسرت» والاسم الشخصى للفراعنة هو الذى يتلو اللقب الخامس من ألقابه

الرسمية أى «ابن رع» (امنمحيت» يعنى «أمون فى المقدمة» و «سنوسرت» يعنى «رجل (الالهة) أوسرت») وورد ذكر هذين الاسمين ابان عصر الأسرة الحادية عشرة . ومن المعروف أن اسم الاله الرئيسى «منتو» الذى عبد أولا فى طيبة ، قد ورد فى أسماء ملوك الأسرة الحادية عشرة الذين تسموا باسم «منتوحوتب» ، فى حين أن امنمحيت الأول، واسمه يحوى اسم الاله آمون ، قد جعل من هذا الاله المعبود الأول فى مصر ، ومن الطريف أن نعلم أن هذا الاله لم يلعب أى دور فى مقاطعة طيبة قبل عصر الأسرة الثانية عشرة، وتمكن «زيته» بعد دراسات طويلة أن يثبت أن المواطن الأول لهذا الاله كان مدينة الأشمونيين فى مصر الوسطى ، ثم نقله ملوك الأسرة الثانية عشرة إلى طيبة ومن ثم أخذت شهرته تنتشر حتى طغى على جميع الآلهة المصرية.

أما اسم الملك «سنوسرت» وهو الذى كنا نقرأه خطأ «أوسرتسن» وأحيانا «وسرتاسن» ، فهو الاسم الذى نطقه الاغريق «سيزوستريس» والذى أصبح على مر السنين من الأسماء المؤلهة التى تطلق على أحد أبطال التاريخ من الفاتحين الغزاة، نسج الناس حوله كثيرا من القصص الذى حوى من أعمال البطولة ما جعل ملوك الدولة الحديثة يترنمون بها ويجعلونها نبراسا لهم . وحاول «زيته» منذ زمن طويل أن يتتبع العوامل التى جعلت الاغريق ينسبون أعمال البطولة والغزو للملك «سيزوستريس» وأن يرجعها إلى أصولها فى النصوص التى وصلت إلينا من عصرى سنوسرت الأول وسنوسرت الثالث. ووجد أن عنصرى الخيال والمبالغة قد هيمنا على القصص الاغريقى وأنهما تزيدان بشكل واضح على ما وصل إلينا من أعمال هذين الملكين فى النصوص المصرية.

ونعرف من المعلومات التاريخية التى بين يدينا الآن، أن الحملات الحربية التى حدثت فى عصر الأسرة الثانية عشرة كانت قليلة وطغت عليها الأحداث السياسية الداخلية . إذ وجه الملوك كل جهودهم نحو تثبيت أقدام الحكم بعد الاضطرابات التى سادت مصر إبان فترة الاضمحلال الأول ، وكان هدفهم باستمرار القضاء على حكام الأقاليم وسحب السلطات منهم بعد أن عاشوا متمتعين باستقلالهم الذاتى، وتتضح هذه السياسة من الكلمات التى قالها أمنمحيت الأول فى معرض الإشادة بنجاحه : «لقد دانت لى (اليفانتين) جزيرة الفيلة ثم تقدمت شمالا حتى تغلغلت فى الدلتا، ومن ثم وصلت إلى حدود البلاد ووقفت هناك أتفقد معالمها . لقد اعتمدت على قواى ومددت نفوذى إلى كل مكان، وكانت كلمتى تطاع على الفور» . ونحن نلمس المعانى التى تحملها هذه الكلمات المليئة بالفخر ونرى مدى الفارق بينها وبين ما سجلته لنا نصوص الدولة القديمة التى تتحدث عن ملوكها . حقا لقد بقى الملك متمتعا بلقبه «ابن اله الشمس رع» ،

ولكن مقامه الدينى تغير وزالت عنه تلك الصفة التى تجعل شخصيته الفردية . وقد اعتبر الملك فى عصر الدولة القديمة فى مصاف الآلهة ومنزلته عالية لا يدانيها أى إنسان . أما ملوك الدولة الوسطى فقد اعتبروا زعماء من دم ولحم كبقية الناس، ومهمتهم أن يديروا دفة الحكم فى البلاد ، حقيقة أنهم من الناحية الدينية كانوا مرتبطين بالآلهة خاضعين لوحيهم ، إلا أنهم فى نفس الوقت كانوا بشرا كغيرهم من المصريين. ولعل الصدفة وحدها لم تكن السبب فى عدم عثورنا حتى الآن على أى نقش لأحد من ملوك الدولة الوسطى يرضع من ثدى الهه. وإذا كنا نقرأ فى مستهل قصة «سنوهى» التى سبق الحديث عنها، بأن امنمحيت الأول بعد موته : «صعد الإله إلى الأفق وذهب إلى السماء واتحد مع الشمس» (ويقصد بذلك أن جسم الملك المتوفى ينضم إلى اله الشمس الذى خلقه)، فنحن لا نسمع أكثر من هذا عن حياة الملك واستمرارها فى السماء بعد أن أصبح إلهًا . لا شك أن هذه الفقرة التى وردت فى قصة سنوهى تكاد توحى بأن المصرى اعتقد أن الملك الميت يصعد كاله إلى عالم الآلهة ، وبذلك نلمس الفارق الكبير بين هذه العقيدة وما كان سائدا فى الدولة القديمة، حين كان الملك المتوفى بمجرد وصوله إلى السماء تندمج فيه الآلهة بعد أن «يلتهمها» ودليلنا على ذلك ما ورد فى تلك المتون المعروفة باسم متون «أكلة لحوم البشر».

ولعل الشخصية الفردية للملك فى عصر الدولة الوسطى وصبغتها بالصبغة البشرية لم تتضح لنا بمثل ما اتضحت فى تلك الوثيقة الأدبية التى وصلت إلينا من نفس العصر وهى المعروفة باسم «تعاليم الملك امنمحيت»، ولقد وصلنا أخيرا إلى تفهم معانيها ونكاد نؤكد الآن أنها كتبت بعد نجاح المؤامرة التى غالبا ما تكون قد تسببت فى موت الملك امنمحيت ، وكان الهدف من كتابتها أن تحذر من مثل هذه المؤامرات ابن الملك الذى كان مشتركا مع أبيه فى الحكم والذى أصبح بعد موت أبيه هو الملك أى «سنوسرت» ، فهذه الوثيقة كانت بمثابة مناورة سياسية يستند إليها سنوسرت الأول (من ١٩٧١ إلى ١٩٣٠ ق.م) فى حكمه للبلاد، والواقع أنها لم تنبثق من شخصية الملك نفسه بل اعتمد على تأثيرها فى الناس على أنها وردت على لسان الملك المسن، وورد فيها على سبيل المثال (ونحن نعتمد هنا على ترجمة «ارمان») :

«أنت يا من تشبه الاله المشرق ، استمع لما أقوله لك حتى تكون ملكا يحكم البلاد ويهيمن على الشاطئ ، ولكى تصل بأعمالك إلى أحسن مما تنتظر ، احترس من أفراد شعبك ولا تقربهم ولا تكن معهم منفردا . ولا تأتمن أخا لك ولا تتعرف على صديق ، ولا تثق بأحد . وإذا نمت فاجعل من قلبك حارسا عليك لأنه إذا أتى اليوم المشئوم فلن يجد الشخص تابعا له . . ».

ولعل الملك المسن كان على حق لإظهار كل هذا التشاؤم ، لأنه بعد ذلك يأتى بوصف ما حدث له عندما هاجمه المتآمرون أثناء الليل ولابد أن تكون هذه المؤامرة قد انتهت بقتله . ونحن لا نشك فى أن التشاؤم الشديد الذى ملأ هذه الوثيقة الأدبية كان من وحى الأحداث التى عمت مصر أثناء فترة الاضمحلال الأول والتى سبق الحديث عنها كما أننا لا نشك فى أن التغييرات الشاملة التى أصابت الملكية فى مصر كانت السبب المباشر فى حدوث تلك الهزات العنيفة التى أصابت مصر فى عصر الاضمحلال السالف الذكر.

وما دمنا قد ألقينا نظره سريعة على الانتاج الأدبى فعلينا أن نتبع هذا بنظرة أخرى نلقيها على فن نحت التماثيل فى الدولة الوسطى، حتى نستطيع أن نتلمس مدى التطور الذى حدث فى مصر منذ انتهاء الدولة القديمة . أن تماثيل الملوك فى عصر الدولة القديمة مثل تماثيل خفرع ومنكاورع (وكلاهما من الأسرة الرابعة) لم تتميز بحجمها الكبير إلا أنها كانت تعنى بتمثيل شخصية «الملك الاله» ، وفى الواقع نلمس فى هذه التماثيل شخصية الملك المؤله، أما فنانو الدولة الوسطى فقد عمدوا إلى نحت تماثيل الملوك فى حجم ضخم يرتفع إلى أكثر من أربعة أمتار، ويغلب على الظن أن السبب فى هذا يرجع إلى شعور الملك نفسه بحاجته إلى إبراز شخصيته البشرية فى إطار واسع يرفع من شأنه بالنسبة إلى بقية المصريين، ويجعلهم ينظرون إليه وهو الحاكم الأرضى الذى أصبح ممثلا فى تماثيل ضخمة كما لو كان الها يعيش فى مصاف الآلهة، وهى النظرة بعينها التى كان المصرى ينظر بها إلى ملوكه فى الدولة القديمة دون الحاجة إلى تمثيله فى مثل هذا الحجم الضخم . ولعلنا الآن نستطيع أن نفهم السبب فى انتشار تماثيل الملوك على هيئة أبى الهول فى الدولة الوسطى وكانت فى الغالب تمثل فى أحجام ضخمة ، وكذلك نستطيع أن نفسهم السبب فى تصوير الملك الميت على هيئة الاله أزوريس، وبدأ ذلك فى عصر الملك سنوسرت الأول. ولقد سبق أن نوهنا عند الحديث عن فترة الاضمحلال الأول بانتشار عقيدة أزوريس الذى أصبح المهيمن على عالم الموتى والذى تركزت عبادته فى أبيدوس ومن ثم أخذ الناس بفكرة تحول كل منهم بعد موته إلى أزوريس. ولذلك لا غرابة مطلقا إذا اعتقد مصريو الدولة الوسطى أن الملك مع أنه من البشر فهو يصبح بعد موته مثل أزوريس صاحب سطوة ونفوذ فى الدنيا السفلى.

وبالإضافة إلى تلك التماثيل الضخمة التى لعبت دورا دينيا بالنسبة إلى الملوك ، فهناك تماثيل أخرى كان الهدف من صنعها هدفا عكسيا فهى تمثل الملوك كأفراد من البشر، وهذه التماثيل بالذات لا تزال تفوز باعجابنا كما أنها تجعل من فن نحت التماثيل فى عصر الدولة

الوسطى أرقى أنواع الفنون التى ظهرت فى مصر القديمة. وحاول الفنان فى هذه التماثيل أن يخرج صورة طبيعية حقيقية لصاحب التمثال ، واستطاع أن يصل إلى هدفه بأن أظهر كل تفاصيل عظام الوجه متوخيا الدقة ، وأن يخرج رءوسا ملكية تظهر عليها بوضوح شخصية كل منهم، وكثيرا ما استطاع أن يظهر طرفا من أخلاقهم فى ملامحهم، ونخص بالذكر تماثيل سنوسرت الثالث وأمنمحيت الثالث التى تفوز بإعجاب الفنان المعاصر وتحظى بتقديره ، واستطاع أستاذ تاريخ الفن الدكتور «ايفرز» أن يتعرف على صاحب رأس تمثال خلوا من النقوش معتمدا فى ذلك فقط على تطابق الملامح بين هذا الرأس وبين تماثيل أخرى معروفة لصاحبه.

كانت الأسرة الثانية عشرة تعتبر من الناحية التاريخية هى الأسرة التى خلفت الأسرة الحادية عشرة . وكانت الأسرتان قد نشأتا فى طيبة، غير أن الأحداث التاريخية التى تمت أثناء تولى ملوك الأسرة الثانية عشرة الحكم لا تعتبر تتمة لما قام به ملوك الأسرة الحادية عشرة- وبخاصة ملكها الكبير «منتوحتب» (نب حب رع) ، الذين حققوا وحدة مصر بعد انهيارها ، وكانت جهودهم متأثرة بهدف واحد ، وهو جعل طيبة بمثابة المركز الوحيد لهذه الوحدة. ومن أجل ذلك نكاد نعتبر المظاهر الحضرية ، اجتماعية كانت أو فنية ، قد تأثرت تأثرا واضحا باللون الطيبى، بينما كان ملوك الأسرة الثانية عشرة أكثر فهما للأوضاع وأبعد نظرا . أقاموا معبدا للاله الجديد آمون الذى أصبح اله طيبة ولكنهم لم يفكروا مطلقا فى جعل هذه المدينة عاصمة سياسية لهم . لقد عرف امنمحيت الأول منذ اللحظة الأولى أن طيبة لا تصلح مطلقا لأن تكون عاصمة يحكم الملك منها جميع أجزاء مصر الممتدة شمالا وجنوبا، فلم يتردد فى أن يختار لعاصمته مكانا يقع فى حدود تلك المنطقة التى أظهرت التجربة أنها أصلح من غيرها للتحكم فى أجزاء مصر ، وهى منطقة «منفيس» ، بل أكثر من هذا رجع الملك إلى الطراز القديم لبناء المقبرة الملكية على هيئة هرم، ولم يبق إلا على مظهر واحد من طراز المقبرة الملكية لمنتوحوتب ، وهو أنه بنى هرمه على منصة تعلو سطح الأرض، ولا شك أن أهرام ملوك الأسرة الثانية عشرة تشبه تماما أهرام ملوك الدولة القديمة ولو أننا نكاد نحس فارقا واحدا سببته تلك الأزمة الاقتصادية التى كانت تسود مصر فى هذه الفترة ، وينصب هذا الفارق على أن أهرام الأسرة الثانية عشرة كانت تشيد من اللبن ثم تكسى من الخارج بلوحات رقيقة من الحجر الجيرى الأبيض لم يبق عليها الزمن نجدها الآن متناثرة حول هذه الأهرام ، وتميزت هذه الأبنية أيضا بوجود قمة هرمية الشكل من الحجر وهى ما نطلق عليها اسم «بيراميديون». أما المعابد الجنازية التى كانت ملحقة بهذه الأهرامات ، فقد عانت من

أسباب الهدم والتخريب بحيث تبدو لنا الآن أنها لم تكن فى يوم مضى تتمتع بالفخامة وجمال المظهر، فالأهرامات التى تقوم خلف هذه المعابد المهدمة لا تظهر اليوم إلا على هيئة كومة عالية من الطمى.

نقل أمنمحيت الأول المركز السياسى للحكم من طيبة كما سبق القول واختار له فى الشمال – أى فى الاقليم المنفى– موقعا يقرب الآن من مدينة الليشت، حيث شيد عاصمة جديدة أطلق عليها اسم «ايثت تاوى» وهو يعنى «القابضة على القطرين». ولسنا فى حاجة إلى التحدث عن أهمية اقليم منف الذى لعب منذ أول التاريخ دوره الهام وكان نقطة الارتكاز فى كل محاولة لحكم قطرى الوادى، بل إن العاصمة الحالية «القاهرة» تقع فى حدود هذا الاقليم وهى فى موقعها الحالى تبعد قليلا إلى الشمال من مدينة الليشت وبينما نجد أن الملكين الأولين فى هذه الأسرة وهما امنمحيت الأول وسنوسرت الأول قد شيدا هرميهما بالقرب من العاصمة الجديدة «ايثت تاوى»، نجد أن الملكين التاليين وهما امنمحيت الثانى وسنوسرت الثالث قد اختارا منطقة دهشور التى تكون جزءا من الجبانة الكبرى للعاصمة القديمة منف– وهى الجبانة المعروفة حاليا باسم سقارة– حيث أقام كل منهما لنفسه هرما من اللبن.

غير هذا فهناك ملكان آخران من ملوك هذه الأسرة اختارا مكانا جديدا لتشييد مقبرتهما ، وهذا المكان الجديد يقع عند مدخل «واحة الفيوم» وهى الواحة التى تقع فى الصحراء الليبية على مقربة من الوادى. ومنذ أقدم العصور اتصلت هذه الواحة بنهر النيل بواسطة قناة تتفرع من النهر عند مصر الوسطى وتتجه شمالا وتصب فى منخفض الفيوم الذى يكون بحيرة متسعة الأرجاء ينخفض سطح الماء فيها كثيرا عن سطح المياه فى البحر المتوسط. ولقد سكن هذه المنطقة مجموعات من الجنس الليبى واعتبرها المصريون بمثابة أرض أجنبية عن بلادهم ، وكان إله هذه المنطقة هو المعبود الممثل على هيئة التمساح واسمه «سوبك» (سماه الاغريق سوخوس) وقل حديث المصريين إبان عصر الدولة القديمة عن منطقة الفيوم ، وكان ملوك الأسرة الثانية عشرة هم أول الفراعنة الذين عرفوا أهمية هذه المنطقة من الناحية الاقتصادية ولا غرابة فى ذلك فهذه المنطقة بعينها تعتبر فى عصرنا الحالى من أخصب وأجمل المناطق الزراعية فى مصر الحديثة . ونؤكد أن استصلاح منطقة الفيوم فى عصر الأسرة الثانية عشرة وبخاصة فى عهد الملك امنمحيت الثالث (١٨٤٠-١٧٩٢) كان من أهم وأكبر مشروعات التعمير التى حدثت فى عصر الفراعنة . ولقد دفن هذا الملك فى هرمه الذى شيده اللبن فى منطقة «هواره» بالفيوم ولابد أن معبده الجنازى كان

قد بلغ حدا من الاتساع وتعدد الصالات والأفنية بحيث أن زوار مصر من الاغريق قد رأوا فيه مشابهة قوية مع القصر المينوى المعروف باسم «اللابرنت» والمشيد فى جزيرة كريت والذى يعتبر من عجائب الدنيا السبع فى عصر ازدهار الحضارة القديمة. ومن أجل هذا كله أطلق هؤلاء الزوار على معبد أمنمحيت الثالث اسم «ابابرنت» ولو أنه لم يبق لنا منه الآن سوى أكوام من الأحجار واختفت أجزاؤه تماما. وعثرت إحدى بعثات الحفر الايطالية حديثا على معبد فى منطقة الفيوم يرجع إلى العصر البطلمى ، ووجدت أن الملك امنمحيت الثالث قد ذكر اسمه فيه وكتبه الاغريق «براماريس» كأحد الآلهة التى تقدس فى المعبد، ونرجح أن الجزء الخلفى من هذا المعبد يرجع إلى عصر الملك «امنحيت الثالث» ، وهذا الكشف بالذات يعطينا صورة واضحة عن مدى ما يمكن أن يبقى عليه طقس معين يقام فى معبد الاله بعينه، وفى حالتنا هذه يمكن أن نحدد بدء العبادة فى المعبد السالف الذكر بحوالى عام ١٨٠٠ ق.م وأنه استمر حتى عام ٢٠٠ق.م . وليس من شك فى أن منطقة الفيوم قد اكتسبت أهمية كبرى فى عصر البطالمة بل وفى عصر الرومان وذلك بالنسبة إلى الدور الكبير الذى لعبته فى حياة مصر الاقتصادية والعلمية، ونستدل على هذا من الأوراق البردية الكثيرة التى عثر عليها فى منطقة الفيوم.

هناك ملك آخر سجل التاريخ له أعمالا طيبة فى منطقة الفيوم، وهو «سنوسرت الثانى» (١٨٩٧*١٨٧٩ق.م) الذى شيد لنفسه هرما من اللبن على مرتفع من الهضبة الصحراوية بالقرب من قرية اللاهون الحالية، واسم هذه القرية يرجع إلى أصل مصرى يعنى «فم القناة» ، وهذه التسمية تدل على أن موقعها القديم كان بالقرب من النقطة التى تنحنى فيها القناة تاركة وادى النيل ومتجهة غربا نحو الفيوم . ولابد أن تكون هذه النقطة بالذات قد لعبت دورا هاما فى التحكم فى مياه القناة سواء فى اتجاهها وقت الفيضان إلى الفيوم أو بالعكس فى فترة التحاريق أى لابد أنه قد أقيمت عندها السدود والبوابات اللازمة لهذا المشروع . ويجدر بنا هنا أن نقول أن البحيرة المتسعة التى كانت قائمة فى الفيوم اعتبرت فى نفس الوقت بمثابة خزان كبير أسدته الطبيعة إلى مصر يمتلئ فى وقت الفيضان ثم يزود النيل أثناء انخفاضه بكميات من المياه ترفع من مستواه وتساعد على الرى والملاحة . ولقد عرفت بحيرة الفيوم فى العصر البطلمى باسم «بحيرة موريس» وليست هذه التسمية تعنى أن البحيرة كانت منسوبة إلى أحد الملوك المسمى «موريس» ، فليس من ملوك الفراعنة من يحمل هذا الاسم، بل أن «موريس» كلمة مصرية قديمة تعنى «البحر الكبير» (مر أور) .

قام أحد علماء الإنجليز بالحفر حول هرم سنوسرت الثانى وعثر على عدد من المقابر بجوار الهرم خصصها الملك لسيدات بلاطه ولقد اتبع بناء هذه المقابر نفس الطراز الذى كان شائعا فى عصر الدولة القديمة. وكان من بين الأشياء التى وجدت فى هذه المقابر كمية كبيرة من الحلى النفيس الذى كانت هذه السيدات يستعملنه وهو يشبه فى جماله ودقة صنعه الحلى الذى عثر عليه فى منطقة دهشور. وهذا الحلى سواء منه ما عثر عليه فى دهشور أو فى اللاهون محفوظ الآن فى متحف القاهرة ، ويدل على أن الشهرة التى علقت بالدولة الوسطى وجعلتها أهم عصر تميز بدقة صناعة الحلى فى العالم القديم، هى شهرة تقوم على أسس حقيقية.

ونظرا لأن اللاهون كانت من المواقع النائية عن العمران، فقد اضطر الملك إلى تشييد مدينة صغيرة يسكنها العمال الذين بنوا الأهرام وكذلك الذين احتاج إليهم مشروع تنظيم شئون الرى فى هذه المنطقة «وهذه المدينة بالذات لم تعمر بسكانها إلا فى عهد الملك سنوسرت الثانى ولابد أنها هجرت إما فى عصر امنحيت الثالث أو مباشرة بعد انتهاء عصره ، وهذا هو السبب فى أنها لم تتعرض لأسباب التهدم والتخريب وبقيت مدفونة تحت الرمال حتى كشف عنها معول الحفار فى عصرنا الحديث. لقد قام العالم الإنجليزى «فليندرز بترى» بالكشف عن هذه المدينة التى سماها خطأ «كاهون» فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهذا الكشف قد أماط اللثام لأول مرة عن أطلال مدينة مصرية صغيرة وعن المنازل الصغيرة الضيقة التى كان يسكنها العمال فى ذلك الوقت وكذلك عن المنازل المتسعة التى نعتبرها النموذج الذى سبق المنازل المتسعة بمدينة العمارنة والتى ترجع إلى عصر الدولة الحديثة، ونظرا لأن معلوماتنا عن حياة المصريين القدماء تأتى فى الغالب مما خلفوه فى مقابرهم وعماراتهم الجنازية ، لذلك كانت أهمية الكشف عن مدينة اللاهون كبيرة لأنها ساعدتنا على التعرف على جانب من الحياة الفعلية للمصرى القديم وذلك بما عثرنا عليه بين أطلال هذه المدينة.

وبينما كانت أهرام ملوك الدولة الوسطى صغيرة الحجم مشيدة من اللبن وتبدو قميئة هزيلة فإننا نجد مقابر أمراء الأقاليم المنقورة فى الصخر بطرازها المعروف ذى الصالات المتعددة قد دلت على ثراء أصحابها وعشقهم لمظاهر العظمة، وخلدوا على جدرانها - حالهم فى ذلك حال عظماء الدولة القديمة- الكثير من المعلومات التى نعتمد عليها فى التعرف على تاريخ هذه الحقبة ومدنيتها. والمقابر الصخرية لهذا العصر نجدها أولا فى أسوان عند الحدود الجنوبية للبلاد ثم فى المناطق الآتية من مصر الوسطى: بنى حسن ، والبرشه، ومير، وقاو الكبير، ولقد سبق الحديث عن نشأة

إمارات الأقاليم أى الاقطاعيات فى مصر أثناء عرضنا لأحداث الفترات الأخيرة من عصر الدولة القديمة ، وليس من شك فى أن الاضطرابات التى شاعت فى مصر ابان عصر الاضمحلال الأول ، قد ساعدت على اظهار أسرات جديدة فى المقاطعات المختلفة أخذت تقبض على ناصية الحكم بل حافظت عليه حتى أوائل عصر الأسرة الثانية عشرة ودليلنا على ذلك فيه طريقة نقله لتمثاله الكبير الحجم المقطوع من الصخر ليقيمه فى عاصمة مقاطعته، ويبدو واضحا من هذا المنظر أنه جند كل رجل من رجال مقاطعته لهذا العمل. وهناك نص كتب على واجهة احدى المقابر المنقورة فى الصخر فى جبانة بنى حسن المشهورة بمقابرها التى حوى أعمدة ذات قنوات غائرة (وهى التى نطلق عليها اسم الأعمدة السابقة للفن الدورى) ، هذا النص يسجل الاضافات من الأراضى الواسعة التى ضمت إلى أملاك أمير المقاطعة عن طريق الوراثة، ومن الطريف أن نعلم أن فى كل مرة تسجل هذه الاضافات يذكر اسم الملك بألقابه الكاملة الذى تم فى عصره ضم هذه الأراضى. وهذا يدل من ناحية أخرى على أن الملوك كانوا يسيطرون على مقاطعات مصر بشكل يختلف تماما عما كان يحدث فى فترة الأسرة السادسة وملوكها الضعفاء أو فى عصر الاضمحلال الأول. ويجدر بنا هنا أن ننوه بمنظر سجل على جدران هذه المقبرة بالذات وهو منظر له أهميته التاريخية . نقصد بذلك المنظر الخاص بحضور قافلة من البدو الساميين الذين يسكنون الصحراء الشرقية ، طالبين السماح لهم بالبقاء فى مصر القديمة وما ورد عنها فى كتاب «العهد القديم» وبخاصة فيما يتعلق بقصة يوسف واخوته المذكورة فى سفر التكوين .

وفى غضون عهد الملك سنوسرت الثالث تختفى تماما مقابر أمراء الأقاليم ، ومن الغريب أن نصوص هذه الفترة لا تذكر لنا الأسباب التى دعت إلى حدوث هذه الظاهرة، وعلى هذا الأساس تكون أحدث المقابر الصخرية التى وصلت إلينا هى التى عثرنا عليها فى منطقة قاو الكبير أى فى الاقليم العاشر من مصر العليا والتى تتميز بجمال طرازها المعمارى ونؤرخها من عصر أواسط الأسرة الثانية عشرة . وإذا كان الأمر كذلك فلابد أن الملك سنوسرت الثالث كان قد اتخذ اجراءات حاسمة للقضاء على نفوذ أمراء الأقاليم الذى كان قد تفشى وزاد ، وبذلك تكون ظاهرة وجود أمراء للأقاليم قد اختفت تماما من مصر ابتداء من أواخر الأسرة الثانية عشرة بل وفى عصر الدولة الحديثة أيضا. أما فى طيبة فقد سبق لنا القول بأنها لم تلعب دورا هاما فى عصر الأسرة الثانية عشرة ولم يظهر فيها قد نشأ من أسرة أمير الاقليم نفسه، إلا أن علينا أن نذكر فى هذه المناسبة المقبرة الصخرية الوحيدة التى شيدها وزير سنوسرت الأول لزوجته فى تلك المنطقة المعروفة باسم

جبانة «شيخ عبد القرنه» على الشاطئ الغربى لمدينة طيبة، وهى الجبانة التى اكتظت فى عصر الأسرة الثانية عشرة بمقابر عديدة بعضها متسع الأرجاء وبعضها ضيق صغير.

لقد تحدثنا على الصفحات السالفة عن انتشار عقيدة ازوريس ابان عصر الاضمحلال الأول ونوهنا بمزاياها وكذلك بنواحي الضعف فيها . ولقد تركزت هذه العقيدة أثناء الدولة الوسطى فى أبيدوس حيث شيدت مقبرة ازوريس الذى لقى حتفه على أيدى أخيه الشرير ست. ورأى الناس فى مقبرة أحد ملوك الأسرة الأولى الذين دفنوا هناك، مقبرة لأزوريس وقد عثر على تابوت يرجع إلى عصر متأخر وضع هناك على أنه تابوت ازوريس . وهكذا أصبحت أبيدوس وفيها مقبرة الاله أزوريس الهدف الذى يرنو إلى الحج إليه كل مصرى من عبدة الاله ازوريس ، كما أصبح كل مصرى يتوق إلى تشييد مقبرة لنفسه فى أبيدوس (وكانت تبقى أحيانا خالية ولا تستعمل للدفن) وإذا لم يستطع هذا، فكان يكفيه أن يقيم شاهد قبر حجرى عند مدخل مقبرة الإله. وعثرنا على كثير من هذه الشواهد الحجرية التى كانت غالبا ما تحوى نقوشا كثيرة وهى موزعة على معظم متاحف العالم وترجع إلى عصر الدولة الوسطى، ونشأت على الأغلب فى هذه الفترة تلك التمثيلية التى تتحدث عن قصة حياة ازوريس ونهايته المحزنة وكانت تعرض على ابيدوس ولو أنه لم تصل إلينا عنها إلا بعض الاشارات التى لا تعطى إلا صورة غير كاملة عما كان يجرى أثنىء عرض هذه التمثيلية .

وكانت السياسة الداخلية فى عصر الدولة الوسطى هى حجر الزاوية فى حياة الملوك ولذلك نجدهم جميعا يركزون نشاطهم عليها فيأخذون أولا فى تثبيت أقدامهم فى الحكم بعد الفوضى التى سادت مصر إبان عصر الاضمحلال الأول ، ثم فى تعمير منطقة الفيوم، وأخيرا فى القضاء على سلطان أمراء الأقاليم ونفوذهم . كل هذه المشكلات العويصة أخذت منهم كل عنايتهم. فلم يستطيعوا توجيه جهودهم نحو السياسة الخارجية التى لم تفز إلا بالمرتبة الثانية فى الأهمية. وعلى كل حال نستطيع أن نؤكد بأن عصر الدولة الوسطى، تماما كعصر الدولة القديمة ، قد مضى دون أن تحدث فيه حروب طاحنة أو محاولات لاستعمار مناطق تقع فيما وراء حدود مصر الطبيعية، وفى نفس الوقت علينا ألا ننظر إلى العمليات الحربية التى قام بها ملوك الأسرة الثانية عشرة لضم منطقة النوبة السفلى فيما بين الشلال الأول والثانى ، على أنها معارك على نطاق واسع. ولقد تحدثنا فيما سبق عن البعثات التجارية التى قام بها أمراء جزيرة اليقانتين فى مناطق النوبة السفلى ووصلوا بها أحيانا إلى منطقة الشلال الثالث أى إلى مدينة كرمه (وتقع

حاليا فى مديرية دنقلة) . لقد بدا سنوسرت الأول حملاته الحربية على منطقة النوبة السفلى واستطاع سنوسرت الثالث من اخضاعها تماما وضمها إلى مصر . ووصلت إلينا من عصر هذا الملك (١٨٧٨-١٨٤١ق.م) ، لوحتان حجريتان كبيرتان ، عثر عليهما «ليبسيوس» عند قلعة سمنة التى شيدها الملك بالقرب من الشلال الثانى واعتبرها بمثابة أقصى الحدود الجنوبية لمصر . واللوحتان محفوظتان بمتحف برلين. ولقد شيدت عدة قلاع أخرى فى منطقة بلاد النوبة السفلى لحماية أقاليمها ، وذلك نظرا لأنها اعتبرت منطقة استخراج الذهب ، وكان المصرى يحصل عليه أما كتبر من شواطئ النيل وأما كمعدن مخلوط فى عروق الجبال وبخاصة فى منطقة وادى العلاقى الواقعة إلى الجنوب الشرقى من بلاد النوبة السفلى، هذا المنجم بالذات بقى مستغلا حتى العصر الحديث.

واعتبر مصريو الدولة الوسطى بلاد النوبة كمنطقة ضموها إلى بلادهم ومن ثم نظروا إلى أهلها كشعب أجنبى وجب عليه الخضوع لهم. وانتشرت هناك فى هذه الفترة حضارة بدائية ، اصطلح العلماء على تسميتها «حضارة المجموعة الثالثة» حملها إلى هذه المنطقة مجموعة من الناس من الحاميين أتوا من الغرب وحطوا رحالهم فيها حوالى الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد. ولعل من أهم مميزات هذه الحضارة تلك النماذج الرقيقة والدقيقة الصنع من الأوانى الفخارية والتى أخذت شهرة كبيرة بين الأثريين المعنيين بالدراسات المصرية . ولقد قام هؤلاء بالحفر والتنقيب فى مناطق مخلفة وعثروا على جبانات عديدة من هذا العصر ، وتمكنوا فى آخر الأمر من أن يحددوا مدينة عنيبة الحالية كمركز رئيسى لهذه الحضارة ، وإذا كنا نعتبر حضارة «المجموعة الثالثة» النوبية فى مظهرها وخلوها من الكتابات من حضارات ما قبل التاريخ ، فإننا نؤكد أنها ترجع فى الواقع إلى الدولة الوسطى وذلك للعثور على قطع كثيرة وأهمها «الجعارين» من بين محتويات المقابر هناك، ويظهر بوضوح أنها صناعة مصرية صدرت هذه المنطقة . غير هذا فإن الصناعات المختلفة التى نشأت فى مدينة كرمه والتى سبق الحديث عنها ، بقيت مصانعها تقوم بنشاطها الكبير فى عصر الدولة الوسطى. وكان يقوم سكان هذه المدينة باتصالات تجارية واسعة مع حكام مدينة أسيوط كما يبدو واضحا من الآثار التى عثر عليها فى جبانتهم الفسيحة هناك، ونخص بالذكر التمثال الجميل الذى وجده «رايزنر» والذى يخص زوجة أحد أمراء أسيوط من الأسرة الثانية عشرة، عثر عليه فى مقبرة من النوع المنتشر هناك والذى يبدو طرازه المستدير الضخم على أنه من الطرر التى سادت بين أقوام لم يتمتعوا بحضارة متقدمة.

أما المنطقة الثانية التى فازت بعناية ملوك الأسرة الثانية عشرة وعملوا على اقامة الحصون فيها، فكانت تلك التى يخترقها الطريق الموصل بين مدينة قفط ومنطقة وادى الحمامات على البحر الأحمر، وهو طريق هام استخدمه المصريون منذ أول عصورهم ، لأنه كان يؤدى إلى مناجم النحاس والفيروز فى جبال شبه جزيرة سيناء ، كما أنهم اخترقوه ليصلوا إلى البحر الأحمر ومنه إلى بلاد بونت حيث البخور، والتى اتفق العلماء أخيرا على أنها تقع فى بلاد الصومال ، وأخذ المصريون يترددون عليها منذ الأسرة الخامسة كما أثبتت ذلك النصوص التى خلفها لنا الملك «سا حو رع» ، غير هذا فعلى جانبى هذا الطريق تقع المحاجر التى استخرج منها المصريون حجر الجرانيت الأسود (وهو الذى يخطئ الكثيرون بتسميته حجر البازلت) وصنعوا منه تماثيلهم . واعتاد الموظفون المصريون الذين أشرفوا على الأعمال هناك أن يسجلوا نشاطهم بنقش نصوص تختلف طولا وقصرا ، وذلك على سطوح الصخور هناك، ونستطيع الآن أن نستمد الكثير من المعلومات التاريخية عن ملوك الأسرة الثانية عشرة من هذه النصوص .

استعمل المصريون طريق وادى الحمامات للوصول إلى البحر الأحمر ومن ثم إلى شبه جزيرة سيناء ولكنهم لم يستعملوه للوصول إلى فلسطين وسوريا ، إذ كان طريقهم إلى آسيا يسير بجوار الشاطئ من شمال شرقى الدلتا، وهو يكاد يكون فى نفس الطريق الذى تخترقه السكك الحديدية فى عصرنا الحالى متجهة إلى فلسطين. وتساعدنا قصة «سنوهى» فى التعرف على كثير مما كان يجرى فى فلسطين والمناطق الجنوبية من سوريا فى عصر الأسرة الثانية عشرة، ويبدو أن سنوهى وهو من كبار رجالات الدولة، قد اعتقد بأن الخطر يحيق به بعد أن انتقل العرش إلى سنوسرت الأول بعد موت أبيه «امنمحيت الأول» فأسرع بالهرب إلى فلسطين ووصلها بعد مخاطرات جمة. واستضافة هناك أحد شيوخ البدو وعاش معه كأحد أفراد القبيلة عدة سنوات حتى سمح له الملك سنوسرت الأول بالرجوع إلى وطنه وتحدث «سنوهى» فى قصته عن فلسطين واصفا حياة البدو فيها وأعطى صورة واضحة عن جغرافيتها ومحصولاتها . حين رجع «سنوهى» إلى مصر كان قد بلغ سن الكهولة حتى أنه لما ظهر فى بلاط سنوسرت الأول لم يستطع أحد التعرف عليه نظرا لتغير ملامحه ولأن السنين التى أمضاها فى فلسطين كانت قد جعلت منه شيخا من شيوخ البدو، ووصفت القصة ترحيب الملك والفرح الذى عم القصر حين عرفوا شخصية «سنوهى» الذى كان من أقرب الناس إلى الملك.

ولم يصلنا من أخبار الحملات الحربية التى قام بها ملوك الأسرة الثانية عشرة فى فلسطين إلا

ذلك النص الذى ورد على لوحة الضابط المدعو «سوبك شو» الذى عثر عليه فى أبيدوس، وهو يذكر حملة الملك سنوسرت الثالث التى وصل بها إلى بلدة «سكيم» التى تقع الآن فى أواسط فلسطين، ومع أن هذا النص لا يتحدث إلاّ عن حملة واحدة، نجد أن الإغريق القدماء قد تغنوا ببطولة هذا الملك الذى أطلقوا عليه اسم «سيزوستريس» » والذى قالوا عنه أنه وصل إلى بلاد السيكيتيين أى توغل فى آسيا حتى شواطئ البحر الأسود، ولا شك فى أن بعض أخبار الحملات التى قام بها كل من تحوتمس الثالث ورمسيس الثانى (وكلاهما من أبطال الدولة الحديثة فى شئون الحرب. ولو أنهما لم يصلا إلى البحر الأسود) . وقد وصلت إلى الإغريق ونسجوا حولها بعضا من القصص جعلوا البطل فيه هو «سيزوستريس» . ونحن نكاد نؤكد بأن هؤلاء الملوك الذين حكموا مصر ابان فترة الأسرة الثانية عشرة قد بلغوا حدا من القوة والمجد ، جعل المصريين أنفسهم يحيطون ذكراهم بنوع من القدسية أبقت عليهم خالدين فى قلوبهم ، وانتقلت بعد ذلك هذه القدسية إلى الاغريق الذين رأوا فيهم أبطالا حق عليهم أن يسجلوا بطولتهم فى كتبهم، إلا أننا فى نفس الوقت ننكر تماما استيلاء مصريى الدولة الوسطى على منطقة فلسطين .

ولعل ما يدل على اتساع نطاق العلاقات التجارية في عصر الأسرة الثانية عشرة وإمتدادها إلى بلاد تقع بعيدا عن الحدود المصرية، العلاقة بين مصر وكريت من ناحية ومصر وبابل من ناحية أخرى. ونضرب لذلك مثلا التمثال الذى عثر عليه بين أطلال قصر كنوسوس وقد نقشت عليه بعض الكتابات الهيروغليفية ، والذى يرجعه «ايفرز» (وهو من أكبر العلماء الذين تخصصوا فى فن الدولة الوسطى وبخاصة فى نحت التاثيل) إلى أوائل الأسرة الثانية عشرة ، وهناك أوان عثر عليها بمصر فى مقابر ترجع إلى عصر هذه الأسرة وهى من النوع الذى يحمل زخارف ملونة والذى انتشر فى كريت فى عصر «الكمارس» أى فى الفترة الثانية من العصر المينوى. وهكذا نستطيع تاريخ فترة الحضارة الكريتية المعروفة باسم «الكمارس» وتحديد عصرها بعصر الدولة الوسطى فى مصر .

أما فيما يتعلق بعلاقة مصر مع بابل فيدل عليها ما عثر عليه فى مدينة «طود» جنوبى «طيبة» من آثار كتبت عليها اسم الملك امنمحيت الثالث (١٩٢٩-١٨٩٨ ق.م) ومن بينها أيضا بضعة تماثيل صناعتها بابلية وكذلك بضعة أختام اسطوانية بابلية ترجع إلى عصر الأسرة الثالثة لمدينة «أور» (قارن ما جاء فى كتاب «مورتجارت» عن هذا الموضوع) وهكذا نستطيع لأول مرة أن نؤكد وجود علاقات تجارية بين مصر وبلاد بابل وقعت فى العصور التاريخية.

٣- الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة
(من ١٧٧٨ إلى حوالى ١٦٧٠ ق.م)

انتهت الأسرة الثانية عشرة بالملك «امنحيت الرابع» الذى دلت الأبحاث الحديثة على أنه اشترك فقط فى الحكم مع أبيه امنمحيت الثالث، أما القوائم الملكية فتذكر بعده الملكة «سوبك كارع» (١٧٧٨ ق.م) وهى إحدى بنات امنحيت الثالث وكثيرا ما تذكر تحت اسم «نفر - سوبك رع» . وعاشت مصر بعد ذلك فى عصر تلمؤه الاضطرابات يعرف بعصر الاضمحلال الثانى أو عصر الهكسوس، جلس على عرش مصر فى هذه الفترة ملوك عديدون ولكن فترات حكمهم كانت قصيرة . أما عن الدين والأدب فلم تحدث فى هذه الفترة تلك الهزات العنيفة التى حدثت فى فترة الاضمحلال الأول، بل يمكن أن نقصر عوامل الاضمحلال على السياسة فحسب ونرجعها إلى دخول شعب الهكسوس أرض مصر . وهكذا نجد أنفسنا أمام فجوة عميقة من التاريخ المصرى تشطره شطرين، ويعتبر عصر الدولة الحديثة الذى أعقب هذه الفترة عصرا جديدا بدأت مصر فيه عهدا جديدا فى كل مظاهر حضارتها .

ونعتبر الأسرة الثالثة عشرة إحدى أسرات الدولة الوسطى . أما فترة الهكسوس فى مصر وهى فترة كثر الحديث عنها ولو أنه كان فى معظمه حديثا لا يقوم على أسس علمية - هذه الفترة درسها أخيرا الدكتور «هانز شتوك» دراسة دقيقة واعتمد فيها على الآثار وبخاصة الكميات الكبيرة من الجعارين ؛ وإنى أعتمد فى حديثى عنها على النتائج العلمية والتاريخية التى وصل إليها . وابدأ القول بأن هناك من الملوك من عدوا من الأسرة الثانية عشرة ومن بينهم ملك يدعى «امنمحيت - سوبك حوتب» ولقد ورد اسمه بين آخرين فى بردية بولاق رقم ١٨ ، وهى إحدى البرديات التى كتبت فى طيبة وتتحدث عن المرتبات العينية التى كانت تصرف لرجالات البلاط فى ذلك العصر، وهى إن دلت على شئ فإنما تدل بأرقامها المتعددة على ما كان عليه البلاط فى ذلك الوقت من فقر مدقع .

ولقد وردت إلينا من ذلك العصر أسماء لملوك أطلق على الكثيرين منهم اسم «سوبك حوتب» ، أو بمعنى آخر كانوا جميعا ممن يقدسون الاله التمساح ليس فى منطقته «الفيوم» فحسب بل فى مركز عبادته بمصر العليا أى فى منطقة الجبلين إلى الجنوب من طيبة .

وهناك ملك واحد اسمه «نفر حوتب» يتبع هذه المجموعة ، ويقرر الدكتور «شتوك» أن هذه المجموعة من الملوك التى سميت باسم «سوبك حوتب» ، والتى كانت تسيطر على أطراف مصر كلها ، كانت تسير فى نظم حكمها للبلاد على نفس الطريقة التى استنها ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ومن أجل هذا فقط يربط المؤرخون بين هذه الفترة من الأسرة الثالثة عشرة وبين الدولة الوسطى. ونجد تماثيل ضخمة لبعض ملوك هذه الفترة بعضها على هيئة أبى الهول كما حدث فى عصر الأسرة الثانية عشرة مع فارق واحد وهو أن هذه التماثيل ينقصها الكثير من الدقة وحسن التمثيل التى وصفناها بالنسبة إلى عصر الأسرة الثانية عشرة . وتمكن الدكتور «شتوك» أيضا من أن يثبت بطريقة لا تقبل الشك أن ملوك هذه المجموعة بقوا قابضين على دفة الحكم مدة تقرب من خمس وخمسين سنة أى من (١٧٦٥ إلى ١٧١٠ ق.م) وأنه حتى هذا العام لم يظهر الخطر الهكسوسى ولم نشعر بأى مظهر من مظاهر حضارة أجنبية دخلت مصر .

أما الأسماء الملكية الكثيرة التى وردت فى بردية تورين بجانب أسماء ملوك مجموعة «سوبك حوتب» فلابد أنها أسماء لأمراء صغار حاول كل منهم أن يدعى لنفسه العرش وهو فى منطقته حيث تمتع بشئ من السلطان ولو لفترة قصيرة . وعلى هذا لا نعتبرهم جزءا من أجزاء التاريخ المصرى بل هم فى عرفنا ليسوا إلا أفرادا ادعوا الحكم ولم ينالوه .

وهذا هو ما حدث بالنسبة إلى ملوك الأسرة الرابعة عشرة التى ذكرها «مانيتون» وقال إنهم نشأوا فى مدينة «خويس» بغرب الدلتا وأنهم حكموا مصر منها . ولكن لم تصلنا أية مخلفات أثرية من عصر هذه الأسرة . وإذا أردنا أن نفسر ما قاله مانيتون فيجب علينا أن نرجح ظهور أسرة محلية فى أصقاع غرب الدلتا المملوءة بالمستنقعات استطاعت أن تنفرد بالحكم المحلى هناك ولكنها لم تستطع مطلقا أن تمد سلطانها على مناطق مصر كلها ولا يمكن أن تكون قد لعبت دورا خطيرا فى التاريخ المصرى.

٤- « عصر الهكسوس » (أو عصر الاضمحلال الثانى)

(الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة من ١٦٧٠ إلى ١٥٧٠ ق.م)

كلمة «هكسوس» ليست من أسماء الأعلام بل هى لقب استعمله المصريون للتدليل به على «الحاكم الأجنبى» ، أو بمعنى أدق «حاكم البلاد الأجنبية» ولقد ورد هذا اللقب فى قصة «سنوهى» ، ويؤدى هذا المعنى. وقصة سنوهى ترجع إلى عصر لم يكن فيه الهكسوس قد ظهروا على المسرح السياسى، ويرجع استعمال الكلمة إلى «مانيتون» ولكن الخطأ ينصب على أن معناها عنده كان «ملوك الرعاة» ولعل هذا الخطأ بعينه هو الذى دفع الناس إلى أن يروا فى تاريخ الهكسوس ما يحقق ما ورد فى «العهد القديم» من قصص يعقوب ويوسف لأن هؤلاء كانوا فى عرفهم الأجداد الأول للبدو الرعاة الذين تجولوا فى فلسطين . إلا أن الدكتور شتوك أوضح فى كتابه سالف الذكر كيف أنه فى أواخر الأسرة الثانية عشرة ظهرت أساليب فنية أجنبية وبخاصة فى زخارف الحفارين وأن هذه الأساليب الجديدة كانت قد أتت من غرب آسيا وانتشرت فى الدلتا ولم تتعدها إلى مصر العليا بل من الواضح أيضا أن هناك نوعين من هذه الأساليب الزخرفية ، الأول يتبع الطراز المصرى الصميم وهو من مصر العليا ، والثانى وقد غلب عليه الطابع الآسيوى وهو من مصر السفلى. وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفرق بين جعارين الأسرة الثالثة عشرة بطابعها المصرى الخالص وبين جعارين الهكسوس بأسلوبها الآسيوى .

ولم تكن حملة الهكسوس على مصر من الحملات التى قام بها شعب له جنسه المعين الخالص بل قامت على يد مجموعة من الشعوب التى سكنت مناطق آسيا القريبة التى اضطرت أن تهاجر من أوطانها تحت ضغط أقوام أتوا من هضبة أرمنيا وعرفوا فى التاريخ باسم قبائل الخوريين واستقروا حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م مناطق نهر الفرات الشمالية أى فى شمال سوريا . ولقد تزعم هؤلاء الخوريين قادة ينتمون إلى الجنس الآرى وتمكنوا من أن يقيموا دولة فى شمال سوريا ظهرت على المسرح السياسى فى عصر الدولة الحديثة تحت اسم «دولة الميتانى» ، ونستطيع أن نؤكد أن الخوريين لم يدخلوا مصر تحت اسم الهكسوس ، والذى حدث هو أن غارة الخوريين على مناطق سوريا الشمالية واستقرارهم فيها ، نشرت الفزع والرعب فى قلوب سكان سوريا وفلسطين فهرب الكثير منهم، واندفعوا نحو الجنوب ووصلوا فى هروبهم إلى مصر .

أخذ العلماء بنظرية مانيتون ونسبوا الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة إلى الهكسوس. ولقد أنتجت الدراسة الحديثة لورقة تورين البردية ، توافقا كبيرا بين ما ذكرته هذه البردية من أسماء لملوك الأسرة الخامسة عشرة وما ذكره مانيتون . ونطلق على هؤلاء الملوك اسم «ملوك الهكسوس الكبار» وعددهم ستة. ومما يوسف له أن الجزء المخصص لهذا العصر فى بردية تورين قد حوى أسماء كثيرة لا رابط بينها بحيث لا نستطيع أن نستشف منها ما يساعدنا على حل المعضلات التى تقابل المؤرخ لتفهم هذا العصر . لقد ذكر مانيتون للأسرة السادسة عشرة من الهكسوس أسماء ملوك بلغ عددهم الاثنين والثلاثين اسما وحدد لحكمهم فترات بالغ فى تقدير عدد سنيها ، والمجموعة سالفة الذكر نذكرها تحت اسم «ملوك الهكسوس الصغار» وإذا انتقلنا إلى بردية تورين فنحن نلاحظ أن الجزء الذى يلى أسماء ملوك الأسرة الخامسة عشرة قد حوى عددًا كبيرا لملوك لم يذكر لهم سنى حكم ولم يقسمهم إلى أسرات ، ولا نشك فى أن هذا العدد الكبير يحوى أيضا أسماء الملوك الذين حكموا مصر ابان فترة الأسرة السابعة عشرة . ونحن نعتب على «وينلوك» الذى ذكر فى كتابه عن الدولة الوسطى هذه الأسماء نفسها على أنها حكمت مصر فى فترة الأسرة السادسة عشرة. ذكر هذا دون أن يبدى أسبابا واضحة .

لقد اعتاد المؤرخون وعلماء الآثار أن يحددوا مدة قرن كامل للفترة التى استمر حكم الهكسوس فيها لمصر، ونحن نعتمد كثيرا على المقارنات التاريخية بين مصر ومناطق آسيا القريبة وهى مقارنات تقوم على قرائن متعددة . ويحدد «شتوك» للأسرة الخامسة عشرة (أسرة ملوك الهكسوس الكبار) الفترة من ١٧١٠ إلى ١٦١٠ ق.م ، كما يحدد للأسرة التالية أى السادسة عشرة (أسرة ملوك الهكسوس الصغار) وعاصر البعض منهم ملوك الأسرة السابعة عشرة فى طيبة ، الفترة من ١٦١٠ إلى ١٥٧٠ ق.م.

لقد بالغ الكثيرون فى تقدير أهمية عصر الهكسوس بالنسبة إلى مصر وبالنسبة إلى تاريخ العالم كله، ومثل هذا ما قاله «شبنجلر» فى كتابه :

Untergang des Abendlandes

(اضمحلال حضارة الغرب) عن هذا العصر. وفى الواقع نحن لا نعرف إلا القليل عن هذه الفترة المهمة من التاريخ المصرى، ويرجع ذلك إلى أسباب جوهرية يعرفها الجميع، وهى أن الهكسوس

استقروا طوال حكمهم فى الدلتا ، وهى منطقة لم تبق لنا على آثار كثيرة مثل مصر العليا التى تمتاز بجفاف تربتها .

هناك أسماء كثيرة لملوك الهكسوس لا يمكن تحقيقها لغويا تحقيقا يقربها إلى فهمنا فبينما نجد أسماء مصرية مثل «أبوفيس» ، نجد أسماء غربية مثل «خيان» وأخرى سامية مثل «يعقوب حر» و «عنات خر» . ولقد وصلت إلينا من «خيان» (الأسرة الخامسة عشرة من ١٦٤٤-١٦٠٤ ق.م) مجموعة كبيرة من الآثار عثر عليها فى مصر، غير أن هناك غطاء لآنية من حجر الديوريت يحمل اسمه وعثر عليه بين أطلال قصر «كنوسرس» بجيزرة كريت، كما عثر أيضا فى أحد حوانيت تجار العاديات ببغداد على تمثل صغير من حجر البازلت يحمل اسمه وهو لأسد رابض، ولا نشك فى أن التمثال عثر عليه أولا بمصر ثم تسرب بطريقة ما إلى بابل . واعتمد الكثيرون على هاتين القطعتين وادعوا أن خيان استطاع أن يشيد إمبراطورية شاسعة الأطراف ، إلا أننا الآن نعارض هذه النظرية ولا نقيم وزنا لمثل هذه القرائن الضعيفة.

ونحن لا نود أن نعتقد أن غارة الهكسوس على مصر كانت حملة كبيرة شنها شعب متحد تواق إلى الغزو والحرب ، بل إن الذين غزوا مصر كانوا شرذمة من جند عركوا الحياة العسكرية وبرزوا فيها، وتزعمهم قادة غير مصريين ، كما أنهم دخلوا البلاد بجهاز ادارى تكون من رجال لم يسبق لهم معرفة أحوال مصر . واستقر ملكهم ومعه جهازه الادارى فى شرق الدلتا ، أى فى أقرب منطقة تجاور فلسطين موطنهم الأصلى . وقد شيدوا فى أهم المواقع الاستراتيجية بالبلاد حصونا منيعة. ويبدو فيما عدا ذلك أن الأحوال فى مصر بقيت تسير سيرها الطبيعى. وأخذ كثير من رجال الآثار يؤكدون عثورهم على مقابر الهكسوس فى كثير من المناطق المصرية ، ولكن هناك منطقة واحدة عثر فيها على هياكل بشرية يمكن التأكيد بأنها كانت لقوم من الساميين ، هذه المنطقة تقع بالقرب من «أبو صير الملق» عند مدخل الفيوم ، واستطاع العلماء تاريخ هذه الدفنات التى كانت الجثة فيها توضع ممتدة ، على أساس عثورهم فيها على جعلان (جعارين) نقشت على بطونها أسماء لملوك الهكسوس ، ولوجود أنواع من الأوانى الفخارية غير مصرية الصنع وذلك بجانب الأوانى المصرية العادية.

كانت «أوزاريس» هى عاصمة ملوك الهكسوس ومكانها فى شرق الدلتا ، ويقول مانيتون إنها شيدت فى عصر أول ملك من ملوك الهكسوس . واختلف الناس طويلا فى تحديد موقع

هذه العاصمة ، إلا أنه أصبح من المؤكد الآن أن موقعها هو بعينه موقع عاصمة الرعامسة (أى «بررامسو») ثم تانيس فيما بعد . ويبدو أن معظم أجزاء مصر كانت تابعة لحكم الهكسوس ولكن من الثابت أن الدلتا كانت هى منطقة نفوذهم الأولى ، إلا أن كثيرا من النقوش الخاصة بملوك الهكسوس عثر عليها فى أقصى الجنوب من مصر العليا ، إذ عثر فى «جبلين» إلى الجنوب من طيبة على نقش منها ، ولا يغرب عن بالنا أن هذه كانت تقع فى وسط المنطقة التى تركزت فيها حركات الثوار الذين ناوءوا الهكسوس . وفى حين نشأت الأسرة الثالثة عشرة فى جبلين ، نجد أن طيبة كانت موطن الأسرة السابعة عشرة التى حررت البلاد من نير حكم الهكسوس ، وهو أمر سيأتى الحديث عنه على الصفحات التالية ، وعثر الباحثون على جعلان منقوشة بأسماء ملوك الهكسوس فى منطقة كرمه البعيدة فى أقاصى السودان، وهو أمر لا يعنى مطلقا أن الهكسوس كانوا قد مدوا سلطانهم إلى السودان.

كان الإله ست هو المعبود المصرى الرئيسى الذى فاز بعبادة الهكسوس له بعد أن أطلقوا عليه اسما ساميا هو «سوتخ» ، وهو الاسم الذى اعتقد العلماء لفترة طويلة أنه يمثل بالتسمية الكنعانية أو السامية لاله الحرب أو الإله الرعد «بعل» والذى كثيرا ما ورد اسمه فى العهد القديم . إلا أن «يونكر» استطاع أخيرا أن يثبت أن الاله الجنوبى الذى عبد باستمرار فى مصر العليا تحت اسم «نوبتى» أو «ست»، كان يعبد أيضا فى منطقة تقع على مقربة من «أواريس» عاصمة الهكسوس فى الدلتا، وإذا كان الأمر كذلك فلا غرابة مطلقا فى أن يصبح «سونخ» (وهو اسم يمكن أن يكون محرفا من الاسم الأصلى «ست») الها للهكسوس . وبقى هذا الإله محتفظا بمكانته ونفوذه فى هذه المنطقة عندما شيدت فيها فيما بعد عاصمة الرعامسة «بررامسو» بل حين سميت باسم تانيس .

ومما لاشك فيه، أن عصر الهكسوس ، بما ساد فيه من فوضى واضطراب ، لم يسهم فى نهضة الفن بالبلاد ، ومن أجل هذا كانت آثار هذا العصر قليلة، بحيث أن ما عثر عليه منها يكاد يعد على الأصابع ، وأراد بعض العلماء أن ينسب إلى أواريس ، عاصمة الهكسوس ، فنا ذا طابع خاص، يسمو فى دقته إلى حد الروعة والجمال، وأطلقوا عليه تمييزا له اسم «طراز تانيس»، نسبة إلى تانيس العاصمة التى شيدت فى العصور المتأخرة فى نفس المكان ، إلا أنه ظهر أن أهم القطع التى تنسب إلى هذا الطراز لا علاقة لها بعصر الهكسوس بل ترجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة، ونخص بالذكر منها التماثيل الفريدة من نوعها والمعروفة باسم «تماثيل أبى

الهول التانيسية » والمحفوظة الآن بالمتحف المصرى ، ومن أسباب إرجاع هذه التماثيل إلى عصر الهكسوس أن هناك نقوشا أضيفت إليها كما دعا شكلها الغريب العلماء فى أول الأمر إلى الاعتقاد بأنها تماثيل لملوك الهكسوس ، ثم تبين بشكل قاطع أنها تماثيل الملك امنمحيت الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة . والشكل الغريب الذى تتميز به هذه التماثيل أنها ليست على غرار تماثيل أبى الهول التى تتكون من جسم أسد ورأس إنسان يتحلى بلباس الرأس على هيئة المنديل، بل أنها تمثل جسم ورأس الأسد وليس فيها من سمات الإنسان سوى الوجه الذى يبدو كقناع لوجه إنسان وضع على رأس أسد، فى حين نجد عرف الأسد يغطى الرأس ويتكاتف حول الوجه . ولست أود أن أشغل القارئ هنا بحديث مسهب عن طراز تانيس، إلا أننا نستطيع أن نذكر فى هذه المناسبة مجموعة أخرى من التماثيل عثر عليها فى نفس المنطقة مع تماثيل أبى الهول سالفة الذكر، وهى منحوتة من حجر أسود صلب ويبدو أنها تمت إلى عصر متأخر، إلا أنها تشبه تماثيل أبى الهول فى هيئتها الغريبة وملامح وجوهها غير المصرية ، وأقصد بذلك التماثيل المعروفة تحت اسم «مقدمى القربان من السمك» والمحفوظة بالمتحف المصرى، وكذلك التمثال المعروف فى متحف «ترمن» بروما تحت اسم «ملك الرعاة». إن هذه التماثيل لا تتصل بالأسلوب الفنى المصرى وهى تخرج عن نطاقه وبخاصة ذقونها الكثيفة التى لا مثيل لها عند المصريين.

ونحن لا نستطيع أن نتحدث عن مظهر ملوك الهكسوس أو ما يتصفون به كأفراد من شعب أجنبى ، فكان لابد لهم ملامح خاصة بهم ، وذلك لعدم عثورنا على تمثال واحد لهم، اللهم إلا تمثال صغير من العاج محفوظ الآن بالمتحف البريطانى بلندن وكان قد عثر عليه فى مقبرة بأبيدوس ومعه مجموعة من الأوانى الفخارية المصرية العادية، هذا التمثال يمثل الجزء الأمامى لأبى الهول برأس بشرية لملك . ملامح وجهه سامية بحتة، ويبدو واضحا أن القدمين الأماميتين لهذا التمثال تطأ أسيرا له الملامح المصرية المعروفة. هذه القطعة التى لاشك فى أنها كانت تستعمل كمقبض لصندوق ، تعتبر تمثالا صغيرا لأحد ملوك الهكسوس الساميين .

وقبل أن نختتم هذا الفصل نجد لزاما علينا أن ننوه بصنيع كبير قدمه ملوك الهكسوس الأجانب إلى المصريين، فقد تعلموا منهم طريقة استعمال الخيول فى جر العربات الحربية . ويبدو أن هؤلاء الغزاة الآسيويين استطاعوا مداهمة مصر ودخولها بسهولة لأنهم عرفوا استعمال الحصان والعربة الحربية. ووصل الحصان إلى منطقة الشرق القديم وإلى سوريا على وجه الخصوص من مناطق بعيدة نائية، فقد أتى من أوروبا عن طريق بلاد البلقان ، أو من جنوب روسيا عن طريق

بلاد القوقاز إلى آسيا الصغرى ثم نقله «الخوريون» إلى المناطق العليا من نهر الفرات. لم يكن البابليون يعرفون الحصان ؛ ويدل على ذلك تسميتهم له فى العصور المتأخرة «بحمار البلاد الجبلية» وكذلك كان المصريون الذين لم تحوْ لغتهم لفظا يطلقونه على الحصان يستعملون كلمة أجنبية استعاروها من لغة سامية . وظهر الحصان لأول مرة فى رسوم مقابر الفترة المبكرة من عصر الأسرة الثامنة عشرة ، أى مباشرة بعد عصر الهكسوس ، وحوت هذه الرسوم أيضا العربة الحربية والعربة التى استعملت فى الصيد . وهناك تمثال واحد خشبى محفوظ فى متحف نيويورك يمثل فارسا يمتطى ظهر حصان ، ويبدو أنه يرجع أيضا إلى أوائل عصر الأسرة الثامنة عشرة ، والسبب فى عدم استطاعتنا تحديد تاريخه أنه اشترى من أحد تجار العاديات ولم يعثر عليه فى إحدى المقابر. حقيقة نحن لا نملك رسما واحدا من عصر الهكسوس، بل لم تصل إلينا وثيقة واحدة من نفس العصر ، تمثل الحصان أو تذكره ، ولكن ليس معنى هذا أننا نشك فى أن الهكسوس لم يكونوا هم الذين أحضروا الحصان معهم إلى مصر .

هذا هو كل ما نستطيع ذكره عن الهكسوس وحضارتهم فى مصر وما أسدوه إلى المصريين من نفع . ولدينا أكثر من وثيقة ترجع إلى أوائل الدولة الحديثة ، وتذكر الهكسوس على أنهم شعب أجنبى ، وتتحدث عن مشاعر المصريين نحو هؤلاء الغزاة ، وهى مشاعر الكره لهم والغضب لوجودهم فى البلاد . ومعنى هذا أنه كانت تتفاعل فى مصر أحاسيس مختلفة ، كانت لابد أن تتبلور وتنتهى بحركة التحرير التى قضت على حكم الأجانب للبلاد ، وحدث للمرة الثانية أن قامت حركة التحرير وإنشاء دولة مستقلة تماما على أكتاف أسرة طيبة كما حدث للمرة الأولى ابان عصر الدولة الوسطى ، وهكذا بدأ التاريخ يتحدث عن الأسرة السابعة عشرة وعن بدء الدولة الحديثة .

الفصل الخامس

الدولة الحديثة

من (١٦١٠ إلى ٧١٥ ق.م)

الدولة الحديثة

من (١٦١٠ إلى ٧١٥ ق.م)

هناك اختلاف أساسي بين المراحل السابقة لتاريخ مصر، التي تناولناها من قبل ، أي مراحل عصر الدولتين القديمة والوسطى، وبين عصر الدولة الحديثة الذي نتناوله الآن. ويكمن هذا الاختلاف في أن مجرى التاريخ في العصور السابقة يبدو لأعيننا مثل تيار بطئ السير ، يتجه إلى مصيبة في تؤدة واطمئنان ، بمعزل عن المؤثرات الأجنبية كأنما ليس بينه وبينها أدنى اتصال . حقا لقد تناول الحديث في العصرين السابقين أيضا أحداث الحروب، ومؤثرات الحضارة وعلاقات السلم مع البلدان الخارجية، ولم تضطرهم الظروف إلى مغادرة أرض مصر ، وذلك من وجهة النظر الجغرافية، إلا أن الأمر يختلف بالنسبة إلى عصر الهكسوس الذي ألمنا به أخيرا . لقد بدأت مصر نهضتها التي جعلت منها دولة عالمية منذ عام ١٥٥٠ ق.م تقريبا نتيجة لطرد الهكسوس الأجانب من البلاد ، إذ حدث للمرة الأولى في تاريخ العالم ، حسبما انتهى إليه علمنا بذلك التاريخ، أن أخضع شعب دقيق التنظيم من حيث الحكم والإدارة بلدانا وشعوبا تقع خارج نطاق حدوده، وأدخلها في دائرة نفوذه وسلطانه وجمعها في إمبراطورية كبرى. لم يكن هذا التوسع من نصيب أية دولة أخرى سوى تلك الدولة التي أقامها كل من «سرجون» و «نارمسين» ، أي الدولة «الأكدية» التي استطاعت لفترة قصيرة أن تبسط سلطانها على المناطق فيما بين بابل والبحر المتوسط وذلك في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد ، ولو أن تلك الدولة الأكدية لم يقدر لها البقاء، وقد ترتب على تجاوز منطقة الدولة الخاصة إلى مناطق أخرى أن دخل الشعب الغالب بطبيعة الحال، وهو الشعب المصري في حالتنا هذه في نزاع واصطدام ، مع المغلوبين الذين استغلوا كل فرصة للثورة ضد مخضعيهم ومع دول كبرى أخرى، تدعي أن لها هي أيضا حقوقا ثابتة ، أو على الأقل مطامع ينبغي أن تحصل عليها في المناطق التي استولت عليها مصر . وهكذا صارت الدولة المصرية الحديثة دولة عالمية كبرى في أقدم العصور. ولم يعد ممكنا أن ينظر إلى تاريخ مصر

على أنه تاريخ مستقل بنفسه ، بل على أساسا تلك العلاقات المطردة التى تربط بينه وبين تاريخ سوريا وآسيا الصغرى أى تاريخ «الخوريين» والحيثيين ثم بينه وبين تاريخ «الآشوريين» فيما بعد. ولو أننا فى نفس الوقت نقرر أن مصر ستظل بمثابة نقطة البدء ونواة البحث بالنسبة إلى العرض التاريخى الذى سيأتى الحديث عنه على الصفحات التالية.

إن استعداد طيبة لنهضتها من جديد وقيامها بطرد الهكسوس يعتبر نقطة تحول نبدأ بها عصر الدولة الحديثة، وهو أمر اتفق عليه الجميع ولكنهم اختلفوا فى تحديد نهاية هذه الدولة ، فكثير من الباحثين يحدد نهايتها بانتهاء عصر الرعامسة، وأصبحت فى واقع الأمر لا وجود لها ، ولكننا إذا أمعنا النظر فى آثار العمارة التى خلفها لنا العهد الليبى (فى الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين) لوجدنا أنها متأثرة تماما بروح الدولة الحديثة ، هذا مع أنها شيدت فى ظل عصر بلغ حدا من التدهور سنلمس مداه على الصفحات التالية. وعلى هذا فنتناول عصر الأسرات من الحادية والعشرين إلى الرابعة والعشرين على أنه عصر تدهور واضمحلال أتى فى نهاية الدولة الحديثة، وهذا يطابق تماما التقسيم الزمنى الذى اتبعته فى العرض الذى قدمته فى كتابى عن تطور العمارة المصرية . كما أنه يطابق كذلك فترات التدهور والاضمحلال التى أتت بعد كل من الدولتين القديمة والوسطى. أما مرحلة الختام فى التاريخ المصرى التى نتعارف على تسميتها «العصر المتأخر» فهى تبدأ بالأسرة الخامسة والعشرين الأثيوبية.

ويجدر بى أن أوضح الطريقة التى سأتبعها فى تقسيم الباب الطويل المخصص لعصر الدولة الحديثة وذلك طبقا للنظرة التى عرضناها آنفا والتى تجعل منه عصرا يبدأ حوالى عام ١٦١٠ ق.م وينتهى حوالى عام ٧١٥ ق.م والطريقة هى تقسيم هذا العصر إلى خمسة فصول تتفق تقريبا مع الفصول التى استخدمتها فى العرض الذى قدمته للفن المصرى فى كتابى :

Schaff, "Handbuch der Archaeologie"

١- نشأة الإمبراطورية المصرية

(١٦١٠ ق.م إلى ١٤١٣ ق.م)

قامت حركة التحرر من حكم الهكسوس الأجنبى فى مصر العليا مرة أخرى، كما قامت من قبل فى طيبة فى نهاية فترة الانتقال الأولى عند تأسس الدولة الوسطى. فهناك استطاعت أسرة من الأمراء الوطنيين أن نحتفظ بنفوذها المحلى أثناء سيطرة الهكسوس على مصر. ويبدو لنا حتى الآن أن هذه الأسرة لا ترتبط بأية قرابة أو نسب مع الأسرة الثالثة عشرة التى ظهرت فى مصر العليا، كما أنها لا تتصل بأسرة «الأناتفة والمناتحة» أى الأسرة الحادية عشرة الطيبية الأصل، هذا مع أن بعض ملوك الأسرة السابعة عشرة تسموا باسم «انتف». وعلى كل حال فالفارق الزمنى بين الأسرتين الثالثة عشرة والسابعة عشرة هو فارق قصير نسبيا . وليس فى استطاعتنا أن تدلى بمعلومات أكثر دقة عن أصل الأسرة السابعة عشرة وعن بدء ظهورها ، وبخاصة أن مقابر هذه الأسرة التى بنيت على هيئة أهرامات صغيرة من اللبن قد تم الكشف عنها منذ زمن طويل ولكنها تحطمت تحطيما مريعا ثم اندثرت تماما . وقام «وينلوك» بدراسة هذه الآثار دراسة دقيقة، خرج منها بأن أصحاب هذه المقابر من الملوك هم الذين أسسوا الأسرة السادسة عشرة وبذلك اعتبرهم من عصر الدولة الوسطى، إلا أننا لانستطيع الأخذ بهذا الرأى لأن القرائن التى قدمها غير كافية، ومن أجل هذا نفضل أن نتتبع فى هذا الكتاب نظرية «شتوك» التى ضمنها كتابه عن عصر الهكسوس والتى تقول بأن هؤلاء الملوك هم الذين كونوا الأسرة السابعة عشرة . واعتمد «وينلوك» فى بحثه الطويل على وثيقة ترجع إلى عصر الأسرة الحادية والعشرين وهى المعروفة باسم بردية «أبوت» (١٠٠٠ ق.م) وهى الوثيقة التى تحدثنا عن البعثة الفضائية التى تولت التحقيق فى سرقات مقابر الملوك بطيبة. وسيبدو منها واضحا أن معظم مقابر الملوك فى ذلك العصر كانت قد نهبت واضطر أولو الأمر فى الأسرة الحادية والعشرين أن ينقلوا عددا كبيرا من جثث هؤلاء الذين حكموا مصر منذ الأسرة السابعة عشرة إلى آخر العشرين ويحفظوها فى مخبأ كبير عثر عليه «ماسبيرو» ؛عالم الآثار الفرنسى بالقرب من معبد الدير البحرى، وفى هذا جاء عرض الموميات الكثيرة لملوك الدولة الحديثة فى صالة فسيحة بالمتحف المصرى. ومن بين هذه الموميات الملكية واحدة تظهر فى رأسها آثار لاصابات مميتة وتعرف من التابوت الذى وضعت فيه الجثة أنها للملك «سفن - رع» من الأسرة السابعة عشرة ، ولا شك فى أنه مات مثخنًا بجراحه فى حرب التحرير

ضد الهكسوس . ومن السهل التعرف على توابيت ملوك الأسرة السابعة عشرة وتوابيت كبار الموظفين فيها ، إذ كانت هذه التوابيت على هيئة آدمية تحلت بثياب من الريش (ولذلك تعرف بالتوابيت الريشية) . وعلى كل حال فقد ظهرت فى الدولة الحديثة عادة اعطاء التابوت الخارجى هيئة صاحبه بل كثيرا ما يأخذ التابوت الداخلى أيضا هذه الهيئة ، وذلك بتشكيل طرف التابوت على هيئة رأس الإنسان ومن هنا جاءت تسميتها بالتوابيت الآدميه الشكل.

ولسنا فى حاجة هنا إلى سرد أسماء أمراء طيبة الذين اعتبرتهم الوثائق المصرية المتأخرة ملوكا للأسرة السابعة عشرة، وحسبنا أن نذكر إلى جانب اسم الملك «سقن - رع» الذى مات مثخنا بجراحة فى القتال، ملكا آخر يحمل نفس الاسم وكلاهما يلقب بلقب «تاعا» ويتميز أحدهما بوصف «الكبير» والآخر بوصف «الشجاع». ونظرا لأن أمراء طيبة هؤلاء كانوا يهيمنون على شئون إقليمهم الصغير كولاة للهكسوس فى بادئ الأمر، وأنهم لم يستطيعوا تنمية سلطانهم إلا على خطوات الأسرة السابعة عشرة من مصر ، وطبقا لما ذكره «شتوك» حكمت الأسرة السابعة عشرة فترة تتراوح بين ٥٥ و ٦٠ سنة فقط ، أى على وجه التقريب فى المدة من ١٦١٠ إلى ١٥٧٠ ق.م وإذا كان الأمر كذلك فهى تتداخل إلى حد كبير فى عصر أسرتى الهكسوس .

وصلت إلينا وثيقتان تحدثنا عن طرد الهكسوس من مصر . إحداهما صيغت فى قالب قصة لم يتبق لنا منها ، مع الأسف . إلا مطلعها فى بردية من الأسرة التاسعة عشرة ويبدو من ذلك جليا أن الحدث الأساسى الذى سجلته الدولة الحديثة، وهو حزب التحرير من ربقة الهكسوس ، قد غدا موضوعا محببا، ونال حتى بعد عدة قرون شهرة أدبية أقبل عليها الشعب. والوثيقة الأخرى هى لوح خشبى لأحد التلاميذ . يرجع إلى نفس الزمن الذى طرد فيه الهكسوس ، ولعل الوثيقة المكتوبة على هذا اللوح كانت منقولة عن حجر تذكارى مفقود ، وعلى كل حالة فهى ولا شك تقرير تاريخى وليست بقصة خرافية . وتتحدث هذه الوثيقة عن أن أمير «اواريس» (أى ملك الهكسوس) قد احتل الأشمونين فى مصر الوسطى وأن اعتداء «نوبيا» من الجنوب يهدد كذلك مصر العليا ، وأن الملك المصرى المدعو «كامس» من الأسرة السابعة عشرة أخذ يصنف الخطورة البالغة التى تهدد بوضوح أنه كان فى ذلك الوقت، إلى جانب خطر الهكسوس ، خطر آخر مصدره بلاده النوبة، وذلك بما عثر عليه فى بعض المقابر التى ترجع إلى هذا العصر والموجودة فى جبانات مصر العليا إذ حوت بعضا من الأدوات صناعتها نوبية أجنبية.

كان الملك «أحمس» هو المتمم لرسالة التحرير من نير الهكسوس ، ويغلب على الظن أنه كان الأخ الأصغر للملك «كامس» الذى سبق ذكره واعتادت قوائم الملوك أن تذكر «أحمس» كمؤسس للأسرة الثامنة عشرة . ولم تكن المعارك الكبرى التى خاضها فراعنة الأسرة الثامنة عشرة فى مناطق آسيا القريبة سوى ضمان ضد وقوع هجمات أخرى من الهكسوس على مصر.

واسم أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وهو الذى نكتبه «أموزيس» طبقا للنطق الإغريقى يتكون من الكلمتين المصريتين : «اياح» وتعنى «قمر» ثم «مس» وهى صيغة فعلية معناها «ولد» وعلى ذلك فصواب نطق هذا الاسم باللغة المصرية هو «اياح مس» ، وهو نفس الاسم الذى يظهر من جديد ، بعد نحو ألف سنة من ذلك التاريخ، أى فى الأسرة السادسة والعشرين والذى يسميه هيرودوت «أمازيس». وكان ينبغى - وضعا للأمور فى نصابها- تمييز الملكين بإسمى «أموزيس الأول» و «أموزيس الثانى»، أو بعبارة أخرى «امازيس الأول» و «أمازيس الثانى». ومما يلفت النظر أنه فى الوقت الذى ظهر فيه هذا الاسم الملكى المشتمل فى تكوينه على كلمة «القمر» نجد أيضا اسماء عديدة لملوك حكموا مصر فى أوائل عصر الأسرة الثامنة عشرة تحوى هذه الكلمة ، ومثال ذلك «اياح حوتب» (القمر راض) وهى أم الملك «أموزيس» (ويكتب هذا الاسم غالبا » آح حوتب») ثم هناك الاسم الملكى المشهور «تحوت مس» (وقد كان الاله «تحوت» ورأسه على هيئة رأس الطائر «ايبس» هو اله القمر) وكذلك الملك «كامس» الذى سبق الحديث عنه وهو الأخ الأكبر للملك «أموزيس» ، ويشير الباحثون إلى أن كلمة «كا» بمعنى «الثور» ترد كثيرا للدلالة على معنى «القمر» ولا شك فى أن هذه الأسماء التى تدخل فى تركيبها كلمة «القمر» تشير إلى معانى دينية لا تزال مراميها غير واضحة لنا تماما.

حكم «أموزيس» اثنتين وعشرين سنة ، (١٥٦٧-١٥٤٥ ق.م) وسنرى عند الكلام على فترة حكم ابنه وخليفته «امنحوتب الأول» وهو الذى وصل إلينا تقويم زمنى له بحساب دورة النجم «الشعرى اليمانية» ، كيف أن هذا التاريخ قد ثبتت صحته من الوجهة الزمنية ، وسوف نتحدث عن تلك الظاهرة الغريبة ، وهى أن جميع المصادر التاريخية تعتبر «أموزيس» مؤسسا لأسرة جديدة هى الأسرة الثامنة عشرة . على حين يتضح جليا مما ذكرناه أن هذا الملك- باعتباره الأخ الأصغر للملك «كامس» المعترف من الجميع بأنه من الأسرة السابعة عشرة- لايعد مع ذلك من هذه الأسرة.

هذا وقد ظهر بصورة خاصة فى القتال الحاسم الذى شنه الملك «أموزيس» مع الهكسوس ضابط يحمل نفس الاسم ، وقد سجل فى النقش المكتوب على جدران مقبرته فى «الكاب» وصفا حيا للمرحلة الأخيرة من القتال مع الهكسوس وذلك عند الاستيلاء على العاصمة «أواريس» . ويتضح من هذا النقش أيضا أن مطاردة المصريين للهكسوس امتدت فقط إلى «شارهين» وهى قلعة حصينة تقع جنوبى فلسطين فى منطقة قبيلة «سمعان» وأن الاستيلاء على هذا الحصن استغرق ثلاث سنوات من الحصار الشديد.

ويبدو أن توطيد الحكم فى مصر داخليا قد تم دون عقبات وذلك على إثر طرد الهكسوس منها ، وأن الشعب انضم بمحض اختياره إلى الملك المخلص، ولم يبق على «اموزيس» إلا أن يقاتل فى بلاد النوبة السفلى، وأن يخمد بالقوة ثورات صغيرة قامت للتخلص من السيادة المصرية. وفى النص الطويل المكتوب على لوحة حجرية محفوظة اليوم بمتحف القاهرة والذى سجل الملك فيه انتصاراته، نجد كيف أشاد الملك بمجهودات أمه الملكة «آح حوتب» التى وصفت بأنها «سيدة الحانبو» ، ولفظ«الحانبو» يستعمل للتدليل على سكان جزر البحر المتوسط، وقد استخلص «ادوارد ماير» من هذه الصفة أن الملكة كانت أميرة كريتية، وأنها عملت حينذاك على ابرام حلف بين كريت ومصر كان من أثره طرد الهكسوس نهائيا . وهذه النتيجة التى وصل إليها « ادوارد ماير» فيها مغالاة من غير شك . حقيقة أن هناك بعض القرائن تساعدنا على الأخذ بهذه النظرية، نقصد بذلك الأسلحة النفيسة التى عثر عليها فى مقبرة الملكة والتى تحمل اسمها واسم أبيها كما تحمل اسم «كامس» ، والتى تعتبر من الصناعة الكريتية الميسينية، أو على الأقل متأثرة من ناحية الصناعة والزخرفة تأثرا قويا بمؤثرات من تلك الجزر، ولكن الصور الكثيرة التى وردت على جدران مقابر طيبة والتى ترجع إلى الجزء الأول من عصر الأسرة الثامنة عشرة والتى تمثل ما كان يرد إلى مصر من الهدايا الكريتية، إن دلت على شئ فهى تدل على ازدهار التبادل التجارى بين البلدين فى هذا العصر ، وهذا أمر تمكنا من إبرازه بالنسبة إلى عصر سابق أى عصر الدولة الوسطى .

خلف «أموزيس» فى الحكم ابنه «أمنوفيس الأول» وكان اسمه للعرش هو «دجسر كارع». و «أمنوفيس» هو الاسم الذى تسمى به أربعة من ملوك الأسرة الثامنة عشرة والذى ينطق فى اللغة المصرية «امنحوتب» (أو امنحتبه» أى «آمون راض». أما الصيغة الصيغة اليونانية المعتادة

عندنا .وهى «أمنوفيس»، فهى التسمية التى وردت إلينا من العصر المتأخر والتى أصبحت تطلق على هؤلاء الملوك فى العصر الحالى ولو أن الأصح أن يسموا كما نطق الاغريق الاسم وهو «أمينوتيس».

وعلى الصفحة الخلفية للبردية الطبية المشهورة «ايبرس»، ورد تقويم زمنى بحساب النجم «الشعرى اليمانية» أرخ من عصر هذا الملك ، وذكر هذا التقويم ضمن قائمة من الأعياد وقيل أن النجم «الشعرى اليمانية» طلع فى يوم كذا من السنة التاسعة من حكم الملك «أمنوفيس الأول» ، وسبق لنا أن أبرزنا أهمية مثل هذا التقاويم بحساب طلوع النجم «الشعرى اليمنانية» بالنسبة إلى التاريخ المصرى . وإذا كان هناك حتى الآن بعض الغموض حول تحديد الزمن الذى ذكرته بردية «ايبرس» فإن ما قرره «ادجرتون» الأمريكى يبدو لى أقرب الآراء إلى الواقع ، إذ يحدد السنة التاسعة من حكم «أمنوفيس الأول» على أنها بدأت عام ١٥٤٥ ق.م . وانتهت عام ١٥٢٤ ق.م ، وعليه حددنا فترة حكم أبيه «زموزيس» من ١٥٦٧ إلى ١٥٤٥ ق.م ، أى سنة ٢٢ سنة . هذا التحديد الزمنى الذى تداخلت فى حسابه القواعد الفلكية الحديثة والتى أدخلت فى الاعتبار خط العرض لمدينة «منف» ، يجب انقاصه عشرين عاما رذا حسب على زساس خط العرض لمدينة طيبة ، ويسرى هذا التحديد الزمنى إلى نهاية عصر حكم الملك «تحوتمس الثالث» وفى هذه الحالة يبدو هذا التقويم متفقا إلى أبعد مدى مع ما ورد على ظهر بردية «ايبرس».

لم تصل إلينا معلومات كافية عن الأعمال الشهيرة التى قامت فى عصر «أمنوفيس الأول» ولكن لابد أنه كانت لهذا الرجل مكانة خاصة فى قلوب معاصريه ومن جاء بعدهم ، لأن اسمه أطلق على أحد الأعياد الشهيرة ، بل صار فيما بعد اسما لأحد الشهور وبقى فى اسم الشهر القبطى «فامينوت» (برمهات) . غير هذا فقد لعبت الأم عنده دورا خاصا، وكانت أمه هى الملكة «ايا حمس- نفرتارى» زوجة الملك أموزيس ولهما فى الجانب الغربى من طيبة معبد صغير مشترك واعتبرا منذ أواخر الأسرة الثامنة عشرة وبخاصة ابان عصر الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين من قديسى الجبانة. واعتاد الناس تصوير صورتيهما على جدران مقابرهم ، حيث جرت العادة بتصوير الملكة «أياحمس نفرتارى» باللون الأسود، ولا نعرف السبب فى ذلك إذ لا نعتقد أنها كانت نوبية أو زنجية الأصل . وعثر منذ سنوات قليلة على مقبرة «أمنوفيس الأول» وهى محفورة فى تل منفرد بالقرب من مقابر ملوك الأسرة السابعة عشرة فى الجزء الشمالى من جبانة طيبة.

جاء الملك تحوتمس الأول (واختار اسما للعرش هو «عاخبر كارع») خليفة للملك «امنوفيس الأول»، وكان طبقا لقوائم الملوك هو الثالث من ملوك الأسرة الثامنة عشرة إلا أن هناك غموضا يحيط بقرابته إلى سلفه . ومن المؤكد أن «تحوتمس الأول» لم يكن ابن «امنوفيس الأول» . لم يكن ابن «امنوفيس الأول»، كما لم يكن أخا له ، ويفترض «زيته» أنه كان صهرا له واسم أم هذا الملك معروف ، ولكنها لم تكن ملكة. ومن ثم يمكن التساول فى عجب : كيف حدث هنا أن الأسرة استمرت وأن قوائم الملوك المصرية، وجميع الوثائق التاريخية تجعل من «أموزيس» المؤسس للأسرة الثامنة عشرة فى حين كان هو وابنه من بعده الوارثين الشرعيين للأسرة السابعة عشرة؟ لست أعرف حلا أو شرحا لهذه المسألة وينبغى أن نقرر مرة أخرى أنه كان من الواجب- كنتيجة منطقية- أن يعد «أموزيس» و «أمنوفيس الأول» من الأسرة السابعة عشرة فيصبح المؤسس الحقيقى للأسرة الثامنة عشرة هو الملك تحوتمس الأول».

وبناء على ما ذكرناه بالنسبة إلى الملك «أمنوفيس الأول» يكون خليفته «تحوتمس الأول» قد جلس على العرش عام ١٥٢٤ ق.م تقريبا . ونظرا لقلة الآثار التى وصلتنا من عصره ، لا نعرف مدة حكمه على وجه التحقيق، كما أننا لا نستطيع أن نقدر لابنه وخليفته فى الحكم الملك «تحوتمس الثانى» أكثر من ثلاث سنوات ، ويبدو أنهما قد حكما مصر فترة لا تزيد على العشرين عاما ، أى حوالى عام ١٥٠٢ ق.م.

ذكرت النصوص إرسال حملات صغيرة إلى بلاد النوبة فى عصر كل من «أموزيس» و«أمنوفيس الأول» ، وذلك لأن هذه المنطقة كانت قد استطاعت الفوز باستقلال ذاتى فى عصر الهكسوس. واستغل «تحوتمس الأول» قيام ثورة هناك فأرسل حملة وصلت إلى ما بعد الشلال الثانى وتغلغلت إلى نباتا عند جبل «البركال» أى عند الشلال الرابع فى السودان ، وهكذا استقرت الحدود المصرية الجنوبية عند هذه المنطقة وبقيت كذلك مدة خمسة قرون من عصر الدولة الحديثة . وسجل الملك هذا العمل العظيم فى نقش كتبه على لوحة كبيرة أقامها على الصخور المواجهة لجزيرة «تمبوس» على مقربة من الشلال الثالث. وليس من شك فى أن دولة «كرمه» كانت قد اختفت فى ذلك الوقت تماما. وصارت بلاد النوبة إلى الشلال الرابع إقليما مصريا ، ويبدو أن تمصير هذا الاقليم قد تم حينذاك بخطوات سريعة ، وأصبحنا لا نعثر على أدوات ذات طابع نوبى كما كان الحال فى عصر الدولة الوسطى . وبقيت بلاد النوبة ثابتة فى أيدى المصريين ووضعت تحت إدارة حاكم

مصرى يحمل لقب «ابن الملك المولى على كوش» ، وكان عليه تصريف شئون الإقليم الجديد الذى كان يبدأ شمالا من مدينة «الكاب» جنوبى الأقصر وينتهى عند «نباتا» فى الجنوب . وأصبحت بلاد النوبة منذ ذلك الوقت تعرف باسم بلاد «كوش» ، وهو نفس الاسم الذى أطلق عليها فى كتاب العهد القديم.

وبعد أن استتبت الأمور فى الإقليم النوبى أسرع «تحوتمس الأول» إلى فلسطين وصادفه التوفيق فى حملته هذه، إذ استطاع أن يتغلغل فى سوريا شمالا حتى وصل إلى نهر الفرات الذى أطلق عليه المصريون اسم «الماء العكسى الجريان» ، وذلك لأنه يجرى- كما هو معروف- فى اتجاه عكسى أى من الشمال إلى الجنوب. واختلف بذلك عن النيل الذى اشتهر وحده حتى ذلك العهد عند المصريين بأنه النهر الكبير. وأقبل المصريون على صيد الفيلة فى منطقة الفرات، وقدموا أنيابها قربانا إلى «أمون» فى طيبة. ويعتبر «تحوتمس الأول» أول فرعون فى الدولة الحديثة شرع فى بناء معبد آمون فى الكرنك ، ووضع الأساس بذلك لأكبر وأشهر معبد من معابد الدولة الحديثة. ويبدو أن المعبد الصغير الذى شيد هناك فى عصر الدولة الوسطى كان قد هدم حينذاك . وأقام تحوتمس الأول أيضا مسلتين أمام مدخل المعبد (ولا تزال إحداهما قائمة حتى الآن فى مكانها الأصلى) كما أقام بهوا تتوسطه أعمده ضخمة من النوع المعروف باسم «أعمدة أزوريس».

ومن الأعمال الهامة التى قام بها هذا الملك أيضا أنه قضى على العادة المتوارثة والتى كانت تحتم دفن كل ملك فى مقبرة على هيئة هرم، واستن سنة جديدة بأن أمر بحفر مقبرة له فى الصخر تتكون من ممرات متتابعة ، واختار بها مكانا يقع فى واد مقفر صحراوى تحيط به التلال الصخرية غربى طيبة . وحذا حذوه فى ذلك كل الملوك الذين خلفوه فى عصر الدولة الحديثة (أى إلى نهاية الأسرة العشرين) وهكذا أصبحنا اليوم نتحدث عن مقابر وادى الملوك (بيبان الملوك) التى تقع على الجانب الغربى لمدينة طيبة. ولم يصلح هذا الوادى الضيق المقفر لإقامة معابد جنازية تجرى فيها الطقوس الدينية اللازمة للملك. ولهذا اضطروا إلى فصل الجزئين فشيد كل ملك معبدا لإقامة الشعائر الدينية فى مكان يقابل وادى النيل ، وعلى مقربة من الأرض الخصبة ، ولدينا من هذه المعابد الكثير التى ما زالت موضع الإعجاب . وعلى كل حال فالعلاقة بين المقبرة والمعبد كانت مفقودة فى جميع العصور .

ويمكن اعتبار «تحوتمس الأول» بجدارة أول ملك كبير فاتح فى الدولة الحديثة وستبقى أعماله ساطعة اللهم إلا إذا قارناها بتلك التى قام به ابنه وخليفته الثانى «تحوتمس الثالث» فهى حينئذ

تتضاءل أمامها ولم تذكر له سوى حملتين ، إلا أنه استطاع فيهما أن يصل جنوبا إلى الشلال الرابع وشمالا إلى سوريا والفرات حقيقة لم تصبح سوريا إقليمًا مصريًا كما كان الحال مع بلاد النوبة، إلا أنها بقيت فترة طويلة مرتبطه بمصر وإن ظلت تحت ادارة وطنية خاصة.

خلف «تحوتمس الأول» ابنه «تحوتمس الثانى» الذى ولد من زوجة غير ملكية والذى لا يمكن أن يكون حكمه قد استمر أكثر من سنوات قليلة ، وتدل جثته على ملامح شاب دب فى جسمه السقم والمرض، وهناك نص فى المتحف المصرى يبدو أنه نسخ عن وثيقة ترجع إلى عصر هذا الملك إلا أنها مفقودة الآن ، وهى تذكر العام الثامن عشر من حكمه، لكن «زيته» الذى وجه عناية خاصة بدراسة الفترة الأولى من تاريخ الأسرة الثامنة عشرة ، لا يأخذ بهذه الوثيقة بل ويطعن فى صحتها. ومما يؤكد قصر مدة حكم «تحوتمس الثانى» عدم وجود آثار أو نقوش من عصره .

ومن ثم خلفه على العرش «حتشبسوت» وزوجها «تحوتمس الثالث» ، وكانت «حتشبسوت» هى الوارثة الشرعية للعرش باعتبارها بنت تحوتمس الأول من زوجته الملكية «ايا حمس» . أما «تحوتمس الثالث» فكان ابن «تحوتمس الأول» من زوجة غير ملكية ، ولقد نشأت عن ذلك العصر ، كما كانت هذه المشكلة التاريخية، التى نشأت بعد وفاة كل من تحوتمس الأول والثانى ، شغلا شاغلا لأكبر علماء الآثار فى وقتنا الحاضر ، فانكبوا على دراستها عشرات السنين . وليس هناك ما يدعو إلى إعطاء صورة مفصلة للمراحل المختلفة التى تطورت فيها نظريات العلماء على مر السنين عن الاختلافات حول عرش مصر فى أوائل الأسرة الثامنة عشرة، وسأكتفى هنا بعرض أحدث نظرية علمية عن هذه المشكلة ، معتمدا فى ذلك على التفسير الواضح الشامل الذى انتهى إليه «ادجرتون» .

كتب «انينى» - وكان يشغل إحدى الوظائف الكبرى فى ذاك العصر - تاريخ حياته على جدران مقبرته فى طيبة ، وفيه نقرأ قصة التطور التاريخى الصحيح لهذه المسألة خاليا من كل شائبة : قال «حينما ذهب تحوتمس الثانى إلى السماء (أى مات) - وذكر قبل ذلك وفاة تحوتمس الأول بكلمات مشابهة - حل محله ابنه ملكا على القطرين وعاهلا على عرش أبيه . وعنيت أخته ، الزوجة الملكية حتشبسوت بالسهر على مصالح البلاد وإدارة شئونها ، وكانت مصر خاضعة لها ، باعتبارها البذرة الالهية ، فكان حكمها ممتازا واستطاعت إرضاء الاقليمين بحكمها . وكان «تحوتمس الثانى» قد تبنى أخاه من أبيه ، أى «تحوتمس الثالث» ،اختاره خليفة له معتمدا

فى ذلك على نبوءة صدرت عن «أمون» وذلك على أساس أن تمثاله المقدس توقف أمام الكاهن الصغير أثناء أحد الاحتفالات التى أقيمت فى المعبد . وتحوتمس الثالث نفسه هو الذى سجل هذا الحادث فى نقش له بمعبد الكرنك . ونحن نعلم أن «تحوتمس الثانى» - وقد كان هو الآخر ابنا غير كامل الشرعية للملك ، تحوتمس الأول» - وإن كانت أمه احدى الأميرات وتسمى «موت - نفرت» تعلم أنه تزوج من أخته لأبيه «حتشبسوت» الوريثة الوحيدة الكاملة الشرعية ، لأن تحوتمس الأول انجبها من زوجته الرئيسية الملكة «اي حمس» ، وقصد «تحوتمس الثانى» من زواجه بأخته أن يكتسب لنفسه الشرعية الكاملة للجلوس على عرش الفراعنة . وبعد موته تزوجت «حتشبسوت» من أخيها الآخر لأبيها وهو «تحوتمس الثالث» . وكان الهدف من ذلك ولا شك أن يكتسب الملك الشرعية الكاملة فى الملك، ولكن ما حدث خالف ذلك ، إذ ألجأت الملكة «حتشبسوت» زوجها الجديد - الذى كان فيما يبدو أصغر منها سنا - إلى أن يكون الأمير الزوج «فقط» ويغلب على الظن أن هذا هو الموقف الحقيقى للاختلافات على العرش المصرى التى حدثت فى مبدأ الأسرة الثامنة عشرة ، ويتفق أكثر الباحثين اليوم مع «ادوارد ماير» على الأخذ به .

وهكذا تربعت على عرش الفراعنة امرأة بعد وفاة «تحوتمس الثانى» ، حقيقة أنها لم تكن المرأة الوحيدة أو الأولى بين الفراعنة ، ولكنها كانت بلاشك المرأة المصرية الأولى التى خلفت آثارا خاصة بها ، ودون التاريخ العالمى اسمها على صفحاته كشخصية تاريخة فذة. واختارت لنفسها اسما للعرش ، باعتبارها فرعون أنثى وهو «معا كارع» ومعناه :الحق هو روح رع» . أما اسمها «حتشبسوت» فقد ترجمه «زيته» كالآتى : «ذروة النساء النبيلات» . ومن الصعب علينا أن نحدد مدة حكمها من ١٥٠٠ إلى ١٤٨٠ ق.م وتعتبر مدة حكمها فترة هدوء وسلام بعد حروب «تحوتمس الأول» وعهد بناء الدولة العظمى فى الداخل . ويتبين بوضوح أن الملكة خافت أن تنصب زوجها تحوتمس ، الشديد النشاط والحيوية ، قائدا على رأس جيش من الجيوش .

ومما يلفت النظر فى التماثيل الكبيرة ، وفى الأجزاء المهشمة من التماثيل التى عثر عليها بين أطلال معبد الدير البحرى الذى شيدته ، أن الملكة أصرت على تمثيل نفسها بزى الرجال، وعلى أن تتحلى بالتيجان والرموز الملكية الخاصة بالفراعنة الذكور ، وتبعا لذلك نجدها تتحدث فى نقوش هذا المعبد بضمير الغائب بدلا من ضمير الغائبة . ويتضح من هذا أنها أرادت أن تبرز فى كل مكان صفتها كفرعون حقيقى له شرعية كاملة. وغير هذا فقد عملت على جذب أولى الحظوة والمقربين من رجالات الدولة إلى بلاطها وكان وزيرها الأول رجلا لا ينتمى إلى طبقة النبلاء ، وهو

«سنموت» أو «سننموت» الذى خلد اسمه على صفحات التاريخ بتشييده المعبد ذى الشرفات المتعددة فى منطقة الدير البحرى . وكان «سنموت» هو المربى للابنة الوحيدة «لحتشبسوت» وهى الأميرة «نفرو رع» ولقد عثر على تماثيل كثيرة تمثلها مع «سنموت» . وعثر على مقبرتين «لسنموت» إحداهما شيدها عندما كان موظف عاديا على الطراز الخاص بهذا العصر وزخرف جدرانها بكثير من المناظر الجميلة الزاهية الألوان ، إلا أنها هشمت تماما ابان الحملة القاسية التى شنها «تحوتمس الثالث» فيما بعد ضد «حتشبسوت» وأعوانها . أما المقبرة الثانية فقد كشف عنها أخيرا أثناء أعمال الحفر والتنقيب التى قامت بها بعثة متحف المتروبوليتان بمنطقة الدير البحرى . وهى تقع على مقربة من المعبد وتتميز برسوم تطابق الرسوم التى كانت وقفا على مقابر الملوك بطيبة. وهذه المقبرة بالذات لم ينته العمل فيها كما أنها لم تستخدم للدفن . ومن الواضح أن «سنموت» كان يُمنِّى نفسه بالوصول فى يوم ما إلى منصب الأمير الزوج ، ومن يدرى فلعله كان يأمل أن يصبح فرعون لمصر . بيد أن القدر كان قد أعد لمثل هذه الأحلام بالسيادة والسيطرة خاتمة مروعة قبل الأوان .

أما الأثر البنائى العظيم الذى وصل إلينا من عصر الملكة «حتشبسوت» فهو المعبد ذو الشرفات الذى شيدته فى منطقة الدير البحرى والذى يقع فى القسم الشمالى من جبانة طيبة. أقيم هذا المعبد ملاصقا للجانب الشمالى لمعبد الأسرة الحادية عشرة الذى تحدثنا عنه آنفا ، وكان أمون هو الإله الأول الذى قدس فى هذا المعبد ونجد إلى جانبه الإلهة «حاتحور» ربة الجبانة فى طيبة وكذلك الإله «أنوبيس» رب التحنيط ، وخصص المعبد كذلك لإقامة الطقوس الجنازية للملكة ولأبيها «تحوتمس الأول». وتمكن مهندس هذا المعبد من أن يتبين نواحى الضعف فى بناء معبد الأسرة الحادية عشرة فتجنبها بطريقة تدل على تمتعه بحس فنى مرهف . فجعل المعبد الجديد يرتفع فى ثلاثة مدرجات ، يتصل كل منها بالآخر بواسطة طريق صاعد سهل المرتقى متدرج الارتفاع، مسندا هذه المدرجات الثلاثة التى تبدو على هيئة شرفات متتابعة إلى الجدار الصخرى المرتفع عموديا ، والذى ينتهى إليه الوادى، بحيث حفر فى هذا الجدار «قدس الأقداس» الذى ينتهى به المدرج الثالث ومجموعة من المقصورات والمشكاوات . أما المدرجان الأسفل والأوسط فيتميزان بقاعات أقيمت أسقفها على أعمدة مربعة وبمناظر كثيرة تحلى جدرانها ، نخص بالذكر منها المناظر المرسومة على المدرج الأوسط فإن لها طابعا تاريخيا على جانب كبير من الأهمية . إذ نجد على جدران الجزء الجنوبى منه مناظر الرحلة المشهورة التى أرسلتها الملكة إلى بلاد العطور

والبخور أى إلى «بونت» ، وهى البلاد التى ورد ذكرها فى نصوص الدولة القديمة ، ونستطيع الآن أن نحدد موقعها اعتمادا على خصائصها الجغرافية وما تنفرد به من حيوان وهذا الموقع هو الساحل الافريقى لمنطقة الصومال ، وليس الساحل الجنوبى لبلاد العرب، وينتسب سكانها إلى الجنس الحامى مثل المصريين، وكانوا يعيشون فى أكواخ ترتفع على قوائم خشبية يقيمونها بجوار شاطئ البحر. والذى استطاع الفنان أن يرسم أسماكه بطريقة يقيمونها بجوار شاطئ البحر، والذى استطاع الفنان أن يرسم أسماكه بطريقة واقعية جميلة. ويرى الناظر كيف تنقل أشجار البخور إلى السفن المصرية التى وصلت إلى هناك مخترقة البحر الأحمر، كما يقرأ فى النصوص التى تصاحب هذه المناظر كل الخطوات التى تمر فيها مثل هذه البعثات منذ البدء حتى ترجع إلى مصر وتزررع الأشجار فى الحديقة الكبرى التى تتقدم معبد الدير البحرى . ونرى أيضا فى هذه المناظر أمير بونت وزوجه يستقبلان أفراد البعثة المصرية بالتحية ، وقد بدت الأميرة فى هيئة امرأة زنجية مكتنزة الأرداف ولا تخلو صورتها من تعبير فكاهى . ولقد أخذ المصريون فى ذلك العصر يتصلون لأول مرة فى تاريخهم بأفراد من الجنس الزنجى الخالص . وفى الجانب الشمالى من المدرج الأوسط نجد مناظر ولادة حتشبسوت من أبيها الاله «آمون»، ولقد بدت هذه المناظر مرسومة بطريقة لا تقل اتقانا عن التى سبق ذكرها . وأريد من هذه المناظر توضيح شرعية حتشبسوت المرأة فى أن تتولى عرش حوريس، وصدم هذا المصريين فى مشاعرهم على ما يظن، أو على الأقل ارتسمت على شفاهم ابتسامة كلها سخرية.

ويبدو بوضوح أن حكم الملكة «حتشبسوت» لقى نهاية مفزعة على يد زوجها وأخيها الأصغر «تحوتمس الثالث» ، ومما يدل على ذلك : التدمير المروع الذى أجرى على النقوش فى معبد الدير البحرى نفسه ، وتهشيم كل التماثيل الخاصة بالملكة والتى أقيمت فى المعبد ، وتخريب مقبرة «سنموت» الذى اختفى وأصبح أثرا بعد عين، وكذلك الأميرة الصغيرة ابنة الملكة التى كان يشرف على تربيتها . وكان قد أعد للملكة مقبرتين، احداهما فى مكان قصى واختير بين الصخور بعيدا عن الأنظار ، لحفر مدخل المقبرة التى تمتد فى ممرات طويلة وتنتهى بحجرة الدفن حيث عثر على تابوت حجرى خلوا من الجنة ، أما المقبرة الثانية فقد كانت فى وادى الملوك حيث عثر فيها على تابوت فارغ لها بجانب تابوت آخر لوالدها . وعلى هذا لم يعثر على جثتها فى كل من المقبرتين، ويغلب على الظن أنها قد عبث بها واختفت كنتيجة للحملة الشعواء التى شنها عليها أخوها تحوتمس الثالث .

وبعد تنحية «حتشبسوت» والاستئصال الكامل لذكراها، استقل «تحوتمس الثالث» بشئون الحكم وكان قد أصبح رجلا يافعا . وأخذ يحسب سنى حكمه منذ تولت «حتشبسوت» ، ونتفق مع «ادوارد ماير» على أن هذه الفترة بدأت من حوالى عام ١٥٠٢ ق.م وانتهت عام ١٤٤٨ ق.م ، وكان اسم العرش الخاص به هو «من خبر رع» وكان البابليون ينطقونه كما ورد فى نصوصهم «ماناخبيريا». وعقب انفراد «تحوتمس الثالث» بالسلطة مباشرة ، خرج على رأس جيش كبير، قاده من حصن «سيلا» عند الحدود (تقع حاليا بالقرب من القنطرة على قناة السويس) متجها صوب فلسطين ، حدث هذا فى السنة الثالث والعشرين من حكمه ، أى عام ١٤٤٠ ق.م، وذلك بعد أن استقل قسم كبير منها جهارا فى مدة الحكم المسالم لحتشبسوت ، وبعد أن تم فتحها على يد تحوتمس الأول. وأدت الحملة الأولى إلى معركة «مجدو» التى انتهت بالاستيلاء على هذا الحصن المنيع الذى يقع على الحافة الجنوبية لسهل «جسريل» (ويسمى اليوم «تل المتسلم». هذه الحملة وجهت ضد الحلف الذى تكون من كثير من أمراء المدن الفلسطينية والسورية الذين حاولوا التحرر من السلطان المصرى، وسجل تحوتمس الثالث وصف هذه المعركة واجتياز جيشه لجبل «الكرمل» بشئ من التفصيل فى حولياته التى نقشها على جدران معبد الكرنك، وهذه الحوليات تعتبر الأولى من نوعها فى تاريخ البشرية إذ أنها بمثابة تقارير حربية تشبه إلى حد كبير اليوميات التى يكتبها قادة الجيوش فى عصرنا الحالى عن المعارك التى يخوضونها، وليس من شك فى أن هذه الحوليات قد أمدت المؤرخ الحديث بمادة تاريخية على قدر كبير من الأهمية. وعلى رأس الحلف السالف الذكر كان أمير قادش وهى المدينة التى تقوم على مسافة بعيدة إلى الشمال أى على نهر الأورونط (العاصى) ، وهذا الأمير بالذات لاذ بالفرار حين وقع حصن «مجدو» فى أيدى المصريين. ونحن نعلم من حوليات تحوتمس الثالث أن الملك قام بست عشرة حملة على سوريا جاء وصفها بعد الحملة الأولى فى أسلوب موجز مقتضب وهذا أمر نأسف له كثيرا . ونظرا لأن هذه الحملات كانت تتحرك باستمرار فى شهور الصيف فإننا نجد الملك يوجه جهده فى الفترة الباقية من العام لتنفيذ المشروات الأخرى مثل قرار الأمن فى المناطق التى تم غزوها ، وكذلك تشييد محطات للأسطول المصرى على طول الساحل السورى وملء المخازن المصرية بالذخيرة والمؤن.

وكان الهدف من كل هذه الحملات القضاء على دويلات المدن الكثيرة العدد فى شمالى سوريا، وبخاصة دويلة مدينة قادش الواقعة على نهر العاصى وكانت تعتبر من أقوى الحصون بل وكانت تمثل المركز الدائم لمقاومة السيادة المصرية ، ويبدو أن هناك هدفا آخر وهو إنشاء خط دفاع قريب

من حدود دولة «الميتانى» القوية والطموحة التى أسسها الخوريون والتى أخذت تهدد المصريين وبخاصة بعد أن مدت سلطانها على شمال سوريا وفى المناطق الواقعة إلى الغرب من الفرات. واستطاع المصريون الاستيلاء على حصن قادش وتخريبه فى الحملة السادسة، بينما استطاعوا فى الحملة الثامنة أن يصلوا إلى نهر الفرات ثم مدينة حلب وقرقميش، إلا أن هاتين المدينتين لم تبقيا فى حوزة المصريين إلا لفترة قصيرة . وأقام «تحوتمس الثالث» حينذاك لوحة كبيرة عند الفرات بجانب اللوحة القديمة التى كان أبوه «تحوتمس الأول» قد أقامها هناك . أما الحملات الأخرى فقد وجهها الملك ضد دويلة «نهوشة» فى شمال سورية وكانت عنيدة فى تمردها ، أما خاتمة الحملات التى خرج بها الملك فى العام الثانى والأربعين من حكمه (١٤٦١ق.م) فكانت ضد مدينة «قادش» وعمل المصريون على تخريبها مرة ثانية .

وهناك كلمة أخرى نقولها بمناسبة الحديث عن حملات تحوتمس الثالث، وهى أن الجيوش فى ذلك الوقت كانت صغيرة العدد ، يؤكد ذلك الأعداد الصغيرة من الأسرى والقتلى التى كانت تذكر بعد كل معركة، وكانت هذه الغزوات تأخذ فى الغالب شكل غارات وكثيرا ما كانت شاقة وطويلة الأمد بسبب محاولة الاستيلاء على الحصون المنيعة المقامة على مرتفعات جبلية. وكانت العربة والحصان ، وكلاهما دخل مصر فى عصر الهكسوس ، قد أصبحتا من الأدوات الحربية التى استقر استعمالها فى عصر «تحوتمس الثالث» . ولعبت عربة القتال فى ذلك الوقت نفس الدور الذى كان يلعبه «سلاح الفرسان» فى الجيوش الأوروبية الحديثة حتى الحرب العالمية الأولى، أما قوات الفرسان بالمعنى الصحيح فلم تكن قد ظهرت إذ ذاك فى جيوش الشرق القديم.

وتقدم لنا مقابر العظماء فى طيبة صورة مليئة بالحياة لذلك العصر الزاهر وكثير من هذه المقابر تخص موظفين وضباطا عظاما ، سجلوا على جدرانها بعضا من المغامرات التى اشتركوا فيها أثناء حملات «تحوتمس الثالث» ، وإن كان هذا التسجيل قد دون بأسلوب «اليوميات» إلا أنه لم يعين الغزوة التى حدثت إبانها المغامرة. ولنضرب لذلك مثلا ما سجله القائد «امنمحب» فى مقبرته عن اشتراكه فى حملة صيد الفيلة شمالى سوريا وأظهر شجاعة فائقة أمام الملك، ثم ما قاله عن قتله لفرس غير مستأمنة أطلقها أمير قادش عمدا أثناء حصار المصريين لحصنه وذلك لتوقع الاضطراب بين خيل الجيش المصرى. وتلقى مقابر طيبة من ذلك العهد ضوءا ساطعا على النفائس المختلفة التى كانت ترد على قصر فرعون بصفة «خراج» أو «هدايا» يحملها السفراء الأجانب وبخاصة من السوريين الذين ازدحمت المقابر بصورهم ، أما سكان جزيرة كريت وهم الذين أطلق عليهم المصريون

اسم «كفتى» والذين تحدثنا عنهم فيما سبق ، فقد ورد ذكرهم فى أغلب الأحيان مع السوريين، ومن أجل هذا يود البعض أن يعتبر شعب «كفتى» هم سكان جزيرة كريت، وسكان مناطق قريبة من سوريا مثل «فينيقيا » ، وكثيرا ما نجد بين السوريين من يتميز بملابس حيثية، ولابد أنه كان من ذلك الشعب الذى يقطن آسيا الصغرى ، والذى بدأ يلعب دوره على المسرح السياسى فى عصر « تحوتمس الثالث» ورأى المصريون فى زيه القومى زيا لم يعهدوه من قبل.

ويبدو أن غزوات «تحوتمس الثالث» التى استمرت عشرين عاما فى سورية انتهت بابرام معاهدة نصت على احتفاظ الميتانيين بمناطق شمال سوريا مع مدينتى حلب وقرقميش، وضمنت للمصريين طريقا إلى الفرات مع الاحتفاظ بجميع الأراضى الساحلية من فلسطين إلى مصب نهر الأورونط شمالا ، أى الساحل الفينيقى برمته وما يتبعه من مناطق الأشجار التى كانت دائما على جانب كبير من الأهمية لمصر بسبب ما تستورده منها من خشب الأرز. أما دويلات سوريا الأخرى فقد فرضت مصر عليها الخراج ، ومن بينها بلاد «حيتا » (أى الحيتيين) التى أرسلت إلى مصر خراجا أهم عناصره «الفضة» ، حدث هذا دون أن تقع حروب بينها وبين مصر . وقامت نفس العلاقات مع دولة أشور التى تقع على نهر دجلة ، ومع بابل وكذلك مع جزيرة قبرص. وتملأ قوائم هذا الخراج بعناصره المختلفة المساحة الكبرى من الحجرتين اللتين خصصت جدرانهام لتسجيل نصوص حوليات تحوتمس الثالث بمعبد الكرنك . وتطورت علاقات مصر مع دولة الميتانى فى العصور التالية وساد السلم بينهما إلى درجة من تلك الحروب الطويلة الأمد، أنه لا توجد هناك قوة فى بلاد الشرق الأدنى تستطيع أن تواجه الجيش المصرى الذى نال تدريبا عسكريا ممتازا ، وفاز بقيادة ملك عبقرى هو فرعون مصر العظيم .

وكان «ادوارد ماير» موفقا غاية التوفيق حين أشاد بمواهب «تحوتمس الثالث» وبشخصيته القوية التى يرجع إليها تشييد هذه الامبراطورية العالمية المصرية الأولى والتى امتدت- رغم قلة اتساع رقعتها – من مصب نهر الأورونط (نهر العاصى) شمالا إلى مدينة نباتا فى بلاد النوبة جنوبا ، وبلغ امتدادها مسافة ٣٢٠٠ كيلو مترا تقريبا ، و «ادوارد ماير» على حق حين ينوه بملامح وجه هذا العاهل ، كما تبدو فى التماثيل التى وجدت له ، فيقول أنها توحى «بحيوية وصراحة ، واطمئنان نفسى فى شخصيته» لقد حاول أن يطوى تحت جناحه أمراء الدويلات المغلوبة ، بعد أن أخضعهم بالعفو عنهم وبذل الكرم لهم وذلك بأن أحضر أولادهم إلى البلاط المصرى فى طيبة

مركز الثقافة العالمية، حيث يتلقون الدراسات فى الثقافة المصرية ويصبحون أتباعا مخلصين لدولة الفراعنة. وعلى هذا النحو تمت أواصر الصداقة والخضوع بين الأسرات الحاكمة فى فلسطين وسوريا وبين فرعون والإدارة المصرية، ونجد صدى هذه العلاقة بعد خمسين سنة من هذا التاريخ فى رسائل تل العمارنة.

وخصص «تحوتمس الثالث» الاثنتى عشرة سنة الأخيرة من حكمه ، فى تنظيم شئون إمبراطوريته وفى اتمام منشئاته المعمارية وبخاصة فى المعبد الرئيسى لأمون بالكرنك. وهو المعبد الذى كان يرد إليه ما لا يحصى من الهدايا والخراج ووصلت ثروته إلى درجة لا وصف لها . ولا زلنا حتى اليوم يتملكنا الإعجاب عند رؤية «بهو الأعياد» المحتفظ ببهائه ورونقه ، والذى أريد به أن يبدو فى صورة سرادق ضخم للأعياد والحفلات . وإلى جواره نجد عددا من الغرف الصغيرة نقشت على جدرانها رسوما لحيوانات وطيور ونباتات مختلفة كانت جديدة وغريبة على المصريين، عرفوها فى الغزوات السورية ، وهى مرتبة ومنسقة بنظام يضاهى الترتيب الذى نراه فى كتاب تعليمى حديث لعلم الأحياء تقريبا . وينبغى لنا أن نقرر بالنسبة إلى فن النقش فى عهد «تحوتمس الثالث» ، أن هذا الفن يبدو فى كل مكان بسيطا ،رفيعا بالغا أقصى الجمال والبهاء ، ولقد بينا من قبل السبب فى عدم ظهور لوحات كبيرة لمناظر المعارك ، وذلك لأن طراز النقش كان يحتم أن يعرض كل شئ موضوعيا ومفردا ، ولم يبق إلا ذلك المنظر التقليدى القديم الذى يبدو فيه فرعون شاهرا سيفا مقوسا أو دبوسا للقتال يقتل به مجموعة كاملة من الأعداء ربطت إلى بعضها البعض وقد أمسك بهم الملك من خصل شعرهم.

وقبل أن نسترسل فى عرض أحداث التاريخ فى البلاد المتاخمة لمصر، إبان هذه الفترة ، يجدر بنا أن نلقى نظرة سريعة على النظم الداخلية، تقع عاصمة هذه الامبراطورية فى نقطة تكاد تتوسط البلاد كما حسب ذلك ادوارد ماير بالكيلومتر- ابتداء من أقصى الشمال حتى أقصى الجنوب، ولكن هذه العاصمة بالنسبة إلى أرض مصر نفسها تقع فى مكان بعيد إلى الجنوب من البلاد. ومدينة طيبة هى الخلية التى تكونت فيها نواة الدولة الحديثة. وسنرى فيما بعد أن انتقال «أمنوفيس الرابع» إلى العمارنة كان سببا فى التخلى عن طيبة إلى الأبد ، كعاصمة للدولة ومقر للملك، وأن الحكومة المركزية استقرت ثانية فى أواخر الدولة الحديثة ، أى منذ الأسرة التاسعة عشرة ، فى مدينة منف ، أى كما كانت عليه الحال فى الدولة القديمة ، أو أنها انتقلت

إلى مدن جديدة أخرى فى الشمال الشرقى للدلتا ، كان موقعها الجغرافى أكثر صلاحية من الوجهة العسكرية . ويمثل منصب الكاهن الأعظم للاله آمون فى الكرنك أعلى المناصب الدينية، وكان لقب هذا الكاهن الذى يتمتع بأعلى درجات التقديس الدينى، هو «الخادم الالهى الأول لآمون بالكرنك» . وهذه الاضافة المحددة للمكان هى موضع الأهمية بالذات، إذ كانت هناك معابد أخرى للاله آمون فى البلاد . ونحن نعرف سلسلة الكهنة العظام كاملة وذلك عن طريق مقابرهم فى طيبة والتى تعتبر فى الغالب من بين المقابر الضخمة الغنية برسومها ، ولم يقتصر الكهنة منصب وزير المالية ، وتميزوا إبان عصر الأسرة الثامنة عشرة بإخلاصهم الشديد للعاهل . ويقابل هؤلاء آخرون تقلدوا منصبا لقب صاحبه بلقب مماثل وهو «رئيس خدام الاله صاحب مصر العليا والسفلى» إلا أن هذا المنصب كان دنيويا بحتا إذ يشبه من نواح عدة منصب وزير التربية والتعليم. ولابد أن ثروات معبد آمون فى الكرنك كانت قد بلغت حدا غير عادي، وأنها أخذت تزداد نموا فى عصر الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، أى فى العصر الذى كانت الحكومة فيه قد انتقلت منذ مدة طويلة إلى الدلتا. وكثيرا ما كانت منازل الخزانة والمصانع التابعة لمعبد آمون فى الكرنك تصور فى رسوم مقابر طيبة.

وبعد ، فإن معرفتنا بنظام الإدارة فى الدولة الحديثة أقل بكثير من درايتنا به فى الدولة القديمة، وذلك لأن نقوش المقابر فى الدولة الحديثة كان عليها أن تتحدث عن شئون الحروب والخراج والمنشئات الجديدة، بحيث لم يبق مكان للحديث عن شئون الإدارة الداخلية المعتادة. ويرأس الجهاز الحكومى لشئون الإدارة وزيران، أحدهما لمصر العليا والآخر لمصر السفلى وكانت كل خيوط الادارة المتشعبة فى البلاد تجمع فى مركز كل منهما . ونعرف الكثير عن وزارة الجنوب كما تدلنا على ذلك النقوش التى وردت على جدران مقبرة «رخ مى رع» وزير «تحوتمس الثالث» التى وصف فيها اختصاصاته . كان الملك نفسه هو الذى يعين الوزير، ونعرف حادثا من عصر الأسرة التاسعة عشرة ومن عصر رمسيس الثاني بالذات أن الاله آمون نفسه كان يوحي للملك باسم وزيره . ومما يؤسف له أنه لم يصلنا من عصر الدولة الحديثة ، ولا من أى عصر آخر، شئ يشبه القانون المنظم ، كما وصل إلينا قانون «حمورابى» فى بابل . حقيقة نجد فى مقبرة «رخ مى رع» رسما لعدد كبير من لفائف البردى موضوعة فى صناديق كبيرة ، كانت لا شك تحوى تفاصيل القانون المصرى، إلا أننا للأسف لا نعرف عنها شيئا . وهذا هو السبب فى قلة ما نعرفه عن القانون المصرى القديم.

ومما يلفت النظر حدوث تطورات واضحة وبشكل تدريجى فى بعض الوظائف فى عصر الأسرة الثامنة عشرة، فمثلا كانت وظيفة الكاتب منذ أقدم العصور أسمى الوظائف وأجدرها بالاحترام في مصر، وهناك وثيقة أدبية مشهورة ، يبدو أنها ظهرت فى عصر الدولة الوسطى، وهى تقلل من شأن كل ما كان هناك من حرف مختلفة ، ولا سيما الحرف اليدوية ، ومهنة الخدمة العسكرية ، ولكنها تقدس مهنة الكاتب، أى الموظف . إلا أن الأمر أخذ صورة أخرى نتيجة للغزوات الكثيرة التى قام بها «تحوتمس الثالث»، حين عرف المصريون منذ ذلك العهد كيف يقدرون قيمة الضباط الممتازين ، وانتهى الأمر منذ أواخر الأسرة الثامنة عشرة بأن فاز الرؤساء العسكريون بالكفة الراجحة، وسيأتى الحديث عن هذا الموضوع بإسهاب عند معالجة الأسرة التاسعة عشرة.

كان فرعون يقوم على رأس الكهنة، والإدارة المدنية، والجيش سيدا مطلقا «هذا حقه الآن كما كان دائما فى الماضى، وهو يعتمد فى ذلك على مركزه المقدس كابن الاله «آمون رع»، وهما الالهان اللذان اتحدا فى ذلك الوقت وتكون منهما اله واحد. واعتبر الملك أنها تقدم له مشاعر التقديس فى كل البلاد الأجنبية الخاضعة للسلطان المصرى وبخاصة فى بلاد النوبة ، وتأكدت أيضا قدسية فرعون بوصفه الها عندما جرت العادة منذ عصر الأسرة الثامنة عشرة بأن يتزوج الملك من سيدة تلقب بلقب «الزوجة الالهيه لآمون» ، وهذا اللقب كان دائما يعطى لابنة الملك التى اختيرت لتصبح فيما بعد ملكة وبذلك تتأكد صفتها الملكية المحضة على أساس أنها تنحدر من دماءه ملكية خالصة. هذا العرف ساد الدولة طوال عصر الأسرة الثامنة عشرة، ولقد نالت «حتشبسوت» هذا اللقب ، وبقى معمولا به حتى عصر الملكة «موت أم أوا» أم الملك «أمنوفيس الثالث» ، إلا أن هذا العرف انقطع حين اختيرت كل من الملكتين «تيه» و «نفرتيتى» اللتين لم تمتا بصلة إلى الدماء الملكية، ولم يحى هذا التقليد إلا فى الأسرة الاسعة عشرة ، ثم صارت له أهمية خاصة فى العصر المتأخر ، كما سنرى ذلك فيما بعد .

وإذا نظرنا إلى مجريات الأمور نظرة سطحية عامة، وجدنا الملكية والجهاز الإدارى فى البلاد فى الأسرة الثامنة عشرة شبيهة نوعا ما بصورتهما فى الدولة القديمة ولكن فى واقع الأمر الاختلاف بينهما كبير وذو أثر عميق ، ولا غرابة فى ذلك فإن زهاء ألف سنة تفصل بين كلا العصرين. غير هذا فقد نهضت مصر إبان عصر الأسرة الثامنة عشرة ووصلت إلى مرتبة الدولة العالمية ، وترتب

على ذلك أن اتسعت رقعة النظر المصرى وامتدت إلى جميع أطراف العالم القديم. وكان «ادوارد ماير» على حق حين قارن هذه الحالة بما حدث فى فرنسا حين حكمها لويس الرابع عشر حكما استبداديا وحين حكمها شارل الأكبر ، ويفصل بين الحكمين مدة ألف سنة.

توفى تحوتمس الثالث حوالى نهاية السنة الرابعة والخمسين من حكمه ، أى عام ١٤٤٨ ق.م. وتحيط صخور عالية مدخل مقبرته المنقورة فى منطقة وادى الملوك. أما حجرة الدفن فإنها لا تتميز بجمال النقوش التى اعتاد الملوك ملء جدران مقابرهم بها. وجلس على العرش بعده ابنه الملك «أمنوفيس الثانى» الذى اختار اسما للعرش هو «عاخبرو رع» ، ومما يوسف له أنه لم تصلنا نصوص ذات تأريخ ثابت لهذا الملك، ونظرا لأننا نعرف بعضا من التواريخ الخاصة بملوك الجزء الأخير من الأسرة الثامنة عشرة وذلك عن طريق بعض الوثائق الحيثية، ولأننا نعرف على الأقل من مانيتون أن مدة حكم «تحوتمس الرابع» كانت تسع سنوات فقط ، لذلك فإننا نستطع أن نحدد للملك «أمنوفيس الثانى» فترة حكم استمرت سبعا وعشرين عاما ، أى من عام ١٤٤٨ إلى عام ١٤٤٢ ق.م ، وبالرغم من هذه الفترة الطويلة التى بقى طوالها الملك على العرش فإننا لم نحصل على معلومات كثيرة تدل على نشاطه وأعماله . لقد حدث تمرد على مصر فى اقليمى فلسطين وسوريا وذلك بعد تولى الملك شئون الحكم مباشرة، إلا أنه استطاع أن يخمده بقسوة وقوة، وتغلغل شمالا وعبر نهر الأورونط ووصل إلى نهر الفرات، وتمكن من أن يعيد السكينة تماما فى إقليم سوريا الذى أخضعه والده ، ويبدو أنه استخدم فى توطيد حكمه هناك قسوة تقشعر منها الأبدان، نعرف ذلك عن طريق نقش له مسجل على أحد المعابد النوبية: لقد صلب جثث سبعة من الأمراء السوريين الذين قتلهم على مقدم السفينة الملكية، وعلق الجثث من أقدامها وجعل رءوسها إلى أسفل ، واخترقت السفينة القطر المصرى كله ، ثم علق ستًا من هذه الجثث على أسوار طيبة ، وأمر بإرسال الجثة السابعة إلى نباتا فى أقصى الجنوب وعلقها هناك على هذا النحو . ويبدو أن «أمنوفيس الثانى» كان رجلا رياضيا ذا قوة جثمانية خارقة ، ويدل على ذلك بعض النصوص التى تؤكد باستمرار هذه الصفات عنه، فهو يفخر بأنه لا يوجد بين الجند فى جيشه بل ولا بين أمراء سوريا من يستطيع أن يشد قوسه، وعثر حديثا على لوحة حجرية كبيرة أقيمت فى معبد صغير على مقربة من تمثال أبى الهول بمنطقة الجيزة، يتحدث نقشها فيما يتحدث عن قدرته الخارقة فى التجديف . وهكذا يبدو أن حكم هذا الملك قد انقضى فى سلام وبدون أحداث عظام.

وانقضى حكم ابنه وخليفته على نفس الوتيرة أى «تحوتمس الرابع» الذى اختار اسما للعرش «من خبرو رع» ، والذى استمر حكمه تسع سنوات (١٤٢٢ إلى ١٤١٣ ق.م) وتوفى هذا الملك فى الثلاثين من عمره ، ومع هذا فقد عرف عنه أنه أنجب ذرية كبيرة ، وأشهر آثاره اللوحة الجرانيتية الكبيرة المقامة بين ذراعى أبى الهول بمنطقة الجيزة، والتى تتحدث نقوشها عن «تحوتمس الرابع» وكيف أنه نام يوما حين كان أميرا فى ظل هذا التمثال ، فرأى فيما يرى النائم اله الشمس «رع حور آختى» يطلب إليه أن يزيل الرمال التى تراكمت حول تمثاله ، أى تمثال أبى الهول، وهكذا تعتبر هذه الحادثة بمثابة الأولى من نوعها فى إزالة الرمال عن أبى الهول، الأمر الذى تكرر من حين لآخر لكى تزال الرمال التى تتراكم بسرعة حول هذا التمثال. ومن الطريف أن نعلم أنه فى عصر الأسرة الثامنة عشرة كان الناس لا يعلمون شيئا عن «خفرع» مشيد هذا الأثر الضخم، واعتقدوا أن أبا الهول كان صورة من صور اله الشمس . وكان «تحوتمس الرابع» هو آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة الذى قاد حملة إلى ربوع سوريا ، كما أنه ذهب إلى بلاد النوبة وفاز هناك بنصر عظيم ، وهناك أثر عجيب سجلت عليه هذه الانتصارات ولا يزال محفوظا بالمتحف المصري، نقصد الغلاف الخارجي لعربة الملك الحربية وقد نقش فوقه منظران، فنجد على أحد الجوانب انتصاره على الآشوريين وقد استعمل فيه الأسلوب القديم المتوارث الذى يجعل الملك يبدو على هيئة أبى الهول وهو يطأ بأقدامه أعداءه ، وعلى الجانب الثانى نجد المنظر الآخر مرسوما على النمط الخاص بتصوير المعارك الحربية، وهو يصور حربه ضد النوبيين. إن هذه الرسوم التى وجدناها منقوشة على العربة الحربية لتحوتمس الرابع تعتبر النموذج الأول للأسلوب الفنى الذى ذاع وانتشر فى عصر الأسرة التاسعة عشرة فوق جدران المعابد . ومما يثير دهشتنا ولا زلنا لانستطيع تفسيره هو أن النموذج الأول لتلك المناظر الهائلة الحجم، كان مرسوما على مساحة ضيقة مثل غلاف العربة الحربية أو مثل الصندوق الصغير الذى عثر عليه فى مقبرة «توت عنخ آمون» .

وعاش تحوتمس الرابع فى سلام مع دولة الميتانيين ، بل تزوج من ابنة ملكهم الملكة «موت أم أوا» أم الملك «أمنوفيس الثالث» . و كانت هذه الزيجة قد تمت بعد أن خطبها سبع مرات ، فلم تحظ هذه الزوجة بمرتبة الزوجة الرئيسية .

٢- مصر فى عصر «أمنوفيس الثالث»

(١٤١٣ إلى ١٣٧٧ ق.م)

بلغت مصر ذروة قوتها ونفوذها العالميين فى عهد «أمنوفيس الثالث» الذى اختار اسما للعرش هو «نب معات رع» (رع هو رب الحق) والذى نطقه البابليون «نيموريا». وثابت من نقش سجل على جدران معبد الأقصر أنه ابن الملك «تحوتمس الرابع» والملكة «موت أم اوا» . ونعتبره خاتمة الفراعين العظام من الأسرة الثامنة عشرة فقد كان حفيدا لتحوتمس الثالث. وتمتع بمدة حكم طويلة استغرقت ستا وثلاثين سنة أمضاها كلها فى سلام كامل تقريبا ، ومن أجل ذلك درج البعض على إطلاق صفة «العظيم» عليه. وتناول الأستاذ «شتاينورف» دراسة حضارة عصره وتقدمها وازدهارها فى كتابه المعروف : Die Blutezeit des Pharaonenreiches »

لقد استطاع «امنوفيس الثالث» أن يجنى لمصر فى مدة حكمه الطويلة التى سادها السلم، ثمار المجهودات الضخمة التى بذلها أسلافه المحاربون بغزواتهم المتعددة فى الجنوب والشمال. وبالرغم من وجود لوحة كبيرة لانتصاراته كان قد أقامها فى طيبة وهى محفوظة الآن فى المتحف المصرى، لم ترد عن غزواته إلا أخبار غزوة واحدة وجهها فى العام الخامس من حكمه إلى بلاد النوبة، ومن المعروف أنه لم يرسل حملة واحدة إلى آسيا . وليس من شك فى أن الفن بلغ أقصى درجاته فى عصر هذا الملك وذلك بالنسبة إلى الدولة الحديثة، أما تطور الفن فى العصر التالى، أى عصر العمارنة فهو يعتبر - رغم كل ما فيه من سحر وبهاء - بدء الاضمحلال .

وأشهر الآثار المعمارية التى شيدت فى عصر «أمنوفيس الثالث» هو المعبد الذى بنى خصيصا للاله آمون بالأقصر . ويقع على مسافة ليست بعيدة إلى الجنوب من معبد الكرنك وتتجمع حول معبد الأقصر حاليا الأبنية الحديثة لمدينة الأقصر. واعتبر هذا المعبد قديما بمثابة حريم الاله آمون ، الذى كان مقره الرسمى فى معبد الكرنك وكانت تقام فى كل حفلة كبيرة بمناسبة زيارة الإله آمون . أى تمثاله ، لحريمه الجنوبى، وكان تمثاله يوضع فى قارب كبير تكثر الزخارف التى تحلى جنباته ، ويسير الموكب على صفحة النيل من الكرنك إلى الأقصر ثم بالعكس وكانت تلاحقه جموع غفيرة من الناس فوق الشاطئ. إن هذا المعبد الذى شيد على شاطئ النيل فى الأقصر يعتبر من العمائر

التى تمت أجزاؤها كلها فى عصر هذا الملك ، وهو لا يزال حتى الآن من أكثر المعابد تأثيرا فى الناس من حيث الروعة والجمال، إلا أن رمسيس الثانى ببنائه للفناء الذى يقع إلى الشمال من المعبد كان قد أفسد التناسق الجميل لمعبد أمنوفيس الثالث إذ خرج هذا الفناء عن المحور الأصلى للمعبد واتجه نحو الشرق، والأعمدة الجميلة التى شكلت على هيئة حزمة من سيقان البردى وهى التى ترتفع فى وسط صالة الأعمدة المحاذية للنيل قد بلغت حدا من الدقة والرشاقة بحيث تبدو للناظر كما لو كانت غابة احتشدت فيها الأعمدة الحجرية ، وتتميز النقوش التى زينت جدران الحجرات بدقة وجمال يفوق الوصف ، ومن بين هذه النقوش صورة طبق الأصل لمناظر الولادة التى كانت «حتشبسوت» قد سجلتها على جدران معبدها ولكن الاله آمون فى هذه المرة، كما ذكرت صراحة فى هذا النقش، اجتمع مع الملكة «موت ام- اوا» متقمصا صورة الملك تحوتمس الرابع، وذلك لإنجاب أمنوفيس الثالث. وتوجد غير هذا المعبد منشئات اختفت الآن بعد أن تهدمت . ونضرب لذلك مثلا القصر الذى كان الملك يسكنه عند إقامته فى منطقة طيبة الغربية، ويقع مكانه إلى الجنوب فى معبد مدينة هابو . ويطلق على موقعه الآن اسم «الملقطة» هذا القصر اختفى ولم يبق منه إلا بعض قطع جصية تحوى زخارف جميلة، لها أهمية كبرى بالنسبة إلى تاريخ الفن وإلى الأساليب الزخرفية التى انتشرت فى العصر التالى لها أى عصر تل العمارنة . وشيد الملك معبدا ضخما لإقامة الشعائر الجنازية الخاصة به ، واختفى أيضا ولم يبق منه إلا التمثالان المعروفان باسم «تمثالى ممنون» ، وكانا فى الأصل يقومان أمام مدخل البيلون الموصل للمعبد ، وأصبحا الآن يرتفعان وسط أرض زراعية خصبة ويمثلان أمنوفيس الثالث جالسا على عرشه أما مقبرته فقد اختار لها مكانا نائيًا يعرف باسم «وادى الملوك الغربى» وهو يقع فى منطقة أكثر وحشة وجدبا من الوادى الرئيسى للملوك. ولا تتميز هذه المقبرة بشئ . وعاصر «أمنوفيس الثالث» رجل تقلد أكبر المناصب فى مصر وهو «أمنوفيس» الذى اعتاد الناس ، للتفرقة بينه وبين الملك، أن يقرنوا اسمه باسم أبيه أى «أمنوفيس - حابو» ، واستطاع هذا الرجل أن يفوز بحق تعذر على غيره أن يناله وهو اقامة مقبرة بمعبد ملحق بها (أى ليس كالمقابر الصخرية العادية) فى جبانة طيبة الغربية، ولقد عثر عليها رجال البعثة الفرنسية قبيل الحرب العالمية الثانية. وهناك عدة تماثيل جميلة لأمنوفيس- حابو هذا ، تمثله وهو فى جلسة الكاتب ، وتعتبر من أشهر القطع الأثرية الجميلة.

وللتعرف على مدى تفوق أساليب الفن فى عصر أمنوفيس الثالث ، علينا أن نلقى نظرة على نقوش مقابر موظفى هذا العصر فى جبانة طيبة، ولعل من أهمها مقبرتى «خع - أم - حيت»

و«راموزة» . إن هذه النقوش قد بلغت ذروة الجمال والدقة سواء فى خطوطها اللينة أو فى التناسق بين نسبها ، وليس من شك فى أن هذه الذروة لم يصل إليها الفن فى أى عصر آخر من عصور التاريخ المصرى حتى فى عصر الدولة القديمة الشهيرة بفنها الجميل. ولقد سار فن نحت التماثيل في هذا العصر فى نفس الطريق ووصل إلى ذروة الدقة والجمال.

وإذا كان «أمنوفيس الثالث» قد جعل من نفسه إلها قدس فى المعابد وبخاصة معابد بلاد النوبة ، إلا أنه حدث فى عصره بعض الأحداث التى تدل على نوع من التحلل من القديم وهى بالذات التى كانت بمثابة المقدمة لما وقع فى مصر فى عصر خليفته اخناتون . ونضرب لذلك مثلا «الأسلوب الواقعى» الذى ظهر على أحد التماثيل الخاصة به ، ثم الطريقة التى اتبعها فى اظهار الملكة فى كل مناسبة كانت الزوجة الرئيسية هى الملكة «تيه» ، ابنة من الشعب انحدرت من أب وأم عملا فى بعض الوظائف البسيطة فى الدولة، إلا أن زوج ابنتيهما ، أى أمنوفيس الثالث ، أغدق عليهما من أنواع التكريم، حتى وصل إلى اعطائهما الحق فى أن يدفنا فى إحدى مقابر وادى الملوك التى كانت مخصصة فيما عدا ذلك لدفن الفراعنة . ولا بد أن هذه الزوجة الرئيسية هى الملكة «تيه» ، ابنة من الشعب رسميا أمر هذا الزواج، ولما لم تكن هناك فى ذلك الوقت وسائل كافية للاعلان العام شبيهة بالصحف اليومية فى وقتنا الحاضر، فقد اضطر الملك إلى صنع «جعلان» (جعارين) كبيرة الحجم، ونقش على باطنها هذا الخبر ثم أمر بتوزيعها فى أنحاء البلاد ، والناس على حق إذا قارنوا بين هذه الجعلان ، التى لم يصدر مثيلا لها إلا فى عصر «أمنوفيس الثالث» وبين ما نصدره حاليا من القطع النقدية التذكارية . وكثر بعد ذلك اصدار هذه الجعلان التذكارية فى كل مناسبة، فمنها ما يسجل فوز الملك فى صيد الأسود والثيران الوحشية ، ومنها ما يسجل حفر بركة متسعة لزم اعدادها لرحلات اللهو الملكية، ومنها أيضا جعلان صدرت بمناسبة زواج الملك من الأميرة «كيلوخيبا» وتكتب الكتب القديمة اسمها «جيلوخيب» احدى بنات الملك الميتانى، وأنها وصلت إلى مصر يصحبها ٣١٧ من بنات بلاطها، وسميت هذه الأميرة باسم مصرى واختفت بعد ذلك فى البلاط المصرى. ومن الطريف أن نعلم أن هذه التسجيلات التذكارية كانت تنوه باستمرار أن الملك الشرعية للبلاد هى «تيه» « وفى أواخر عصر هذا الملك تزوج من أميرة ميتانية أخرى اسمها «تادو خيبا» .

ونحن على معرفة جيدة بعلاقات مصر الخارجية فى هذه الفترة التى نبحثها ، وهى فترة لم تتميز بحدوث أية حروب أو غزوات خارج الحدود، ووصلت إلينا هذه المعلومات عن طريق

المجموعة الكبيرة من «ألواح تل العمارنة» المشهورة والتى عثر عليها أحد المزارعين مصادفة عام ١٨٨٧م ، ونقشت عليها الرسائل والمكاتبات الرسمية المتبادلة بين أمراء المناطق الآسيوية وبين الملكين أمنوفيس الثالث والرابع وقام بنشر هذه اللوحات الطميية المستشرق النرويجى «كتود نسون» وأتت دراسته لها كاملة مجدية . ومن الطريف أن نعلم حقيقة هامة من الناحية الحضارية وهى أن رسائل تل العمارنة هذه كانت قد كتبت باللغة البابلية وأن هذه المضمار وكانت بابل فى ذلك الوقت تنوء تحت حكم الكاشيين، ولم تلعب مطلقا دورا مهما على المسرح السياسى، لقد كانت ألواح تل العمارنة تحوى الخطابات المرسلة إلى مصر مكتوبة بالخط الإسفينى البابلى، ولابد أن المصريين كانوا يرسلون إجابتهم عليها بنفس اللغة والخط . ونعتقد أن الإلمام باللغة البابلية وبالخط الإسفينى كان أمرا يتحتم على كثيرين من الكتاب المصريين وذلك للقيام بأعباء وظيفتهم. وتحتوى الرسائل سالفة الذكر أولا على تقارير من أمراء الدويلات الفلسطينية والسورية ، ثم على خطابات أرسلها ملوك بابل والميتانى إلى فرعون مصر . والرغبة الأولى التى تبرز لنا من هذه المراسلات هى الإلحاح المستمر فى طلب المزيد من الذهب ، ويبدو من هذا الثراء الفاحش التى كانت تتمتع به مصر فى ذلك الوقت . ومن أهم الأشياء التى تبرزها لنا هذه الرسائل والتى تساعدنا على التعرف على ما كان يسود العلاقات الخارجية بين مصر وهؤلاء الجيران ، هو أن الرسائل كانت تبدأ باستمرار بصيغة التحية بين الملوك وبكلمة « يا أخى» ، ومعنى هذا أن مصر لم تحتفظ لنفسها بحقها القديم المتوارث الذى يجعل منه البلد الوحيد الذى يتمتع ملوكه بقدسية الآلهة، بل اضطرت بالنسبة إلى علاقاتها الخارجية على الأقل، أن تأخذ بمبدأ المساواة بين الملوك . ولكن هذا لا يمنع إن كانت مصر صاحبة النفوذ السياسى الأول فى ذلك الوقت، ودليلنا على ذلك هو الطلب الذى تقدم به ملك بابل يطلب فيه السماح له بالتزوج من أميرة مصرية، إن هذا الطلب رفض رفضا صريحا ، فى حين كانت الأميرات الميتانيات يحضرن بأعداد وفيرة إلى البلاط المصرى، كما رأينا ذلك فيما سبق . إن مراسلات تل العمارنة تعطينا صورة واضحة للحالة السياسية التى كانت تهيمن على بلاد الشرق الأدنى القديم فى ذلك العصر .

وأثر ازدياد نفوذ مصر العالمى فى ذلك العصر تأثيرا واضحا على ناحية من النواحى المحببة إلى قلوب المصريين ، نقصد بذلك الناحية الدينية، فإذا كان فرعون مصر قد أصبح سيدا على سوريا وبلاد النوبة ، فقد تبع ذلك امتداد نفوذ آلهة مصر إلى هذه البلاد ، وبخاصة اله الشمس. وكان هذا بمثابة التمهيد للثورة الدينية التى قامت فى عصر خليفة هذا الملك، أي فى عصر

« أمنوفيس الرابع » المعروف باسم «اخناتون» ، وهو الذى حاول أن يجعل من اله الشمس الها واحدا عاليا لا يدين به المصريون فحسب، بل كل الشعوب القديمة بأسرها . وهناك بردية محفوظة الآن فى المتحف المصرى، تحوى نشيدا لآمون، يعتبر من أهم الأدلة على أن التمهيد للآراء الجديدة التى نفذها اخناتون ، كان قد بدأ فى عصر « أمنوفيس الثالث » ، فإن ألفاظ هذا النشيد (الذى لابد وأنه كتب فى عصر أمنوفيس الثالث) تردد كل المعانى الجديدة التى ظهرت فى أناشيد العمارنة فيما بعد .

٣- عصر العمارنة

(محاولة الملك «اخناتون» القيام بحركة اصلاح)

من ١٣٧٧ إلى ١٣٤٥ ق.م

أنجب أمنحوتي الثالث من زوجته الملكة تيه ابنا هو الملك المشهور «أمنحوتب الرابع» أو كما سمى نفسه فيما بعد حين أعلن الهه الجديد «أتون» «أخناتون» (الذى رضى عنه آتون) لقد حكم تسعة عشر عاما (من ١٣٧٧ إلى ١٣٥٨ق.م) وخلفه ملوك لم تطل مدد حكمهم ، كما أن حركة أخناتون أصيبت فى فتراتهم بنكسة وما لبثت أن انهارت ورجعت عبادة آمون إلى مجدها القديم. من الواضح إذن أن عصر العمارنة لم يدم بعد أخناتون أكثر من ثلاث عشرة سنة أى إلى عام ١٣٤٥ ق.م . ومنذ البدء كان اسم الملك الخاص بالعرش يحوى ما يدل على ارتباط كبير بعقيدة الشمس وإن كان اسم الشمس هو الاسم القديم أى «رع» وكان اسم العرش «نفر خبرو رع - وا ان رع» والذى معناه «رع صاحب الأشكال الجميلة - إنه الوحيد لرع». ليس من شك أنه أقدم على محاولة جبارة بأن أقام دينا جديدا كما أدخل تجديدات كبيرة على الفنون، ولعل هذا هو السبب الذى دفع الفراعنة على اطلاق اسم «المهرطق» عليه . وهناك رأيان متعارضان : فالأول يمجد تلك الشخصية الفذة التى استطاعت أن تخلق دينا جديدا والتى تمكنت أيضا من أن تخرج لنا روائع فنية كانت نتيجة مباشرة لوحيه الشخصى ، أما الرأى الثانى فيستنزل عليه اللعنات لأنه كحاكم أهمل واجباته المقدسة وترك الحبل على غاربه فى السياسة وشئون الحكم وسبب انهيار البلاد وتأخرها بشكل مزر . ومن واجبنا هنا أن نتخذ طريقا وسطا بين الرأيين على أن نبرز أحداث هذه الفترة بطريقة إيجابية بعيدة عن التحيز .

يبدو أن أمنحوتب الرابع نشأ فى «أرمنت» القريبة من طيبة (وهى التى عرفت باسم «هيليوبوليس مصر العليا») وقام على تعليمه فيها كهنة من أتباع مدرسة لاهوت هيليوبوليس وليس من شك فى أن «يونكر» كان على حق حين أكد أن «عقيدة أمون» الطيبية التى أخذت تنتشر منذ الأسرة الثامنة عشرة قوبلت بجفاء فى كل من المدينتين القديمتين هيليوبوليس ومنف، لأن كهنة هاتين المدينتين لم يجدوا فى هذه العقيدة شيئا جديدا كما أنها لم تخلق وعيا جديدا

يفخر به الناس. فلا غرابة إذن إذا أحسسنا بوجود تيارات مناهضة من جانب هيليوبوليس ضد عقيدة آمون الطيبية التى لم يمض على ظهورها إلا فترة قصيرة .

ولم يكد الملك الصبى يجلس على العرش حتى أخذ ينفذ بعض توجيهاته الجديدة التى كانت تقوم على أسس استمدها من هيليوبوليس . وبدأ يطالب بتقديم مظاهر التقديس على نطاق أوسع لرع اله هيليوبوليس فى طيبة، واحتفظ بهيئة الاله كآدمى ذى رأس صقر يعلوه قرص الشمس إلا أن اسم «آتون» أخذ يظهر فى أوائل هذه الفترة. ولم يكن «آتون» فى هذه الحالة عنصرا الهيا جديدا أوجده الملك بل كان هو الاسم الذى أطلق على قرص الشمس منذ عصر الدولة القديمة. كان هذا هو الاسم الفلكى للشمس كجرم فى السماء دون أن يرتبط بأية صفة من صفات الآلهة، ومن الواضح أن هدف الملك كان يتجه نحو محو الصورة القديمة للاله «رع» وتخليص الهه منها وتغليب المظهر الروحى له . وانتهى الأمر بتلك الصورة المعروفة للاله «آتون» التى تصوره فى صورة قرص الشمس، تشع منه أشعة عديدة ، إذا وجهت إلى إنسان ما ، انتهى كل شعاع منها إليه بيد بشرية تقدم رمز الحياة القديم «عنخ» وشيد أمنحوتب الرابع الاله الشمس آتون فى طيبة معبدا ملاصقا لمعبد آمون . ومن الواضح أنه أراد فى أول الأمر مهادنة كهنة آمون معللا النفس باكتساب بعضهم لاعتناق دينه الجديد، وأظهرت الأحداث أن هذا الهدف لم يتحقق مطلقا . حقيقة أننا لم نعثر على وثائق مكتوبة تثبت معارضة كهنة آمون منذ أول الأمر لهذه العقيدة الجديدة إلا أن منطق الأحداث لا يجعل هناك شكا فى هذا . ومما زاد الطين بله أن الاصلاح الدينى كان مصحوبا بتجديدات فنيه أصابت القيود والقواعد القديمة فى صميمها وهدمتها وأودت بها . ولقد عثر فى هذا المعبد على تماثيل للملك قدت على أساس الفن التعبيرى وهو فن كان تأثيره على مصريى ذلك العصر بمثابة صفعة على وجهه وتحريض سافر على نشوب المعركة . وليس من شك فى أن الدافع لإظهار هذا الاتجاه الفنى «التعبيرى» الجديد كان رغبة الملك الملحة فى تجنب المبالغة فى ابراز صور الفرد فى ذلك الاطار المثالى ووجوب اظهاره على حقيقته ، وانصب هذا التوجيه الجديد على الملك نفسه ، وفى واقع الأمر لا نفتأ نلاحظ تمسك الملك بأهداب «الحقيقة» فى كل تصرفاته، هذا مع العلم أن هذا الرجل المصلح كان مريضا بمرض عضال شوه كل أجزاء جسمه ولم تمض غير فترة قصيرة حتى أخذنا نلاحظ تريثا فى تحقيق قواعد الفن «التعبيرى» الجديد. ظهر هذا فى الروائع الفنية الخالدة التى وصلت إلينا من العاصمة الجديدة «تل العمارنة» سواء منها التماثيل أو اللوحات المنقوشة ، وهى التى تثير إعجاب الناس فى عصرنا بشكل لا مثيل له .

يبدو أن معارضة كهنة آمون وكفاحهم ضد الدين الجديد أخذ يزداد ويتطور بحيث لم يستطع الملك معه البقاء فى طيبة، ولذلك نراه فى العام السادس من حكمه يقرر تشييد عاصمة جديدة اختار لها مكانا جديدا يتوسط تماما المسافة بين منف وطيبة وهما العاصمتان اللتان تبادلتا الحكم فى التاريخ المصرى . وسمى عاصمته الجديدة «أخيت أتون» (أفق أتون) واعتقد أن فى استطاعته أن يهب حياته لعبادة الهه الجديد، كما كان أمله أن يمتثل المصريون ويدخلون فى دينه أفواجا ، إلا أن آماله خابت تماما فى هذه الناحية . حقيقة أن بعضا من رجالات البلاط أظهروا إعجابهم بالدين الجديد ولا شك أنهم كانوا فى ذلك متملقين . ولكن الأحداث التاريخية أظهرت بوضوح أن هذا الاصلاح الدينى الذى نرى فيه كل معنى من معانى الخير والعمق الدينى لم يؤثر مطلقا على الشعب المصرى ولم ير فيه تلك المعانى. لقد بدأ الملك فى ذلك الوقت بتوجيه حملة شعواء فى طيبة ضد الاله آمون والآلهة التى ارتبطت به فمحا اسمها من فوق تماثيلها وصورها المنقوشة، بل أكثر من هذا غير الملك اسمه الذى يحوى لفظ «آمون» وأطلق على نفسه اسما جديدا هو «اخناتون» .

تميز الموقع الجديد الذى اختير لتشييد العاصمة والتى نطلق عليها حاليا اسم «تل العمارنة» باتساع رقعته اتساعا كبيرا . وأقام الملك عددا من اللوحات الحجرية التى تحدد حدود هذه المدينة على جانبى النيل بين الصحراء الشرقية والصحراء الغربية ولا تزال بعض هذه اللوحات قائمة فى مكانها حتى عصرنا هذا . ونظرا لأن هذه العاصمة قد هجرت بعد موت الملك مباشرة (وهذا أمر نعلمه تماما) أى أنها لم تعمر أكثر من اثنتى عشرة سنة ، لذلك كان من الواضح ألا تتعدد أبنيتها كما أن تلك التى تم تشييدها كان قليل العدد، والزائر لأطلال هذه المدينة يشعر تماما بأنها انشئت لتكون ممتدة الأطراف وظلت الأبنية التى بدئ بإنشائها غير كاملة . لقد كانت «العمارنة» مدينة غير محصنة واسعة الأرجاء قام بتخطيطها على الإكثار من الحدائق وزرع الأشجار على جوانب طرقها وهناك ثلاثة قصور على الأقل كشفت عنها البعثة الألمانية ، ثم أخذ رجال الآثار من الإنجليز تكملة هذا العمل بعد الحرب العالمية الأولى. ولقد زخرفها بكل العناصر التى أحبها والتى تمثل طيور الكماء وحيوان الصحراء . وكانت هذه القصور مشيدة من اللبن كما كانت جدرانها وأرضيتها مغطاة بطبقة من الجص لونت بعد ذلك بأزهى الألوان. وتعتبر مناظر العمارنة المرسومة على الجص ومثيلاتها التى غطت جدران قصر «أمنحوتب الثالث» بطيبة من أهم وأروع ما خلفه الفنان المصرى القديم هذا الفنان الذى لم يترك فرصة دون أن يبرز فيها جمال الطيور التى تتدافع

فوق أغصان الأشجار والتى تزدحم بها شواطئ النهر. وغير هذه القصور الملكية فقد احتفظت لنا أطلال المدينة بعدد كبير من منازل الأفراد ، ومن هذا استطعنا أن ندرك ما كان يدور فى حياة الناس المنزلية إبان هذه الفترة.

ووجه أهل هذه المدينة عنايتهم أيضا نحو تشييد مقابرهم . لقد رأينا أن الموقع الذي خصصه الملك لمدينة تل العمارنة يمتد بحيث يغطى مساحات واسعة على شاطئ النيل ولكننا نجد أن الجبانة لم يخصص لها مكان فى الجانب الغربى كما كان الحال بالنسبة إلى المدن الأخرى التى كانت تقع جباناتها على الشاطئ الشرقى للنيل بالقرب من المدينة نفسها . وهذه الظاهرة لابد أن يكون مرجعها إلى أن ديانة الشمس تجعل من الشرق (حيث يشرق الاله) المكان المقدس الذى تفوق أهميته ما كان للغرب واتبع أهل العمارنة نفس الطراز المستعمل فى طيبة فى نقر مقابرهم فى باطن الصخر ، إلا أن أسلوب النقش كان متغيرا واستعملوا أسلوب العمارنة المشهور الذى يتميز أيضا بأن اللوحة كانت تتجمع حول صورة الشمس ذات الشعاع وهى الصورة التى وصفناها فيما سبق. ووجه أهل العمارنة عنايتهم نحو أحداث الأسرة المالكة فنجدهم تارة يصورون الموكب الخاص بزيارة الملك والملكة وبناتهما الصغيرات لمعبد أتون وقد امتطى كل فرد من الأسرة الملكية عربة خفيفة يجرها زوج من الخيول ، أو زيارة الأم الملكية «تيه» لابنها فى العمارنة- ويبدو أن الملكة العجوز (تيه) كانت من أكثر المتحمسين لديانة ابنها الجديدة- وتارة أخرى نجدهم يمثلون الاحتفالات الخاصة بإهداء الأوسمة والهدايا المختلفة إلى أصحاب النفوذ من رجالات البلاط ويكون هذا بأن يقف الملك وحوله أفراد أسرته فى شرفة قصره وهى شرفة من الطراز الذى كان شائعا فى قصور الأسرة الثامنة عشرة. ومن أبرز الشخصيات التى لعبت دورا كبيرا فى البلاط «آى» الذى نقش منظرا لنفسه ولزوجته فوق جدران مقبرته المنحوتة فى جبانة العمارنة والتى لم يستعملها مطلقا ، هذا المنظر يمثلهما راكعين يرتلان أنشودة آتون المشهورة التى كانت تعتبر الأساس لعبادة آتون وديانته ، والتى قال عنها المؤمنون بهذا الدين أن الملك لم يحاول مرة أن يطلعهم على نصها . وهذه الأنشودة تعتبر أيضا قصيدة شعرية رائعة تترنم بالشمس خالقة الوجود وكائناته ولم تقتصر فى خلقها على مصر بل على العالم أجمع والناس على حق عندما يقارنونها بالمزمور ١٠٤ من العهد القديم بل حين يقارنونها بأنشودة الشمس للقديس فرنسيس من العصور الوسطى للمسيحية. وهذه الأنشودة بما فيها من آراء جميلة تجد طريقا سهلا إلى قلوبنا ومنطقنا فلا غرابة إذا اعتبرنا صاحبها أخناتون يعيش متقدما عن عصره وذلك لعبقريته ولا غرابة أيضا

إذا كان المصرى فى ذلك العصر لم يفهم مغزاها ولم يستطع التعرف على كنهها . إن اخناتون يمثل لنا عبقرية تم نضوجها فى وقت سابق لأوانها وإن ظهورها فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان ميلادا مبكرا جدا لها .

ونقر «اخناتون» مقبرة صخرية لأسرته اختار لها موقعا فى واد صخرى بعيد فى الصحراء إلى الشرق من تل العمارنة. هذه المقبرة لم تسمح الظروف بإنهائها ومعنى هذا أنها لم تستعمل أيضا. إلا أنه يبدو أن ابنته الثانية (ومن المعروف أن اخناتون أنجب ست بنات) ماتت فى سن مبكرة ودفنت فى هذه المقبرة ونستدل على هذا من تلك الصور المحزنة التى صورت على التابوت الخشبى لهذه الفتاة. أما التابوت الخارجى الجرانيتى الضخم لهذه الفتاة وهو الذى تحطم إلى قطع صغيرة نتيجة لحملات الأخذ بالثأر التى وجهها أعداء آتون إلى المؤمنين به ، ويحوى هذا التابوت على أركانه الأربعة- بدلا من صور آلهة- صورا لأم الأميرة تمثلها واقفة يرفرف عليها منظر الشمس التى يمتد منها الشعاع . وإن دل هذا على شئ فهو يدل على الاتجاه الروحى الذى تميزت به ديانة آتون.

وكما تمتعت الملكة «تيه» بمركز ممتاز فى عصر زوجها الملك أمنحوتب الثالث، نجد أيضا أن زوجة «اخناتون» قد فازت بنفس المركز بل لعلها كانت أكثر تمتعا به . ويغلب على الظن أن «نفرتيتى» (الجميلة تتهادى) تنتسب إلى أسرة أجنبية لا نعرف موطنها الأصلى ، وكما جرى العرف فى مصر القديمة، اختارت لنفسها اسما مصريا بعد أن استقرت بها الحال فى البلاد . ونفرتيتى هذه هى التى حاز تمثالها النصفى الملون إعجاب الناس فى العالم كله . ولم تتم الهناءة لهذه الزيجة السعيدة بإنجاب ابن يرقى العرش بل أنجب الزوجان بنات بلغ عددهن ستا. ولقد كثر الحديث عن الانبعاج الغريب الذى بدأ فى مؤخرة الرأس للأميرات . وبعض ما قيل صحيح والبعض الآخر يبعد عن الصحة . ومن المؤكد أن هذا الإنبعاج لم يكن نتيجة لنوع معين من تصفيف الشعر، بل يبدو أنه كان نتيجة مقصودة لمحاولة تجرى لمؤخرة الرأس إبان الطفولة المبكرة للأميرات. وهناك ما يدل على أن هذه العادة كانت متبعة فى قبرص حوالى القرن العشرين قبل الميلاد، ولو أنه من الجرأة حقا أن نعتمد على قرينة أثرية مماثلة لنربط بين «نفرتيتى» وبناتها وبين قبرص كوطن أصلى لهن. ولقد أنتجت أعمال الحفر والتنقيب العلمى فى العمارنة العثور على أكثر من حانوت من حوانيت الفنانين هناك، وهذه أمدتنا بعدد ضخم من روائع فن النحت

كما أمدتنا بمعلومات وافية عن طريقة نحت التماثيل والأساليب المختلفة لهذا الفن، ونأسف لأن صفحات الكتاب سوف لا تتسع لمعالجة هذه الناحية الأثرية الفنية.

وبينما كانت الأيام تمر سراعا على أخناتون وهو قابع فى قصره بمدينة العمارنة يتعبد لNلهه يترنم بأنشودته ، أخذت تنهال على مصر خطابات أمراء مدن سوريا وفلسطين المليئة بالشكوى والمنذرة بالخطر الذى أخذ يدق الأبواب ومصر لا تحرك جانبا ولم ترسل جيوشها للقضاV على عوامل الفتنة والثورة المتفشية فى مراكزها الأمامية. هذه الخطابات التى كتبت بالخط الاسفينى والتى عثر على مجموعة كبيرة منها فى أرشيف العمارنة ، تصف مدى ما وصلت إليه الحالة من خطورة فى عصر اخناتون، وهذا الانحلال السياسى بالذات هو نقطة الضعف التى نحاول باستمرار أن نغض الطرف عنها عندما ننكب دارسين للروائع الفنية التى خلفها لنا هذا العصر نمتع النظرة بها ونتعجب لجمالها . أن الواقع يدل على أن اخناتون قد تسبب فى ضياع كل ما حققته جهود أجداده الجبابرة من نصر فى آسيا القريبة ، وكان على خلفائه من ملوك الأسرة التاسعة عشرة أن يبدأوا من جديد كما سنرى ذلك فيما بعد .

لقد قلنا فيما سبق أن تماثيل اخناتون ذات الفن «التعبيرى» التى عثر عليها فى طيبة والتى تمثله فى باكورة عصره تدل على أنه كان رجلا ضعيفا مريضا لا يمكن أن يكون قد عاش طويلا . لقد مات بعد أن حكم مصر لفترة تسعة عشر عاما ولم نعثر حتى الآن على مقبرته ، ونذهب إلى حد التوكيد أنه لم يدفن فى المقبرة التى نقرها لأفراد أسرته إلى الشرق من تل العمارنة . ونرجح أن موته حدث نتيجة لمؤامرة دبرت للقضاد عليه، إلا أن الثابت أننا نجهل تماما ما حدث له فى نهاية عمره ، كما أن عدم عثورنا على جثته يجعل من العبث التحدث عن سنه حين فارق الحياة. ولأن اخناتون لم ينجب وريثا للعرش، خلفه زوج ابنته الكبرى «سا كا رع» (ويمكن قراءة اسمه أيضا «سمنخ كا رع» واسم هذه الابنة (مريت أتون) (المحبوبة من أتون) .

ومن أهم القرائن التى تثبت مدى ما وصلت إليه البلاد من اضمحلال داخلى بعد موت اخناتون، الخطاب الذى أرسلته أرملة الملك (نفرتيتى) إلى الملك الحيثى تطلب إليه أن يرسل أحد أبنائه لتتزوجه وليصبح ملكا على مصر . إن هذا التصرف يعتبر من الناحية التاريخية صفعة دنيئة على وجه مصر والمصريين . وهذا الحادث، بالذات، لم تصلنا إلا تفصيلات ضئيلة عنه وذلك عن طريق بعض النصوص التى ظهرت فى أطلال مدينة «بوغاز كوى» العاصمة القديمة

لدولة الحيثيين . وكل ما نعرفه هو أن الملك الحيثى استجاب إلى هذه الدعوة وأرسل بالفعل أحد أبنائه. ومن المعروف أن دولة الحيثيين فى تلك الفترة كانت قد وصلت إلى أوج قوتها وكان يجلس على عرشها إذ ذاك الملك «شوبوليما» المعاصر لأخناتون والذى امتد حكمه بعد موت أخناتون ، ومن المعروف أيضا أن الحيثيين مدوا نفوذهم نحو الجنوب ووصلوا إلى سوريا الشمالية أى أنهم أصبحوا على حدود الإمبراطورية المصرية . ولقد سكتت المصادر المصرية ولم تذكر شيئا عن رغبة الملكة «نفرتيتى» فى التزوج من أمير حيثى وتنصيبه فرعون لمصر . وعلى كل حال فقد فشلت المؤامرة وقتل الأمير الحيثى فى الطريق قبل أن يصل إلى الحدود المصرية. ويجدر بنا هنا أن ننبه إلى ظاهرة غريبة وهى أن ذكر «نفرتيتى» فى أواخر عصر اخناتون على الآثار المصرية كان قد قلَّ بشكل يبعث على التساؤل ، أضف إلى ذلك أن كثيرا ما كان اسمها يمحى ويستبدل به اسم ابنتها الكبرى «مريت آتون» زوجة الملك « سا كا رع» . وعلى كل حال نحن نجهل تماما كيف قضت نفرتيتى نحبها كما لا نعرف مكان مقبرتها .

لم يحكم الملك «سا كا رع» مصر إلا فترة قصيرة جدا اختفى بعدها تماما. وخلفه على العرش زوج آخر لإحدى بنات اخناتون أى «توت عنخ آتون» (حياة أتون كاملة) وكانت هذه الزوجة هى الابنة الثالثة لأخناتون واسمها «عنخ اس أن با أتون» (أنها تحيا من أجل آتون) وفى عهد هذا الملك تم الانتقال من تل العمارنة إلى طيبة وذلك بعد أن تم الصلح مع كهنة آمون وبذلك أصبحت العمارنة مدينة مهجورة ولم يحدث أن سكنها الناس بعد ذلك. ومن الطريف أن نذكر هنا كيف غير كل من الملك والملكة اسميهما فأصبح الملك يسمى نفسه «توت عنخ آمون» والملكة «عنخ اس ان با آمون» أى أن آتون استبدل بأمون ولعل من أهم النصوص التى وصلت إلينا من هذا العصر والتى تمدنا بمعلومات قيمة عن تطور الأحداث الدينية فى مصر هو النص الذى نقشه «توت عنخ آمون» على لوحة كبيرة أقامها فى معبد الكرنك وفيما يلى ترجمة لبعض سطور منه : «لقد أولت الآلهة ظهورها لهذا البلد ، وإذا ما حاول أحد الناس أن يطلب من اله وحيه لم يستجب هذا الاله لدعائه . وإذا توجه أحد إلى الهه برغبة تصمت ولا تجيبه» . وتذكر هذه اللوحة أيضا بعضا من الأحداث الخارجية فتقول : «وإذا ما أرسل الجند إلى فينيقيا لتوسيع الحدود فإنهم لا يصلون إلى نتيجة» . ولقد عثرنا على معبد فى طيبة شيد فى عصر هذا الملك الذى لم يمتد حكمه إلا لفترة قصيرة ، كما أن معبد الأقصر كان قد تم بناؤه فى عصره وتم أيضا نقش المناظر الجميلة

التى تصور الاحتفالات الكبيرة والتى تقام بمناسبة انتقال «آمون» من معبد الكرنك إلى معبد الأقصر.

ولعل حديثنا عن هذا الملك كان يصبح قصيرا لولا عثور اللورد كارنارفون والأثرى الإنجليزى كارتر على مقبرته عام ١٩٢٢ بوادى الملوك وكنوز هذه المقبرة هى التى جعلت اسم هذا الملك الخامل الذكر يدوى فى العالم ويصبح على لسان كل فرد . وليس من شك فى أن روعة هذه الكنوز ليست إلا دليلا على ما كان يكنه له كهنة «آمون» من تقدير وشكر. ودلت الدراسات الطبية التى أجراها العلماء على جثة هذا الملك، أنه مات فى سن مبكرة ولم يبلغ بعد العشرين من عمره ، وإذا صحت الأخبار التى ذكرتها النصوص من أنه حكم تسع سنوات فلابد أن يكون قد ارتقى العرش فى سن الحادية عشرة أى وهو لا يزال فى سنة الطفولة (١٣٥٨-١٣٤٩ ق.م) .

ومن بين المناظر المرسومة على جدران المقبرة نجد منظرا لم نعهد له مثيلا من قبل ، يظهر فيه الملك «آى» وهو يقوم ببعض الطقوس اللازمة لجثة الملك «توت عنخ آمون» . ونحن لا ندرى مطلقا كيف استطاع «آى» أن يخلف «توت عنخ آمون» على العرش وقد عرفناه من قبل كأحد رجالات البلاط فى قصر العمارنة وممن سارعوا بالانضمام إلى دعوة أخناتون فلابد أنه كان قد رجع إلى حظيرة «آمون» بعد أن خرج عن ديانة «آتون» ، ولابد أيضا أن يكون قد ارتقى العرش كرجل مسن ولم يبق عليه سوى خمس سنوات (١٣٤٩-١٣٤٥) ونقر لنفسه مقبرة فى وادى الملوك الغربى بالقرب من مقبرة «أمنحوتب الثالث». وبارتقاء «آى» العرش انتهت فترة العمارنة بل انتهت فترة الأسرة الثامنة عشرة صاحبة المجد التليد، وهى ولا شك نهاية محزنة.

وقبل أن نختتم حديثنا عن فترة العمارنة. نقول إنها لم تكن- وهذا بالنسبة إلى وجهة النظر المصرية على الأقل- بمثابة القمة فى تطور الحضارة المصرية، كما يود بعض المعجبين بالديانة والمفتونين بالفن أن يعتقد أن هذه القمة وصلتها مصر فى العصر السابق مباشرة لهذه الفترة أى عصر «أمنحوتب الثالث» . ونحن إذا كنا نرغب فى أن نكون منصفين فى حكمنا بعيدين عن التحيز ، فعلينا أن نسأل المصرى القديم نفسه عن رأيه فى هذه الفترة التى نطلق عليها الآن «عصر العمارنة» ، إن الإجابة عن هذا السؤال ستكون بكل تأكيد، أن الشعب المصرى - ومنهم من عاصر اخناتون بل ومن عاش بعده - لم يتفهم رسالة «آتون» ومن أجل هذا رفضوها رفضا

باتا. ومن الغريب أن هذه الديانة لم تنتشر خارج مصر ولو أن هناك فى بلاد النوبة العليا مدينة شيدت وسميت باسم آتون وهى «جم آتون» وهى تسمية لا شك تأثرت بهذه العبارة .وغير هذا وذاك فإن مؤرخى الفراعنة أنفسهم لم يعترفوا بأخناتون كملك مصرى شرعى وأسقطوا اسمه من قوائم الملوك الرسمية، ومنها قائمة أبيدوس للملوك، أما الأتقياء من المصريين فقد رأوا فيه مهرطقا يجب أن تحل اللعنة عليه، يدلنا على ذلك بعض الأغانى التى وصلت إلينا من عصر الأسرة التاسعة عشرة والتى كانت تشيد بعظمة آمون، ونحن نقرأ فيها ما يلى : (ترجمة أرمان) «إنك (يا آمون) تعثر على كل من يتجرأ بمعارضتك .. الويل لكل من يلمسك .. أن مدينتك طيبة ستبقى، بينما ذلك الذى لمسك قد سقط – إن العار سيصيب كل من يثور ضدك فى أى مكان».

إن على المؤرخ الحديث الذى يستعرض التاريخ المصرى واضعا إياه فى اطار يجمع بقية بلدان الشرق القديمة إبان القرن العشرين قبل الميلاد ، أن يدخل فى اعتباره الحكم القاسى الذى أصدره الشعب المصرى ضد إخناتون ، وهو الذى أهمل شئون الحكم الداخلية ، وترك الحبل على غاربه فى الشئون الخارجية . إن نصوص العمارنة والمناظر المنقوشة على جدران مقابر العمارنة لم تتحدث مطلقا عن أى شأن من شئون الحكم ، اللهم إلا تلك المناظر القليلة التى تمثل حضور بعض الرسل الأجانب إلى العمارنة واستقبالهم رسميا فيها ، وهو إجراء كان الهدف من ورائه اظهار السلام الذى كان يخيم على الامبراطورية فى عصر «امنحوتب الثالث» بأنه لا يزال مخيما فى عصر اخناتون مع فارق بسيط وهو اختلاف موقع العاصمة. ومن أغرب المناظر الجديدة التى لم يحدث أن عثرنا على مثيل لها فيما سبق ، هى تلك الخاصة بالحرس الملكى من الجند الأجانب ذى الجنسيات المختلفة ، وهم ولاشك يذكروننا بجند الحرس الذين ظهروا فى أواخر عصر القياصرة فى روما والذين كانوا عادة ينتسب معظمهم إلى الجيش الجرمانى. وعلينا الآن أن نتساءل هل لم يجرؤ اخناتون على اختيار حرسه الخاص من جند مصريين لأنه لم يكن يأمن على حياته منهم؟ .

رسمت لنا خطابات العمارنة صورة لمصر يسودها الاضمحلال والقلاقل ، وهى نفس الصورة التى نجح فى توضيحها ادوارد ماير . لقد شاعت من مصر إبان فترة العمارنة كل المناطق السورية التى كان ملوك الأسرة الثامنة عشرة الأمجاد قد ضموها إلى البلاد . أما فلسطين فقد تعرضت لأقسى الهجمات من البدو الذين كانوا يعتدون عليها من الصحراء السورية. وتميزت الشكاوى

التى كان يرسلها حاكم أورشليم الموالى لمصر بإظهار خطورة الموقف. وأورشليم كمدينة بدأ ظهورها أول ما بدأ فى خطابات العمارنة. وكانت قبائل البدو التى تأتى من الصحراء تسمى بقبائل «الخبيرى» ويبدو واضحا من نصوص «بوغاز كوى» الحيثية أن «الخبيرى» تسكن أواسط آسيا الصغرى، وهى منطقة لم يصل إليها مطلقا العبرانيون . ولقد تمكن الأراميون والعبرانيون إبان الهجرات الواسعة لهذه الشعوب من أن يستقروا فى وطنهم الأخير أى فى سوريا وفلسطين . وأطلق أهل البلاد من الكنعانيين على العبرانيين اسم «عبريم» أى «الذين عبروا إلى هنا» وهم الذين وفدوا من شرقى نهر الأردن . ونرجح أن الاسمين «خبيرى» و «عبريم» يرجعان إلى أصلين مختلفين، ولو أن هذا الختلاف لا يمنع أيضا من وجود تشابه فى بعض حروف الإسمين يجعل بعض المستشرقين يربطون بينهما ربطا لغويا . وسوف نعود إلى الحدث عن ظهور الاسرائيليين وذلك عند دراستنا لتلك اللوحة المصرية التى ورد ذكرهم فيها، أما تلك الكلمات الموجزة التى ذكرناها فى السطور السابقة واصفين بها الحالة السيئة بالنسبة إلى المصريين فى فلسطين وذلك ابان عصر العمارنة ، فليس من شك فى أن نتيجتها المحزنة كانت الانهيار التام للسلطان المصرى فى ربوع آسيا القريبة.

لقد وقف الحظ بجانب مصر فى هذه الأزمة وهيأ لها حفنة من الرجال احتفظوا برباطة جأشهم ورفضوا عقيدة آتون وابتعدوا عن كل ما يمس هذه العقيدة . وأهم هؤلاء كان القائد «حورام حب» (حوريس فى الاحتفال) الذى اضطر فى أول الأمر ولفترة قصيرة أن يجامل الظروف ويقطن العمارنة وسمى نفسه «با آتون ام حب» (آتون فى الاحتفال) ونقر لنفسه مقبرة هناك لم يحدث أن استعملها لأن حالتها تدل على عدم العناية بتكملتها. لقد استقر «حور أم حب» فى منف ، وهى العاصمة التى كانت تعتبر أيضا مقرا لشئون الادارة فى عصر العمارنة وحاول منها أن ينقذ ما يمكن إنقاذه من فلسطين . وبقى أيضا محتفظا بوظيفته هذه ابان عصرى حكم كل من «توت عنخ امون» و «آى» ويبدو أن عداءه للأخير كان سافرا ، وبنى لنفسه مقبرة فى «سقارة» جبانة منف، لا ندرى تماما موقعها إلا أن كثيرا من أجزائها يحوى أروع النقوش وتتميز بأنها تحتفظ بمعلومات هامة لنا ، هذه الأجزاء تكون الجزء الرئيسى من مقتنيات متحف «ليدن» أما الأجزاء الأخرى من هذه المقبرة فقد تسربت إلى أكثر من متحف من متاحف أوربا (بولونيا- فيينا- برلين وغيرها من المتاحف). نعلم من نقوش هذه المقبرة أنه أرسل حملة إلى فلسطين لإعادة الأمن إليها.

ولقد سجلت النقوش الموجودة من هذه المقبرة فى متحف «ليدن» منظر الاحتفالات التى قامت فى مصر بمناسبة رجوع جند هذه الحملة منتصرين واستعراض «توت عنخ آمون» وزوجة لهم. إن الأسلوب الفنى المستعمل فى نقوش هذه المقبرة هو بعينه أسلوب العمارنة، وتتميز هذه النقوش بالطريقة الجميلة التى أوضحت لها رءوس الأسرى من الفلسطينيين وخطوط أجسامهم ، ويبدو من هذه الرءوس أن الفنان قد أراد التفرقة بين عنصرين أحدهما هو العنصر السامى بكل ما اشتهر به من ملامح والعنصر الآخر يختلف تماما عن السابق ولو أننا لا نستطيع تحديد جنسه . وبين محتويات متحف «المتروبوليتان» بنيويورك يوجد تمثال «لحور أم حب» يمثله جالسا على هيئة الكاتب وعلى جوانبه نص طويل يتحدث فيه عن مراحل حياته ، ويبدو أن هذا التمثال كان أصلا من بين التماثيل التى أودعت مقبرته فى سقارة.

٤- العصر الذهبى الثانى

(الأسرتان التاسعة عشرة والعشرون)

(١٣٤٥ إلى ١٠٨٥ ق.م)

ارتقى آخر الأمر «حور ام حب» عرش مصر بعد موت «آى» وتسلم زمام الحكم كرجل مسن صقلته الأحداث وتم نضجه ، ونراه يسجل اسمه على كل العمائر التى أقامها «توت عنخ آمون» ويأمر بمحو اسم «آى» من على آثاره ومن ثم أخذ يعيد بسرعة فائقة ما كان لعبادة آمون من حقوق مسلوبة . ويبدو بوضوح من أحد مراسيمه التى وصلت إلينا ، أنه استعمل القسوة والشدة لإعادة الأمن إلى البلاد إذ كانت أحكامه تتراوح بين القتل أو جدع الأنف أو مائة جلدة تنتج خمسة جروح دامية وغير ذلك . ومن الغريب أنه لم تصل إلينا أخبار ما عن حملاته الحربية ولعل السبب فى ذلك تهدم واختفاء معظم أجزاء صرحه (البيلون) الذى أقامه فى الكرنك وهو الصرح التاسع فى هذا المعبد ، أما المعبد الكبير الذى شيده اخناتون (المهرطق) فى رحاب الكرنك لإلهه (آتون) فلا ندهش إذا علمنا أنه قد تهدم واختفت أجزاؤه فى عصر «حور ام حب» ولقد عثر المنقبون فى السنوات القليلة الماضية على معبده الجنازى الذى شيده فى أقصى الجنوب من جبانة طيبة على الشاطئ الغربى للنيل وبالقرب من معبد مدينة هابو، وهذا المعبد ، وهو فى حالة سيئة من التهدم، يدل بوضوح على سياسة «حور ام حب» نحو الملك «آى» ومدى القسوة التى عامله بها بعد موته إذ اغتصب هذا المعبد الذى لم يكن قد تم بعد وأكمل بناءه واستخدمه لنفسه . ودفن «حور ام حب» فى مقبرة صخرية كبيرة بوادى الملوك تتميز جدرانها الداخلية بنقوش رائعة ذات ألوان زاهية ، أما تابوته الجميل المنحوت من حجر الآبستر فقد حوى تلك الصور التى تميز هذا العصر بها وهى صور الآلهة الأربعة التى تقوم على حماية الميت وكانت تنقش بارزة على الأركان الأربعة للتابوت .

دلت الآثار الجديدة التى عثر عليها فى منطقة مدينة هابو على أن «حور ام حب» حكم مصر

مدة ٢٧ عاما ، فى حين أن هناك وثيقة أخرى تتحدث عن العام التاسع والخمسين من حكمه ، وهذا التقدير لا يمكن الأخذ به إلا إذا كان المقصود به احتساب مدة حكمه ابتداء من موت « آى » أى من عام ١٣٤٥ ق.م ، وبخاصة أننا نعلم أنه اعتلى العرش وهو رجل مسن ، وهكذا لا نستطيع تفسير هذا التقدير إلا على أساس أن «حور ام حب» أهمل مدد حكم ملوك عصر العمارنة واعتبر نفسه خليفة للملك «امنحوتب الثالث» نفسه . وفى واقع الأمر حكم «حور ام حب» سبعا وعشرين سنة بعد موت « آى » أى من سنة ١٣٤٥ إلى ١٣١٨ ق.م ويلاحظ أنه عام ١٣١٨ يؤرخ لنا مضى ٥٩ سنة على موت « أمنحوتب الثالث» (١٣٧٧ق.م) .

يعتبر المؤرخون «حور ام حب» المؤسس للأسرة التاسعة عشرة ، ولو أن الجد الأول لملوك هذه الأسرة كان خليفة «حور ام حب» المسمى «رمسيس الأول» وهو الاسم الذى يعنى « رع والده» والذى حمله معظم ملوك الفترة التالية و «رمسيس الأول» هذا كان من القادة العظام الذى وقف بجانب «حور ام حب» ولعب معه دورا مهما دون أن يكون بينهما صلة قرابة . إن هذين الرجلين اللذين ارتقيا سلم المجد مبتدئين بأولى الألقاب العسكرية حتى وصلا إلى العرش ليعتبران من أوضح الأمثلة على تميز رجال الجيش فى المجتمع المصرى فى الفترة التى امتدت من أواخر الأسرة الثامنة عشرة إلى أوائل الأسرة التاسعة عشرة . لقد ارتقى « رمسيس الأول» عرش مصر ومثله فى ذلك مثل «حور ام حب» رجل مسن ، واختار لنفسه اسما للعرش هو «من بحتى رع» أى « قوة رع تدوم» ويبدو أنه اعتقد أن الزمن سيطول به فنراه يبدأ فى تشييد بناءين ضخمين ، لم يتم العمل فيهما تماما إلا فى عصر حفيده رمسيس الثانى - البناء الأول هو البهو الكبير المعروف بأعمدته فى الكرنك، والثانى المعبد الضخم بأبيدوس، واستمر العمل فيهما أيضا فى عصر ابنه سيتى الأول. ونظرا لأن القدر لم يسمح لرمسيس الأول أن يحكم مصر أكثر من عام واحد لذلك نرجح أنه فكر فى هذين المشروعين ولم ينفذهما (١٣١٨ إلى ١٣١٧ ق.م) .

ويغلب على الظن أن أسرة «رمسيس الأول» نشأت فى مصر السفلى وعلى وجه التحقيق فى شرق الدلتا وفى « أواريس» العاصمة التى كان قد شيدها الهكسوس وسوف نرى كيف أن رمسيس الثانى اختار هذا المكان بالذات ليشيد فيه عاصمة جديدة له . انتقل مركز الثقل فى مصر إلى شرق الدلتا ، ففيه تجمعت القوة الضاربة المصرية ، لأنه كان مفتاح الطرق المؤدية إلى آسيا القريبة ، أما طيبة فى موقعها البعيد فى أقاصى صعيد مصر فقد فقدت أهميتها كعاصمة للإمبراطورية المصرية منذ الأسرة الثامنة وبدأت تفقد هذه الأهمية منذ أول الملوك الذين خلفوا « تحوتمس الثالث»

، واحتفظت طيبة ومعابدها الغنية المخصصة لآمون بمركز قوى لا يدانى كعاصمة دينية. ومن الغريب حقا أن اسم آمون لم يعد يدخل فى تركيب أسماء ملوك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين . بل دخل فى تركيبها اسم «رع» إله الشمس (مثل رعمسيس) أو اسم اله آخر هو «ست» الذى كان يعتبر فى ديانة «أوزوريس» من الآلهة القوية المهابة الجانب إذ كان يقاتل الثعبان «أبوفيس» وهو يرمز إلى القوة التى تجمع السحب وتدفع بها على صفحة السماء. وقام «يونكر» بدراسات واسعة خرج منها بأن «ست» فى صورته التى تمثله من الأعوان الأقوياء الذين يدافعون عن اله الشمس، عبد فى «أواريس» أو فى مكان قريب منها وإن له فيها معبدا شيد فى عصور قديمة ترجع إلى أوائل عصر الدولة القديمة على الأقل.

كان اسم ابن «رمسيس الأول» وخليفته على العرش «سيتى الأول» أى دخل اسم الاله «ست» فى تركيب اسمه، واختار لنفسه اسما للعرش هو «من معات رع» «تدوم حقيقة رع» وأضاف عليه صفة أخرى هى «مر ان بتاح» أى «المحبوب من بتاح» و «بتاح» هو الاله الأول لمنف التى أوضحنا أنها كانت فى عصر «حور ام حب» العاصمة التى تتجمع فيها أهم ادارات الحكم فى مصر . لقد ذكرنا فيما سبق فى معرض الحديث عن المدد الخاصة بفترات النجم «الشعرى اليمانية» ، أن إحدى هذه الفترات تبدأ عام ١٣١٨ ق.م (أو على وجه التحديد بحسب رأى بورخات تبدأ عام ١٣١٧ ق.م) . وهناك وثيقة ترجع إلى العصر اليونانى ذكرت هذا الحادث الفلكى المهم- الذى نعجب حقا بأن المصريين القدماء عرفوه ولاحظوه وسجلوه وربطوا بينه وبين اسم «مينوفريوس» وليس من شك بأن العالم الروسى «ستروفه» على حق حين يرى أن هذا الاسم الغريب لابد أن يكون النطق الاغريقى للاسم المعروف للملك «سيتى الأول» وهو «مر ان بتاح» (وكثيرا ما ننطقه أيضا «منفتاح») وفى واقع الأمر يتفق العام ١٣١٨ ق.م (أو ١٣١٧) الذى سبق ذكره مع بدء حكم هذا الملك تمام الاتفاق .

وهذا ولم تصل إلينا وثائق تحدد لنا مدة حكم «سيتى الأول»، التى نعتقد أنها لم تمتد سنين عديدة، إلا أننا نعلم على وجه التحقيق من بعض الوثائق التاريخية التى عثر عليها فى بعض مناطق آسيا القريبة أن خليفته «رمسيس الثانى» ارتقى عرش مصر حوالى عام ١٣٠٠ ق.م وعلى هذا الأساس يكون تقديرنا لمدة حكم سيتى الأول التى بدأت عام ١٣١٧ ق.م وانتهت عام ١٣٠٠ ق.م هو أقرب تقدير إلى الحقيقة.

وأخذ سيتى الأول، الذى ارتقى عرش مصر وهو فى سن الرجولة الناضجة ، على عاتقه تنفيذ تلك المهمة الشاقة وهى إعادة السيطرة المصرية على ربوع فلسطين وسوريا فبدأها فى العام التالى لتوليه الحكم ، وقد حاول «حور ام حب» قبله أن يقوم بهذا فلم يكتب له النجاح الكامل بل حقق بعض الانتصار فحسب . ويغلب على الظن أن «حور ام حب» كان قد اتخذ إجراءات حاسمة فى إعادة تنظيم الجيش المصرى الذى أصبح يتكون من عدة فرق كاملة أطلق على كل منها اسم الاله من آلهة مصر الكبرى، كما ألحق بكل منها مجموعة كبيرة من العربات الحربية لعبت دورا كبيرا فى المواقع الحربية فى عصر الرعامسة ، إذ كان دخولها المعركة بمثابة التعجيل بالفوز والنصر .

استن «سيتى الأول» سنة جديدة بتسجيل أخبار حملاته الحربية، فبدأ بذلك عصرا جديدا فى تسجيل الأحداث التاريخية . سبق القول بأن «رمسيس الأول» بدأ مشروعا جديدا وهو تشييد بهو أعمدة كبير يقوم فى القضاء الواقع إلى الغرب من أبنية ملوك الأسرة الثانية عشرة فى معبد الكرنك، ولا نلبث أن نجد سيتى الأول يخصص جزءا كبيرا من المسطح الخارجى للجدار الشمالى لهذا البهو ليسجل عليه مناظر انتصاراته الكبرى التى حققها فى فلسطين ، ويعتبر هذا بمثابة المحاولة الأولى لتنفيذ مناظر منقوشة على مساحات واسعة من عصر الدولة الحديثة، إذ إن المناظر المشابهة التى وصلت إلينا من العصور السابقة لسيتى الأول كانت تنقش على أدوات صغيرة مثل الجوانب الواقية للمركبات الحربية أو صناديق صغيرة وما إلى ذلك وكانت مناظر الحرب التى سجلها سيتى الأول تصور باسهاب كل أحداث الحملة ابتداء من خروج الجيش من «سيله» أول حصن عند الحدود المصرية حتى رجوعه إليه. حقا أن هذه المناظر لا يمكن أن تقارن بالوصف المادى الذى تتميز به حوليات تحوتمس الثالث، ولا زلنا نأسف لأن معارك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين لم تصل إلينا مشروحة بتلك الطريقة الموضوعية التى اتبعت فى عصر تحوتمس الثالث . وهناك بعض اللوحات الحجرية التى أقامها سيتى الأول، مثل اللوحة التى عثر عليها فى منطقة «بيت شعبان» (بيسان) فى فلسطين ، نقش عليها نصوص تميط اللثام عن بعض الحقائق الخاصة بهذه الحملات إلا أنها لا ترقى مطلقا إلى ما وصلت إليه الحوليات من إسهاب فى الشرح الموضوعى . والأسلوب الفنى الذى اتبعه «توت عنخ آمون» فى تصوير مناظر حملاته الحربية على جوانب الصناديق الخشبية الصغيرة هو بعينه الأسلوب الفنى الذى استخدمه سيتى الأول فى تسجيل مناظر حملاته المنقوشة على نطاق واسع، ففيها نجد فرعون مصر هو الشخصية الوحيدة المهيمنة على المنظر ، وهو المهاجم الفائز بالنصر دائما، بينما الأعداء يصورون كمجموعة من حيوانات

الصيد تهيم على وجهها هربا من صائديها . ولعل أهم منظر من الوجهة التاريخية هو ذلك الذى يمثل الهجوم على «مدينة كنعان» المشيدة على جبل عال جوانبه شديدة الانحدار، وهذه هى المرة الأولى التى نقابل فيها اسم هذه المدينة التى ورد اسمها كثيرا فى نصوص التوراة.

ولا نشك مطلقا فى أن «سيتى الأول» قد أصاب نجاحا كبيرا فى حملته هذه التى كان يهدف من ورائها إلى استرجاع تلك المناطق من فلسطين التى كانت قد تعرضت لهجمات البدو فى عصر العمارنة ، كما استطاع أن يغزو كل المناطق الساحلية حتى ميناء صور فى الشمال . ويبدو أن الزحف شمالا والتوغل فى سوريا أصبح من المعضلات التى لم يقو عليها الجيش المصرى فى عهد الأسرة التاسعة عشرة . وبطبيعة الحال لم يقدر له أن يرى نهر الفرات أو أن يعبره ، والسبب فى ذلك أن «شوبولوليما» ملك الحيثيين كان قد استغل ضعف مصر فى عصر العمارنة ، ومد سلطته على كل المناطق التى خضعت لمصر فى شمال سوريا إبان عصر الأسرة الثامنة عشرة وبذلك هدد دولة الميتانى بل جعلها تنكمش فى حدودها ، وهى الدولة التى انتهت واختفت على يد الملك الآشورى «شالمنصر» حوالى عام ١٢٧٠ ق.م . وتحدثنا نصوص «سيتى الأول» التى نقشها فوق مناظر حملاته العسكرية ، عن تصادم وقع بينه وبين مالك الحيثيين ، وعن حملة جردها ضد الليبيين غربى الدلتا وكانت قد قويت شوكتهم وأصبحوا خطرا يهدد مصر .

ومن المعابد التى شيدها «سيتى الأول» وهو على جانب من الأهمية ، ذلك المعبد الذى بناه فى «بيت شعبان» (بيسان) فى فلسطين ، ولهذا الموقع أهمية حربية واضحة إذ يربط بين نهر الأردن وبين الأماكن التى تقع إلى الشرق منه. وكان يقع إلى الجنوب من الشاطئ الجنوبى لبحيرة «جنيسارت» . أما فى مصر فإن أهم معابده هو معبد أبيدوس وكان المركز الرئيسى لعبادة أوزوريس والآلهة الأخرى التى تمت إليه بصلة . شيد بحيث يتسع لعبادة سبعة من الآلهة ، اختص كل منهم بمقصورة تتقدمها قاعة تؤدى إليها وتتميز بلوحات منقوشة بألوان زاهية وخصصت المقصورة الوسطى لعبادة آمون اله طيبة وإلى اليسار منها نجد ثلاث مقصورات الأولى لعبادة الملك الاله نفسه، والثانية للاله «بتاح» والثالثة لاله الشمس «حور اختى» وإلى اليمين من المقصورة الوسطى مقاصير ثلاث أخر مخصصة لأسرة أوزوريس وهم الآلهة أوزوريس وايزيس وحوريس ولا زلنا نعتبر هذا المعبد من أهم المعابد المصرية التى وصلت إلينا، كما أن الأسلوب الفنى المتبع فى نقوشه يتميز بجمال خطوطه ورقة انسيابها ودقة تنفيذها ومن أهم ما يحويه هذا المعبد القائمة

المشهورة لأسماء ملوك مصر . ونظرا لأن هذه المنطقة لعبت دورا كبيرا فى عبادة أوزوريس فقد شيد المصريون إبان هذه الفترة معبدا عرف بين الأثريين باسم «الاوزيرايون» أقاموه إلى الخلف من المعبد الكبير. يتميز هذا البناء الغريب بأنه شيد داخل تل صناعى تناثرت فوقه الأشجار ويمثل عندهم قبر أوزاريس ونعتقد أنهم كانوا يقومون بأداء الطقوس الخاصة التى تمثل قصة أوزريس فى داخل هذا القبر وكان أداؤهم لها ينصب على «سيتى الأول» وليس معنى هذا أن «الاوزيرايون» كان مقبرة فعلية لسيتى بل كان قبرا رمزيا له – وسبب ذلك واضح وهو أن مقبرة الملك موجودة فى وادى الملوك . وتعتبر من أكبر المقابر هناك وأجملها ، ولا يزال الزائرون لها تتملكهم الدهشة ويملؤهم الإعجاب بأعمدتها الضخمة وبخاصة تلك التى تقوم فى حجرة الدفن والتى تتميز باتساعها الكبير وبسقفها الذى يمثل السماء الزرقاء بنجومها الذهبية اللون . أما تابوت الملك المصنوع من حجر الألبستر فمحفوظ الآن بمتحف لندن ، وتعتبر مومياؤه من أكثر الموميات حفظا لملامحها . ويوجد المعبد الجنازى الخاص بسيتى الأول فى أقصى الشمال من الجبانة الطيبية وهو المعبد الذى لم يوفق مهندسو مصلحة الآثار إلى ترميمه والمعروف باسم معبد القرنة.

خلف «سيتى الأول» ابنه «رمسيس الثانى» الذى حاز شهرة كبيرة وذلك للعدد الكبير من المعابد التى شيدها فى كل ركن من أركان البلاد ، واختار لنفسه اسما للعرش «وسر معات رع» «قوية هى حقيقة رع» وأضاف عليه «شب ان رع» الذى اختاره رع ورد اسم «رمسيس» فى كثير من النصوص الاسفينية (المسمارية) منطوقا على الوجه الآتى : «ريا مشيشا» . ولقد واتاه الحظ فحكم مدة طويلة بلغت ٦٧ سنة أى من عام ١٣٠١ إلى ١٢٣٤ ق.م . وهذا التاريخ ثابت ، إذ ساندتنا فى تحقيقه بعض النصوص المعاصرة التى عثر عليها فى مناطق آسيا القريبة . وبدأ رمسيس الثانى حكمه بأن وجه عنايته إلى متابعة الانتصارات التى حققها أبوه فى فلسطين ومدها نحو الشمال أى إلى سوريا ، ولقد سبق لنا أن أوضحنا تغلغل السلطان الحيثى فى سوريا إبان عصر العمارنة ، وهكذا تقابل كل من القوتين : الحيثيون وسياستهم تقوم على مد سلطانهم جنوبا إلى فلسطين والمصريون وسياستهم تقوم على مد سلطانهم شمالا إلى سوريا ، وكانت الحدود الفاصلة بين هاتين القوتين تقع فى عصر رمسيس الثانى إلى الشمال من مدينة بيروت الحالية على نهر الكلب. وأقام رمسيس الثانى لوحتين حجريتين فوق الجبل مختارا لهما منطقة عالية تصل من ناحية على البحر المتوسط ومن ناحية أخرى تقرب من منبع هذا النهر الصغير الذى ينبع من أعلى الجبل ولا يلبث أن يسير فى مجراه المنحوت فى وسط الصخر حتى يصب فى البحر المتوسط

أى أنه اختار لهما منطقة حربية لا تعادلها منطقة أخرى فى جمالها ، وذلك ليعين حدود كل من الدولتين . ومن الطريف أن نعلم أن الملك الأشوري «اشور زخا أدين» (أسر حادون) أى «أشور أعطى أخا) وصل بعد بضعة قرون إلى نفس المنطقة غازيا وأقام (عام ٦٧٠ ق.م) لوحة بجانب لوحتى رمسيس الثانى، معلنا انتصاراته عليها وتتميز لوحته بقمتها المقوسة بحسب الطراز الأشورى واللوحتان المصريتان مستطيلتان قمتهما مستقيمتان .

سبق لنا الحديث عن النظم الجديدة التى أدخلت على الجيش المصرى والتى كانت تقسمه إلى فرق كل منها تحمل اسما من أسماء آلهة مصر الكبرى وخرج «رمسيس الثانى» فى حملته الثانية ضد الحيثيين وكان ذلك فى العام الخامس من حكمه ١٢٩٦ ق.م وتبعه جيش كبير مقسم إلى أربع فرق أطلق عليها أسماء الآلهة : آمون ، رع، بتاح ، سوتخ (وهو الاسم السامى للاله المصرى ست) . وسار بهذا الجيش فى طريق يوازى الساحل الفينيقى نحو الشمال . وكانت هناك فرقة مساعدة تكونت من جنود مرتزقة من الشروانيين (شردن) المنتمين إلى شعب من شعوب البحر ، وهم عبارة عن فئة من الناس وصلت البحر المتوسط واستقرت فى جزره فى فوج من أفواج الهجرة، وهم بعينهم الذين هاجموا مصر فى عصر الأسرة العشرين وكادوا يستولون عليها . وليس من شك فى أن اسم هذا الشعب يتصل اتصالا لغويا بالاسم المعروف لدينا الآن وهو «سردينيا»، إلا أن السؤال الذى لا نجد له جوابا هو : هل كانت هذه الطائفة من الناس التى ذكرها المصريون تحت اسم «شروانا» قد استقرت فى «سردينيا» إذ ذاك، أو أنهم بعد هزيمتهم المنكرة على أيدى المصريين ارتدوا عن مصر واستقروا فيها ، ومن المعروف أن هناك قرائن أثرية لا نشك فيها تثبت ارتباط الشروانيين الذين ظهروا فى مصر مع السردانيين القدامى.

كان رمسيس الثانى يرى فى الحيثيين عدوه الأكبر وكان ملكهم إذ ذاك هو « مواتال» (١٣٠٠ إلى ١٢٩٠ ق.م) قد أعد العدة لغزو فلسطين . واستعان الحيثيون أيضا بفرق أجنبية ، ميزهم المصريون فى نقوشهم التى سجلوها على معابدهم عن الحيثيين بطريقة تصفيفهم لشعور رءوسهم وذقونهم بل وبآلات الحرب التى استعملوها وليس من شك فى أن هؤلاء كانوا من الميتانيين الذين تحالفوا مع الحيثيين وخرجوا للحرب معهم وعرف الجانبان أهمية اشتراك العجلات الحربية فى المعارك فاعتمدوا عليها بحيث أصبحت هذه المعارك أقرب إلى موقعة حربية بالعجلات . وكان الفارق الواضح بينهما أن العربة المصرية يعتليها مقاتلان أحدهما يتولى قيادة الحصانين بينما ينهمك الثانى فى القتال، والعربة الحيتية يعتليها ثلاثة من الرجال فى الأغلب .

ودارت الموقعة الحاسمة بين المصريين والحيثيين عن حصن قادش على نهر الأورونط فى سوريا ، ونشر العالم الأثرى الأمريكى «برستد» منذ خمسين عاما مؤلفا وافيا عن معركة قادش هذه . وتعتبر المصادر المصرية القديمة هذه المعركة من أهم المعارك التى يفخر بها رمسيس الثانى، ودليلنا على ذلك أنه أمر بنقشها على المناظر التى تبرز أحداثها فوق خمسة من أكبر وأشهر المعابد المصرية وهى معابد الرمسيوم ، والكرنك والأقصر ، وأبيدوس ، وأبو سنبل وغير هذا فقد وصلت إلينا بردية معاصرة تحوى وصفا مسهبا كتب بأسلوب شعرى عن هذه المعركة . وحاول الكثيرون من الرعيل الأول ممن برروا فى الدراسات المصرية أن يقارنوا بين هذه البردية وبين الوصف الذى أورده هومير لحرب طروادة وكانوا مغالين فى ذلك ولاشك. وعلى كل حال فقد ظهر بعد التعمق فى الدراسة والتحليل العلمى أن «بنتا ءونر» (كاتب هذه البردية أى هومير المصرى) لم يكن سوى أحد التلاميذ الذين قاموا بنسخ هذا النص أثناء تدريبهم على الخط بل قد وقع فى بعض أخطاء الاملاء السهلة، وللوصول إلى الحقيقة التاريخية يجب علينا أن ننزع عن هذه القصيدة الحشو الذى اعتاد المصرى أن يقحمه على نصوصه التاريخية، فإذا ما فعلنا ذلك أمكن أن نلخص أحداث هذه المعركة فيما يأتى :

رمسيس الثانى الذى كان يتقدم أولى الفرق الأربعة التى سبق ذكرها فوجئ بالعدو يداهمه ويخرب معسكر فرقة آمون الذى أقامته على مقربة من حصن قادش وبذلك قطعت الصلة بينها وبين فرق الجيش الأخرى، وحدث هذا نتيجة لمعلومات خاطئة وصلت الملك الذى أصبح فى موقف حرج يهدد يحاته فاتجه بدعائه إلى الهة آمون يطلب منه النجدة . وهذا الجزء من البردية أسهب فيه الكاتب وديجه بعبارات رنانة شعرية . وليس من شك فى أن الملك استطاع بشجاعته وقوة شكيمته أن يحول الموقف ويستبدل بالهزيمة الانتصار وألقى الرعب فى قلوب جيش عدوه وأجبره على الفرار . ويعتبر «ادوارد ماير» موقعة قادش هذه انتصارا كبيرا للمصريين وذلك لأن رمسيس الثانى استطاع بهجومه الفردى أن يوقف تقدم الجيش الحيثى نحو الجنوب، ولكن المؤرخين الحديثين المشتغلين بالدراسات الحيثية يرون أن المعركة انتهت بانتصار الحيثيين. وإذا أردنا أن نقف موقف المحايد بين الطرفين كان علينا أن نؤكد بأن المصريين انتصروا فوق أرض المعركة ، ولكن نصرهم المفاجئ هذا لم يعد عليهم بأى كسب حربى، إذ أنهم لم يقوموا بالاستيلاء على حصن قادش، كما أن هناك حقيقة أخرى تؤكد ما قلنا وهى أن الحدود بين الدولتين الحيثية والمصرية بقيت فى موقعها عند نهر الكلب فى فينيقيا تماما كما كانت قبل المعركة بل أكثر من هذا لم يستطع المصريون فيما

بعد أن يمدوا سلطانهم إلى ما وراء نهر الكلب سواء إلى الشمال أو إلى الشرق، ولم يحدث طبعا أن اقتربوا من نهر الفرات بأى حال من الأحوال. وحدثت ثورات جارفة فى كل من فلسطين وسوريا وذلك أثناء ارتداد الجيش المصرى، ومعنى هذا أن الملك اضطر إلى مهاجمة كثير من الحصون لاستردادها من جديد. سجل رمسيس الثانى كل هذه الأحداث العسكرية فوق كثير من معابده التى شيدها فى مصر فى لوحات كبيرة تنقسم إلى مناظر شتى يعلو الواحد منها الآخر، إلا أن تتابع الأحداث لم يظهر واضحا فى هذه المناظر ، وضوحه فى الحوليات التى خلفها لنا تحوتمس الثالث مكتوبة بطريقة واقعية.

استغرقت حروب رمسيس الثانى مع الحيثيين مدة العشرين سنة الأولى من حكمه تتخللها بعض الفترات القصيرة من الهدوء والسلام ، وحوالى عام ١٢٨٠ ق.م تم عقد محالفة بين رمسيس الثانى وبين الملك الحيثى «خاشو شيل الثالث» (١٢٩٠ إلى ١٢٦٠ ق.م) وكان أخا للملك «موا تال» الذى خاض معركة قادش.

وتعتبر محالفة السلم هذه بمثابة الأولى من نوعها التى وصلت إلينا مسجلة ، ولقد عثر على نسختين منها : نسخة فى كل من البلدين المتحالفين ، ففى مصر نقشت نصوصها على جدران معبدى الكرنك والرامسيوم ومعنى هذا أنها كتبت بأسلوب دينى، أما النسخة الحيثية فقد كتبت بالخط الإسفينى البابلى على لوحات من الآجر عثر عليها فى «بوغاز كوى» واتبع فى كتابتها الأسلوب القانونى ، وكانت النسخة الرسمية الأصلية قد نقشت فوق لوحة من الفضة . ضاعت ولم يعثر عليها بطبيعة الحال .

كانت محالفة السلم هذه باكورة عصر ساده الوئام والطمأنينة استمر طوال الفترة التالية من حكم رمسيس الثانى التى استغرقت ٤٥ عاما ، ولذلك من الخطأ أن نعتبر هذا الملك من بين فراعنة مصر المحبين للحروب، بل على العكس من «تحوتمس الثالث» الذى يعد من أبطال الحرب المرموقين . وتنصب شهرة رمسيس الثانى على الأعمال الكثيرة التى أتمها أثناء فترة السلام من حكمه الطويل، وإمعانا فى تقوية أواصر السلام بين مصر والحيثيين تزوج الملك فى الرابع والثلاثين من سنى حكمه (حوالى عام ١٢٦٧ ق.م) من إحدى بنات الملك الحيثى «خاتوشيل الثالث» بل وجعلها الزوجة الأولى له وذلك خلافا لما كان يجرى فى الزيجات التى تمت بين فراعنة مصر والأميرات الميتانيات . سجل هذا الحادث الهام على لوحة كبيرة منقوشة فوق الصخر الطبيعى

المتاخم لمدخل معبد أبو سمبل المنحوت فى الصخر ، ومثل الملك فوقها جالسا بين الإلهين أتوم الهليوبوليتانى وبتاح المنفى (ومن الطريف أنه لم ينقش صورة لآمون رب طيبة) ويتلو هذا صورة الملكة الحيثية التى اتخذت اسما مصريا هو «معات نفرو رع» (الحقيقة هى الجمال للاله رع) ثم أبوها الملك «خاتوشيل الثالث» وقد ظهر فى لباسه الحيثى الذى كان غريبا على المصريين أنفسهم فى ذلك الوقت . وقد عثر على أجزاء كثيرة من لوحات مماثلة فى أكثر من مكان بمصر . ومما يدل على مدى الأهمية التى صاحبت هذه الزيجة لدى المصريين إذ ذاك ، وعلى كل حال كانت معاهدة السلام وهذه الزيجة من العوامل الهامة التى وطدت دعائم السلم لفترة قاربت السبعين عاما فى كل أرجاء الشرق القديم، ولكن الهزات العنيفة التى نتجت عن هجرات شعوب البحر فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد قضت على السلم كما قوضت أركان الدولة الحيثية.

استطاع رمسيس الثانى أن يوجه جهودا ضخمة فى تشييد معابد كثيرة فى كل ركن من أركان دولته الشاسعة وذلك فى أثناء الفترة الطويلة التى سادها السلام من سنى حكمه . وليس فى استطاعتنا أن نسهب كثيرا فى هذا الموضوع إلا أن الواجب يحتم علينا أن نذكر تلك المعابد الكثيرة التى أقامها فى بلاد النوبة السفلى، ويتميز البعض منها بأنه نقر فى التلال الصخرية من الحجر الرملى النوبى والتى نطلق عليها اسم المعابد الصخرية . وأهم هذه المعابد هو معبد «أبوسمبل» المنقور فى الصخر والذى يقع شمالى الحدود الفاصلة حاليا بين مصر والسودان ويهيمن على واجهة هذا المعبد أربعة تماثيل هائلة الحجم تمثل الملك جالسا ويبلغ ارتفاع كل منها ٢٠ مترا . أما الجدران الداخلية فقد وفق الفنان فى تقسيمها إلى لوحات متعددة بعضها يسجل بعض المناظر من معركة قادش . وأقيم فى قدس الأقداس تماثيل أربعة تمثل الآلهة بتاح وآمون وحو حتى ثم رمسيس الثانى نفسه الذى اعتبر أحد الآلهة التى تعبد فى بلاد النوبة.

وهناك مشروع آخر هندسى ضخم نفذه رمسيس الثانى وهو تشييد عاصمة جديدة فى شرق الدلتا أطلق عليها «بيت رمسيس» وكانت الظروف وحدها هى التى حتمت إنشاءها فى شرق الدلتا وذلك لقربها من المنطقة الهامة وهى فلسطين وسوريا ، بينما كان موقع العاصمة طيبه فى مكانها البعيد فى أقاصى الصعيد غير ملائم لذلك وكثر الجدل بين العلماء على تحديد موقع هذه العاصمة الجديدة، إلا أن الأبحاث الجديدة التى قام بها عالم الآثار الفرنسى «مونتيه» فى أطلال مدينة «تانيس» القديمة أنتجت من القرائن الأثرية ما يثبت أن الأسماء الثلاثة «أواريس» (عاصمة الهكسوس) ، و «بيت رمسيس» ، و «تانيس» (عاصمة مصر فى عهد الأسرة الحادية

والعشرين) كانت تطلق على مدينة واحدة، ولقد ذكرنا قبلا بأن أسرة رمسيس الأول نشأت فى هذه المنطقة كما أن الإله ست كان له هناك معبد أقيمت فيه الطقوس منذ أول العصور التاريخية.

ونستخلص من التقارير العلمية التى نشرها «مونتيه» عن نتائج تنقيبه فى تانيس وجود فوارق واضحة بين تانيس وطيبة، وأكد مونتيه نفسه تأثير هذه الفوارق على إلهى هاتين العاصمتين أى «ست» و «آمون» . ومن الواضح طبعا أن نقل الرعامسة لمركز الثقل فى البلاد من طيبة فى الجنوب إلى شرق الدلتا فى الشمال أصاب العاصمة القديمة بهزة عنيفة كانت أول نتائجها التقليل من أهمية إلهها آمون ، ومن الأدلة الدامغة على ذلك أن كميات الذهب التى أغدقها فراعنة هذا العصر على كل من «رع» و «بتاح» كانت تفوق بشكل واضح تلك التى قدموها إلى «آمون» اله طيبة ، نستدل على ذلك من قائمة الهدايا التى وردت فى بردية «هاريس» من الأسرة العشرين .

وبعد أن أسهبنا الحديث عن السنوات الطوال التى استغرقتها فترة حكم رمسيس الثانى، وهى الفترة التى بدأت بأعمال حربية عنيفة، من حقنا أن نثبت هنا بأن العصر الذهبى الثانى للدولة الحديثة الذى حققته الأسرة التاسعة عشرة يرقى فى أهميته إلى المستوى الذى حققه فراعنة مصر من التحامسة . وتمكن أولئك الذين بقوا على ديانتهم القديمة من القضاء بشدة على كل آثار تلك المحاولة العنيفة التى تمت على أيدى الملك المهرطق «إخناتون» ضد الديانة المصرية التى تأصلت جذورها فى البلاد منذ أول العصور (وهذه حقيقة لعل الكثيرين منا يأسفون لها) – وهكذا اختفت كل معالم عصر العمارنة اختفاء تاما اللهم إلا بعض العناصر الفنية التى بقيت لاصقة فى الفن المصرى ، أما فيما يتعلق بسياسة مصر الخارجية فلم يستطع ملوك هذه الأسرة أن يمدوا سلطانهم فى آسيا القريبة على المناطق التى دانت لمصر فى عصر الأسرة الثامنة عشرة وبخاصة على أيدى «تحوتمس الثالث» ، ولكن فلسطين وسوريا حتى نهر الكلب شمالا بقيت خاضعة للسلطان المصرى.

أما سياسة الحكم الداخلى فلم يجد عليها جديد وظلت تسير على نفس النمط الذى سارت عليه فى عصر الأسرة الثامنة عشرة.

وإذا عرضنا لبعض الاختلافات بين الأسرتين التاسعة عشر والثامنة عشرة، نجد بعض التجديد الذى تم بعيدا عن محيط السياسة، يخص الدين والفن واللغة ، سبق لنا الحديث عن النشاط

الضخم الذى قامت به الدولة فى المنشآت المعمارية فى عصر رمسيس الثانى وهذا النشاط يدعونا إلى التساؤل عن الطريقة التى استطاعت الدولة أن تحصل بها على الكميات الكثيرة من المواد التى تحتاج إليها هذه المنشآت العديدة بل كيف استطاعت أن تحصل على ذلك العدد الضخم من العمال الفنيين اللازمين للعمل. ويجدر بنا هنا أن نشير إلى الفارق العظيم بين عمارة الأسرة الثامنة عشرة وأسلوبها الرقيق ونقوشها الدقيقة الجميلة وبين عمارة الأسرة التاسعة عشرة وأسلوبها غير المتناسق ونقوشها الغائرة التى تصل فى عمقها حدا يذهب بجمالها ودقتها ؛ وبخاصة تلك النقوش التى يكتب بها اسم الملك فكانت تنقر بعمق كبير فوق كتابات أخرى أقدم منها فلا تبقى على أى أثر من آثارها .

ولم يوجه علماء الآثار فى دراساتهم عناية كبيرة إلى ناحية من نواحى فن النقش الذى تميزت به الأسرة التاسعة عشرة عن الأسرة الثامنة عشرة . لقد عثر المنقبون على عدد كبير من مقابر الأفراد الذين عاصروا فراعنة الرعامسة وذلك فى جبانات طيبة وبخاصة فى جبانة دير المدينة التى تقع إلى أقصى الجنوب من الشاطئ الغربى لمدينة الأقصر . وأن هذه المقابر (ولا بد أن كان هذا هو حال المقابر الأخرى من نفس العصر فى المناطق الأخرى) تتميز بطريقة مغايرة فى تنظيم لوحاتها المنقوشة فوق الجدران وتنسيقها . كانت طريقة الأسرة الثامنة عشرة تنحو نحو الاستقلال المكانى للمناظر ، ومعنى هذا أن كل منظر كان ينقش على الحائط بحيث ينفصل تماما عن المنظر الذى يليه وكان الفنان ينتهى بمنظر بعينه عند نهاية الجدار ويفصل بين الجدارين فى الزاوية بخط عمودى يتكون من طراز من طرز الزخرفة المتنوعة الألوان. أما طريقة الأسرة التاسعة عشرة فقد جعلت المناظر تتابع دون فواصل تحدد نهايات الجدران عند الزوايا ، وكثيرا ما كانت هذه الزوايا تستدير نوعا بحيث أن منظر «موكب دفن الجثة» مثلا يبدأ عند أول جدار المقبرة على يمين الدخل ويمتد على جدرانها الأربعة وينتهى عند طرف الحائط على يسار الداخل . وهكذا يستطيع الزائر لمثل هذه المقبرة أن يقف فى وسط المكان ويتتبع المنظر من أوله إلى آخره كما لو كان شريطا تمر مناظره أمام عينيه . هذا النوع من «الإحساس بالمكان» لم يظهر فى الفن المصرى إلا فى عصر العمارنة واستمر بعد ذلك فى عصر هذه الأسرة. وفضل المصريون فى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين المناظر الدينية فمثلوا بها جدران مقابرهم وأهملوا المناظر التاريخية . ويبدو واضحا أن هؤلاء الناس كانوا فى مشاعرهم الدينية أقرب إلى آلهتهم ممن سبقهم وبخاصة أولئك الذين عاشوا فى عصر الدولة القديمة حين كان الملك الاله هو الوسيط الوحيد بين الناس والآلهة، هذا إلى أنه

كان يعيش بينهم فوق الأرض. إن العلاقة الشخصية التى تربط بين الفرد والإله هى علاقة لم تكن تمس الملك فى ذلك الوقت ، وهى التى سمحت له بأن يبقى مؤلها وعلى الناس عبادته، هذه العلاقة الشخصية أخذت تبرز لنا بوضوح فى تلك الأدعية التى نقشها أصحابها على لوحات حجرية من عصر الرعامسة، وأخذت تظهر لنا أيضا فى الحكم والأقوال المأثورة والتى ترجع إلى هذا العصر المتأخر من التاريخ المصرى، وهذه الحكم لم تكن تلقى على أساس أنها وردت على لسان أحد الملوك أو المعمرين أو عظماء الناس كما كان الحال فى الدولتين القديمة والوسطى بل كل ناطقيها بعض من حنكتهم التجارب . فقد ورد مثلا على لسان الحكيم «آنى» لا تصرخ فى بيت الاله، فهو يمقت الصراخ فإذا أتممت الصلاة بقلب مفعم بالحب والولاء ، وكانت كلماتك خافتة . فسوف يستجيب الاله لدعائك ، ويستمع إلى ما تطلبه ويقبل قربانك» إن هذه الأقوال تدل على ما كان يسود المجتمع المصرى فى عصر الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين من مثل خلقية عليا ولدينا منها أمثلة كثيرة تلقى ضوءا واضحا على التربية الشخصية التى كان ينشدها أهل هذا العصر.

أما الاختلاف الواضح بين العصرين الذى نريد أن نظهره هنا فهو يختص باللغة ، فقد حرص الناس على أن يكتبوا اللغة الفعلية التى كان الناس يتحدثون بها فى حياتهم اليومية إن هذا التجديد بدئ به أيضا فى عصر اخناتون . وهكذا تمكن لنا دراساتنا الحديثة أن نتتبع تطور اللغة فى عصور ثلاثة.

١- العصر القديم (الدولة القديمة) .

٢- عصر اللغة الفصحى (الدولة الوسطى) .

٣- عصر اللغة العامية (أخناتون وعصر الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين).

وانتشرت هذه اللغة فى عصر الرعامسة انتشارا كبيرا وأصبحت تستخدم فى جميع الوثائق الرسمية وبالتالى فى الكتابات الأدبية . ولعل هذا التجديد الذى حدث فى لغة الأدب والوثائق هو الذى يجدر بنا ، ونحن على حق، أن نعتبر عصر الأسرة التاسعة عشرة بمثابة عصر ذهبى ثان للدولة الحديثة.

مات رمسيس الثانى عام ١٢٣٤ ق.م فى سن الشيخوخة ، وبعد أن حكم مدة ٦٩ سنة وشيد لنفسه معبدا جنازيا ضخما معروف الآن باسم «الرامسيوم» وذلك على الشاطئ الغربى لمدينة

طيبة، ولا زالت بعض أجزائه الهامة الباقية تثير إعجابنا الشديد . أما جثة الملك المحنطة فقد عثر عليها فى حالة جيدة، ولكن مقبرته التى نقرها فى وادى الملوك فهى مقبرة ضخمة لا تتميز بما يدعونا إلى الحديث عنها. وتزوج رمسيس الثانى إبان حياته الطويلة زوجات عديدات وأنجب منهن أولاده وهو على قيد الحياة مما جعل خليفته وهو الابن الثالث عشر من أبنائه وهو الملك «مر نبتاح (ويطلق عليه عادة اسم «منفتاح») الذى جلس على العرش بعد أن تقدم سنه ولم يحكم أكثر من عشر سنوات (١٢٣٤-١٢٢٥) ولو أن الوثائق التي وصلت إلينا من عصره لم تذكره إلا إلى السنة الثامنة من حكمه . وحدث فى عصره أن هددت مصر بعض الأخطار التى دقت أبوابها من الشرق والغرب، إلا أن الحروب الدامية أبعدتها عن مصر ولو إلى حين .

مرت سنوات عصر الدولة الحديثة دون أن يحدث على حدودها الغربية- حيث يسكن الليبيون – حدث يثير قلق فراعنة مصر. لقد كان الليبيون، وهم أقوام ينتسبون إلى الجنس الحامى الذى ينتسب إليه المصريون أيضا ويعيشون فى المناطق المتاخمة لغرب الدلتا، وكانوا يطمعون منذ أول العصور فى أراضى الدلتا الخصبة. ويدل على ذلك المناظر التى وصلت إلينا من عهد الدولة القديمة. إلا أنه حدث فى أواخر عصر الأسرة التاسعة عشرة أن تجمعت حشود ضخمة منهم أخذت تهدد بالهجوم على مصر من الغرب. وتكونت هذه الجموع من شعبين كل منهما يحاول أن يجد فى مصر موطنا جديدا يستقر فيه : أولا شعب «الليبو» وهم الذين أطلق عليهم الإغريق اسم «الليبيون» أى نفس الاسم الذى نطلقه عليهم، وثانيا شعب «المشوش» ولعل هذا الإسم هو الذى وصلنا محرفا عن الاغريقية «ماكسيس» . خرج « مر نبتاح» فى العام الخامس من حكمه وصد الهجوم العنيف الذى شنه هذان الشعبان على مصر وأنزل بهما خسائر فادحة.

وتخفى محاولة الغزو التى شنها الليبيون على مصر أخطارا جسيمة إذ لم يكن الغزاة من الليبيين فحسب بل وقفت إلى جانبهم شعوب أخرى أخذت تمد لهم يد المساعدة وتنشر الرعب والقلاقل فى مناطق شرقى البحر المتوسط وتحاول الوصول إلى مصر المرة بعد الأخرى. أن هذه الشعوب فى تحركاتها المستمرة للبحث عن أوطان جديدة أصبحت تحتل فى التاريخ شهرة كبيرة ونطلق عليها اسم «شعوب البحر» وكان سبب هجراتهم التزاحم الكبير الذى قام بينهم وبين المستوطنين الجدد من «الألبريين» أحد الشعوب الآرية ومن الدوريين الزاحفين على منطقة شبه جزيرة البلقان. وتسرد لنا نقوش ومناظر المعارك التى وقعت بين المصريين وبينهم فى العصر المتأخر من الأسرة التاسعة عشرة وبخاصة فى الأسرة العشرين أسماء هذه الشعوب ومن بينها :

«الشردانا» (وقد سبق ذكرهم كجند كجند مرتزقة استعان بهم رمسيس الثانى) ، و «شاكالشا» و«تورشا» و «أكايواشا» و «لوكا» و «بلست» و «زاكار» وتعددت أبحاث العلماء عن مواطن هذه الشعوب وتحركاتها ولكن للأسف لم تسفر هذه الأبحاث عن معلومات محددة كافية . لقد انتهت الآراء منذ أمد طويل على أن كلا من الشعبين «شردانا» و «شاكالشا» يمتان بصلة إلى جزيرتى «سردينيا» و «صقلية» وأن «تورشا» هم «التيرسينيون» أى «الأتروسكيون» الذين ظهروا فيما بعد ، وأن «لوكا» هم «اللوكيون» الذين سكنوا الشاطئ الجنوبى لبلاد الأناضول أما «أكايواشا» فيغلب على الظن أنهم هم الذين ظهروا فيما بعد تحت اسم «الآخيين» فى شبه جزيرة البلقان . وفى آخر الأمر فإن «بلست» وهم الذين ورد اسمهم مع «زاكار» ابتداء من عصر الأسرة العشرين والذين هزمهم «رمسيس الثالث» فيغلب على الظن أنهم من «كريت» من غرب البحر المتوسط وهم أيضا الذين ذكرهم كتاب العهد القديم تحت اسم «فلسط» أى الاسم الذى اشتق منه فيما بعد اسم «فلسطين» . ويمكن لنا فى فى آخر الأمر أن نقول أن معظم هذه الشعوب كانت تستوطن مناطق آسيا الصغرى، إلا أن الهزيمة المنكرة التى منوا بها على يد المصريين جعلتهم يهيمون على وجوههم ويبحثون عن أوطان جديدة يستقرون فيها وهى الأوطان التى تحمل الآن أسماء تقرب من تلك التى كانت تطلق على شعوب البحر. هذا الرأى يمكن الأخذ به على الأقل بالنسبة إلى «سردينيا» (أى «شيردانا») وإلى الأتروسك» (أى تورشا) .

سجل الملك «مر نبتاح» انتصاراته العظيمة ضد الليبيين على جدران معبد الكرنك وعلى لوحة حجرية كبيرة محفوظة الآن بالمتحف المصرى وعثر عليها فى الأصل فى مدينة طيبة. ويذكر الملك على هذه اللوحة الحجرية بالذات وفى نهاية النص انتصارات أخرى حققها ضد بعض الشعوب ومن بينها شعب «اسرائيل» الذى يقطن فلسطين . وتعرف هذه اللوحة باسم لوحة «اسرائيل» وذلك لأنها تذكر هذا الاسم لأول مرة بل وللمرة الوحيدة فى مصر . ويمكن للباحث أن يستخلص من هذا حقيقة تاريخية مهمة وهى أن الاسرائيليين كطائفة من الناس سكنوا فلسطين فى عصر الملك «مر نبتاح» ، وهذا النص يصف بلادهم على أنها جدباء لا أثر للنبات فيها . ومن الواضح طبعا أن مر نبتاح قضى على ثورة كانت قد قامت فى هذه المنطقة . وللأسف الكبير ورود اسمهم فى هذا النص لا يجدى نفعا فى توضيح مشكلة خروج «بنى إسرائيل» من مصر ولو أن من الغريب حقا أن تذكر النصوص المصرية لأول مرة اسم الاسرائيليين فى عصر ملك كان أبوه هو رمسيس الثانى الذى تحدثت عنه التوراة بأنه استعان بالأسرائيليين فى بناء أكثر من مدينة وبخاصة العاصمة الجديدة

«بيت رمسيس». وعلى كل حال نستطيع أن نحدد الوقت الذى حدثت فيه أسباب تاريخية دفعت الاسرائيلين إلى الهجرة من مصر أى فيما بين ١٢٤٠ و ١٢٣٠ ق.م.

ويبدو أن الأسرة التاسعة عشرة انتهت على أثر انقلاب حدث فيها لم نستطع التعرف على أسبابه من النصوص المعاصرة وذلك لقلتها . ونقر مر نبتاح لنفسه مقبرة فى وادى الملوك بطيبة كما شيد لنفسه معبدا جنازيا إلى الجنوب من الرامسيوم لم يصل لنا منه إلا بقايا قليلة . ولم يصل إلينا من هذا الملك عمارات أخرى، ويفسر «ادوارد مایر» هذه الظاهرة ، وهو على حق فيما يقول ، بأن نشاط رمسيس الثانى فى إنشاء معابده الكثيرة استنفد كل إمكانيات مصر فى هذا الصدد ، ودليلنا على ذلك أن «مرنبتاح» اضطر إلى الاستيلاء على لوحة حجرية كان «امنحوتب الثالث» قد أقامها ، ونقش على ظهرها ذلك النص الطويل الذى سجل فيه انتصاراته المهمة ضد الليبيين وهى اللوحة المعروفة باسم «لوحة اسرائيل» .

خلف مرنبتاح فى الحكم ابنه «سيتى الثانى» وذلك حسب ما أوضحه «بيكراتس» فى كتابه المعد للطبع عن «عصر الرعامسة» وتذكر النصوص أنه استمر على العرش مدة ست سنوات (من ١٢١٦ إلى ١٢١٠) ق.م . ثم تبعه الملك «سا بتاح» الذى استمر حكمه بحسب ما ورد إلينا من نصوص مدة ست سنوات (أى من ١٢١٠ إلى ١٢٠٣ق.م)

ويبدو أن الأسرة التاسعة عشرة انتهت على أثر انقلاب حدث فيها لم نستطع التعرف على أسبابه من النصوص المعاصرة وذلك لقلتها . ونقر مرنبتاح لنفسه مقبرة فى وادى الملوك بطيبة كما شيد لنفسه معبدا جنازيا إلى الجنوب من الرامسيوم لم يصل لنا منه إلا بقايا قليلة. ولم يصل إلينا من هذا الملك عمارات أخرى ، ويفسر «ادوارد ماير» هذه الظاهرة ، وهو على حق فيما يقول ، بأن نشاط رمسيس الثانى فى انشاء المعابد الكثيرة استنفد كل امكانيات مصر فى هذا الصدد ، ودليلنا على ذلك أن «مرنبتاح» اضطر إلى الاستيلاء على لوحة حجرية كان «امنحوتب الثالث» قد أقامها ، ونقش على ظهرها ذلك النص الطويل الذى سجل فيه انتصارات المهمة ضد الليبيين وهى اللوحة المعروفة باسم «لوحة اسرائيل».

خلف مرنبتاح فى الحكم ابنه «سيتى الثانى» وذلك حسب ما أوضحه «بيكراتس» فى كتابه المعد للطبع عن «عصر الرعامسة» وتذكر النصوص أنه استمر على العرش استمر حكمه بحسب

ما ورد إلينا من نصوص مدة ست سنوات (أى من ١٢١٠ ارتقائه العرش المصرى ، على زواجه من الملكة «تاوسرت» التى كانت ابنة «مرنبتاح» أى الوريثة الشرعية للعرض ، والتى تزوجت فى أول الأمر أخاها من أبيها سيتى الثانى. وعلى كل حال تمتعت هذه السيدة بمركز سام جعلها تتميز بحصولها على حق الدفن فى مقبرة خاصة لها فى وادى الملوك، عثر عليها وكانت تحتوى على أشياء فاخرة كثيرة. ودفن «سيتى الثانى» و «سابتاح» فى مقبرتين فى وادى الملوك ، إلا أنهما كانا يحكمان من العاصمة «بيت رمسيس» فى شرق الدلتا، حالهما فى ذلك حال ملوك الفراعنة منذ رمسيس الثانى.

سبق لنا الحديث عن المظاهر التى تدل على وجود جفاء بين أسرة الرعامسة وبين الكهنة فى طيبة واستغل أحدهم هذا الجفاء القائم وقام ينادى بحقه فى العرش مسميا نفسه «آمون مسس»، (آمون ولده) ، ولا شك فى أن هذه التسمية تعتبر استفزازا للاسم الشائع بين الأسرة وهو «رع مسيس» (رع ولده) ثم كون هذا الرجل حكومة فى مصر العليا وذلك فى أثناء حكم «سابتاح» ولكنها لم تدم إلا فترة قصيرة واختفت حوالى عام ١٢٠٩ ق.م إلا أن أهل طيبة كانوا قد اعترفوا بزعامة هذا الرجل إذ سمحوا لجثته أن تدفن فى مقبرة منقورة فى منطقة وادى الملوك المقدسة. وزادت الحال سوءا بعد موت «سابتاح» إذا اغتصب العرش رجل أجنبى (يغلب على الظن أنه كان فلسطينى الأصل) اسمه «ايرسو» ولم تذكره إلا وثيقة واحدة مكتوبة على ورقة بردية، فى حين لم تصل إلينا أية آثار له . ولكن ظواهر الأمور تدل على أنه حكم فى «بيت رمسيس» وأن حكمه لم يدم أكثر من سنتين (١٢٠٢ إلى ١٢٠٠) .

كان «ست نخت» هو مؤسس الأسرة الجديدة (الأسرة العشرين) ومعنى اسمه «الاله ست قوى» وهو ينتسب إلى أسرة كانت تعيش فى العاصمة «بيت رمسيس» أى «تانيس» فى شرق الدلتا، ودليلنا على ذلك أن اسمه يتكون من مقطعين أولهما هو الاله ست . وبدأ حكمه بأن قضى على الحاكم الأجنبي وأعاد السلام إلى البلاد ولكنه لم يبق فى الحكم إلا فترة قصيرة ولم يترك وراءه ما يدل على أعماله وجهوده (١٢٠٠ إلى ١١٩٧ ق.م) وخلفه ابنه الذى كان يبدو أنه اتبع نصيحة أبيه فتسمى بالاسم المشهور ذى الرنين المدوى أى «رمسيس» وأصبح بذلك «رمسيس الثالث» الذى ذكره الإغريق منطوقا «رامبسينيت» واحتفظ كل الملوك الذين خلفوه على العرش باسم رمسيس ويعدد التاريخ من هؤلاء الذين حكموا في الأسرة العشرين حتى رمسيس الحادى عشر.

جلس رمسيس الثالث على عرش مصر مدة اثنين وثلاثين عاما وهو يعتبر آخر الملوك العظام الذين تولوا الملك في عصر الدولة الحديثة.

والمصادر التى تحدثنا عن فترة حكم رمسيس الثالث، كثيرة متعددة الجوانب فهناك معبده الجنازى الكبير الذى لا زالت معظم أجزائه قائمة والمشيد فى أقصى الجنوب من الشاطئ الغربى لمدينة طيبة وهو المعروف لدينا الآن باسم معبد مدينة هابو. ثم بضعة معابد صغيرة أقامها فى منطقة معبد الكرنك . وكذلك مقبرته الضخمة التى تتميز بنصوصها المختلفة والمحفورة فى وادى الملوك ثم بردية هاريس الكبرى وهى أطول البرديات التى وصلت إلينا من عصر الفراعنة، وهى تحوى نصا يعتبر بمثابة تقرير كامل عن ثروات ومقتنيات المعابد المصرية فى عصر (رمسيس الثالث) ونستطيع منها أن نتعرف على الثروة القومية الضخمة التى كانت تملكها مصر فى عصر أواخر الدولة الحديثة.

وحاول «رمسيس الثالث» طوال مدة حكمه أن يقلد سلفه العظيم «رمسيس الثانى» وأن ينحو نحوه ، هذا مع العلم بأن الملكين لم يكن تربط بينهما أية صلة قرابة أو دم، وبلغ رمسيس الثالث حدا من التقليد نستطيع أن نستدل من آثاره على أشياء كثيرة كانت تجرى فى عصر سلفه الكبير.

وما دمنا نستعرض الأعمال التى قام بها «رمسيس الثالث» فعلينا أن نقف للتحدث عن معبد مدينة هابو، وهذا المعبد نعرف عنه الكثير ومرجع ذلك إلى الدراسة الضخمة التى استغرقت عشرات السنين والتى يقوم بها «معهد الدراسات الشرقية» بشيكاغو منفذا بذلك البرنامج الذى وضعه «برستد» لتسجيل كل النقوش والمناظر التى وردت على جدران المعابد المصرية، وكذلك إلى الجهد الكبير الذى بذله الأستاذ «هولشر» فى التنقيب عن الأجزاء التى لم يكن قد كشف عنها بعد من المعبد، ولعل من أهم النتائج التى أسفرت عنها عملية التنقيب العثور على القصر الملكى الملحق بالمعبد ، حيث كان ينزل الملك عند زيارته للقصر آتيا من عاصمته البعيدة فى شرق الدلتا، وكانت كل المعابد الجنازية التى أقامها فراعنة مصر على الشاطئ الغربى لمدينة طيبة مشيدة لإقامة الطقوس الدينية للاله آمون أولا ثم لإقامة الشعائر الجنازية للملك بعد موته، ومن أجل ذلك كانت هذه المعابد عامرة بكهنتها وزوارها فى أثناء حياة بانيها . ولقد استغل «رمسيس الثالث» مسطحات جدران معبد السالف الذكر- وهى من الأشياء التى بقيت لنا محفوظة حتى

الآن- لتسجيل مناظر معاركه الحربية ضد شعوب البحر التى هاجمت حدود مصر . ولقد رسمت هذه المناظر بنفس الطريقة والأسلوب الفنى الذى ظهر فى الأسرة التاسعة عشرة.

بعد موت «رمسيس الثالث» بدأت سطوة الملك وقوته تنهار بسرعة فائقة وتولى عرش مصر من بعده ثمانية ملوك (من رمسيس الرابع إلى رمسيس الحادى عشر) حكموا فترة ثمانين عاما، أى من حوالى عام ١١٦٥ إلى ١٠٨٥ ق.م وبقيت عاصمة البلاد فى شرق الدلتا أى «بيت رمسيس» (التى سميت فيما بعد تانيس) واستمر التقليد القديم فى دفن الملوك فى مقابر وادى الملوك بطيبة وأعدت لكل من هؤلاء مقبرة متسعة مزينة بالنقوش والمناظر هناك. وكما مضى عصر هؤلاء الملوك دون حدث ما يسترعى النظر تاريخيا فإنهم لم يخلفوا وراءهم آثارا تستحق الذكر، وتضاءلت أملاك مصر خارج حدودها بحيث فقدت كل مناطق فلسطين .

فى هذه الفترة خذت قوة كبار كهنة آمون بطيبة تزداد باطراد ، وفى عصر «رمسيس الرابع» تولى هذا المنصب الكبير الكاهن ، «رمسيس نخت» ، ومن ثم أصبح من حق صاحب هذا المنصب أن يورثه لأبنائه ، ونتيجة لذلك تمكن «امنحوتب» بن «رمسيس نخت» أن يصور نفسه بجانب الملك الشرعى فى حجم مواز له ، وهذا أمر كان يتنافى مع التقاليد المصرية قبل ولم يكن يسمح به مطلقا فى العصور السابقة. ومن بعد «أمنحوتب» تولى هذا المنصب رجل اسمه «حريحور» لا نعرف عن أصله شيئا، وكل ما نعرفه عنه أنه استمد نفوذه وسطوته من الوظيفة التى كان يتقلدها وهى حاكم بلاد النوبة التى كان صاحبها يلقب باللقب القديم «ابن الملك المولى على كوش». وكانت هذه البلاد هى كل ما تبقى لمصر خارج حدودها فى ذلك العصر. وسوف تضيق صفحات هذا الكتاب إذا أردنا أن نسرد هنا ما كان يحدث من مؤامرات مختلفة خاصة ولأن معلوماتنا عنها لا تزال قليلة غير واضحة. فمن الناحية التاريخية حدث فى هذا الوقت أمر هام وهو محاولة «البدء بعصر زمنى جديد» أو كما أطلق المصريون عليه فى ذلك الوقت «وحم ميسوت» وهى كلمة تعنى «اعادة الولادة» (رنيسانس) ، وهذه المحاولة كانت وليدة رغبة صادقة عند الرعامسة الذين حكموا مصر فى أواخر الأسرة العشرين، تهدف إلى أن يحققوا للبلاد عصرا ذهبيا على نمط ما كانت تتمتع به تحت حكم الملوك الكبار، إلا أن التاريخ بهذا العصر الزمنى الجديد ترك وأهمل عندما تولى حكم مصر ملوك الأسرة الحادية والعشرين.

حكم « رمسيس الحادى عشر » البلاد مدة ثلاثين عاما ، إلا أننا نجهل تماما الطريقة التى انتهى بها حكمه . وعلى كل حال يبدو أنه نجح فى حكم البلاد داخليا ولكن نجاحه هذا لم يستمر طويلا ، ويغلب على الظن أن خلفه « سمندس » تمكن من أن يقوض حكمه ويتولى هو العرش بدلا عنه « وسمندس » هذا هو الشخص الذى قام بحركته فى العاصمة تانيس ، ونحن نرفض النظرية القائلة بأن خليفة رمسيس الحادى عشر كان « حريحور » . ويبدو أن الاتفاق بين الملكين كان قد وصل إلى حد الاعتراف بآمون فى تانيس بل وإلى حد إلغاء عبادة الاله المحلى الكبير فى تانيس وهو « ست » .

٥- عصر النكسة والانتقال إلى العصر المتأخر

(الأسرات من الحادية والعشرين إلى الرابعة والعشرين)

من ١٠٨٥ إلى ٧١٥ ق.م

يمثل عصر الأسرة الحادية والعشرين فى مصر عصر اضمحلال شديد بالنسبة إلى سياستها خارج البلاد وكذلك بالنسبة إلى انهيار مظاهر الحضارة فيها . لقد بقيت تانيس فى شرق الدلتا مركزا للحياة السياسية كما كان الحال فى عصر الرعامسة ، وبقى فيها سمندس يدير دفة الحكم ، وهو الرجل الذى قلنا أننا لا نعرف عن أصله شيئا ، أما طيبة، المدينة التى تمتعت فى يوم من الأيام بأسطورة لا مثيل لها فقد أصبحت الآن تتردى فى ظلمات النسيان يقبع فيها «حريحور» الذى استطاع أن يجعل تانيس تعترف بالإله آمون إلها للدولة ولكنه بقى ضعيفا لا حول له . ويرجع إلى هذا العصر التقرير الذى كتبه الموظف المصرى «ون أمون» واصفا رحلته التى خرج فيها من طيبة مبعوثا من «حريحور» ليجلب زشجار الأرز من مدينة «جبيل» على الساحل الفينيقى وذلك لتجديد بناء القارب المقدس للاله آمون الذى يستعمل فى مواكبه . وهذا التقرير يلقى ضوءا على ما كانت تعانيه مصر من ضعف واضمحلال فى عصر الأسرة الحادية والعشرين . عومل هذا الرسول المصرى فى كل مكان حل فيه بسوريا باحتقار وإذلال ، ولابد أن الناس فى سوريا لم يكونوا قد نسوا ما كان لمصر ولإلهها العظيم آمون من قوة وسيطرة فيها ولكن يبدو أن هذا المجد التليد كان قد أصبح فى سوريا أثرا بعد عين. وليس من شك فى أن تقسيم مصر إلى مملكتين فى ذلك الوقت كان له أثر فعال فيما أصاب «ون آمون» من امتهان .

وليس هناك ما يدعو إلى سرد أسماء ملوك هذه الفترة فى كل من المنطقتين ، ومن الطريف أن يذوق الناس قد تغير فى مصر إلى درجة أن أسماءهم كانت تتخذ طابعا ينسجم مع العصر فنراهم يطلقون على أنفسهم «بى عنخى» (أى «الحى») أو «بى نوتم» (أى «الحلو») وقدر لمصر فيما بعد أن تتحد وذلك بعد أن تزوج حفيد «حريحور» من ابنة أحد ملوك تانيس وبقى الشمال مهيمنا على مصر وتانيس صاحبة الكلمة فيها . بل أكثر من هذا نشب خلاف كبير عن أحقية «حريحور» فى تلقيب نفسه بلقب ملك وهل يعتبر خليفة شرعيا لفراعنة مصر ؟

حققت الأسرة الثانية والعشرون لمصر وحدتها الفعلية ، ونشأت هذه الأسرة من بيت ليبى عمل أفراده بالجيش كضباط عظام وأخذوا يستقرون منذ عصر الرعامسة فى أهناسيا بمصر الوسطى. ولقد سبق الحديث عن ازدياد استخدام الجند المرتزقة فى الجيش المصرى منذ عصر الرعامسة ، كما أن انتصارات رمسيس الثالث الكاسحة على الليبيين لم تمنع تسرب بعض الفلول منهم إلى الدلتا والاستقرار فيها . وكثيرا ما يرد في النصوص التى وصلت إلينا من القرنين العاشر والتاسع عشر قبل الميلاد اللقب الليبى «أمير ألما» وكلمة «ما» هذه ليست إلاَّ اختصارا للاسم المعروف «ماشا واشا» (أو «ماشوش») الذى كان يطلق على قبائل الليبيين. ولقب «أمير الما» كان يطلق عادة على المحافظين من الليبيين الذين تولوا إدارة بعض المدن المصرية أو عينوا مديرين لبعض الأقاليم. ونحن نجهل تماما الطريقة التى تم بها انتقال الحكم من ملوك الأسرة الحادية والعشرين إلى فراعنة الأسرة الثانية والعشرين. نحن نعلم فقط أن الملك الليبى «شوشنق» (وينطلق أيضا «شيشونق» وعرفه الاغريق تحت اسم «سيسونخيس») ارتقى عرش مصر حوالى عام ٩٥٠ ق .م اسم هذا الملك ورد لنا مكتوبا فى اللغة الآشورية «شوشينقو» وفى اللغة العبرية «شوشق» (وكتب أيضا «شيشق») . وحكمت الأسرة الثانية والعشرين أكثر من قرنين أى (استمرت فى الحكم حتى عام ٧٣٠ قبل الميلاد. ومن بين أسماء ملوك الليبيين نجد أيضا اسم «اوسوركون» و «تاكيلوت». واختار ملوك الليبيين الدلتا مقرا لحكمهم وكانت عاصمتهم هى «يوباستيس» (أى مدينة باستت الالهة القطة) وتقع هذه العاصمة بالقرب من مدينة الزقازيق الحالية بشرق الدلتا. ونظرا لأن الملوك الليبيين سيطروا على مصر كلها لذلك نراهم يساهمون فى توسيع أرجاء معبد الكرنك فشيدوا فيه بهو الأعمدة الذى يقع إلى الغرب من بهو الأعمدة الكبير فى المعبد. كما استطاعوا أن يقضوا على ما كان ملوك الأسرة الحادية والعشرين قد منحوه للكهنة من سلطان فى طيبة وأصبحت وظيفة كبير الكهنة «آمون» تعطى إلى أحد أمراء الأسرة المالكة دون أن يكون له حق توريثها لأبنائه . وهكذا ارتبطت طيبة مرة أخرى بالدولة ارتباطا وثيقا .

وتمكن الكثيرون من قواد الفرق الليبية المرتزقة الذين استقروا فى الدلتا من أن يسيطروا على مناطقهم وانتهى الأمر بأن تكونت منهم طبقة من المحاربين أطلق الإغريق فيما بعد على أفرادها لقب «ماخيموى» ونظرا أن الالتحاق بالعسكرية أصبح هدفا يرنو إليه كل أفراد الأسرة ويتوارثونه ابنا عن جد لذلك نجد أن الظروف حتمت وجود بعض الأسر التى اتخذت من الكهنوت مهنة لها وانتهى الأمر بها أن تجمعت فى طغمة الكهنة . ومن هذا تكونت الصورة الخاطئة التى رسخت

فى أذهان الرحالة الاغريق الذين وفدوا على مصر منذ القرن السابع قبل الميلاد واعتقدوا أن الحياة الاجتماعية فيها تقوم على نظام الفئات المهنية . وهى بعينها الصورة التى تغلغلت فى كتب علماء الآثار من الرعيل الأول.

وبعد أن استقرت الأحوال الداخلية أخذ «شيشونق» الأول يحاول استعادة فلسطين تحت الحكم المصرى. وورد ذكر الحملة التى أرسلها الملك فى السنة الخامسة من حكمه إلى فلسطين ، مكتوبا فى الاصحاح الرابع عشر من سفر الملوك الأول من العهد القديم . ومن هذا النص القصير نعرف أن الملك الذى كان يحكم فى أورشليم هو «رحبعام» من يهوذا وحكم طوال الفترة من ٩٣٥ إلى ٩١٩ قبل الميلاد أى أنه كان معاصرا «لشيشونق الأول» . ويبدو أن هدف هذه الحملة لم يرد على السلب والنهب على نطاق واسع وذلك لملء خزائن مصر التى كانت خاوية أما «شيشونق» فقد سجل انتصاراته فى حملة فلسطين على أحد حوائط الكرنك وأخذ يعدد فى هذا النص أسماء المدن التى احتلها مغاليا فى ذلك كل المغالاة . وعلى كل حال يعتبر هذا النص الأخير من نوعه الذى يسجل لنا انتصارات تاريخية ولو أنه لم يبرز هذا الانتصار العسكرى فى لوحات واسعة المدى كتلك التى عرفناها من عصر الرعامسة. ويبدو أن هذه الحملة وصلت فى زحفها إلى مناطق تبعد عن فلسطين شمالا إذ عثر على بعض الآثار لملوك من الأسرة الثانية والعشرين فى جبلين وهى المدينة التى تفنن أميرها فى اذلال «ون آمون» مبعوث مصر فى عصر الأسرة الحادية والعشرين. ونعتقد أن هذه الآثار وصلت إلى «جبلين» كهدايا ملكية ثم نقش عليها فيما بعد بعض النصوص الفينيقية . ونحن لا نشك فى أن النفوذ المصرى كان قد رجع مرة ثانية إلى فلسطين فى ذلك الوقت ودليلنا على ذلك أن حملة «شالمنصر» الثالث التى وجهها إلى هذه المنطقة تقابلت فى موقعة «قرقر» حوالى عام ٨٥٣ ق.م . بجيش متحد من السوريين والفلسطينيين ومعه فرقة مصرية تتكون من ١٠٠٠ جندى مصرى.

وكان السؤال الذى يوجهه علماء الآثار هو : أين الجبانة الملكية لفراعنة الأسرات من الحادية والعشرين حتى الثالثة والعشرين ، أى الذين حكموا مصر من العاصمتين «تانيس» و «بوباستيس» وظل هذا السؤال لا يجد جوابا شافيا حتى تمكن عالم الآثار الفرنسية «مونتيه» من العصور أخيرا على مجموعة مقابر ملوك الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين فى أطلال مدينة تانيس نفسها ووجد فيها آثارا تشبه تلك التى احتوتها مقبرة «توت عنخ آمون» بل تفوقها فى دقة الصناعة ووفرة المعادن الثمينة التى صنعت منها وإن كانت أقل منها كما .

واعتاد المؤرخون أن يربطوا بين الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين وذلك لأن الأسرة الأخيرة ليبية الأصل أيضا ولأنها حكمت مصر من العاصمة تانيس ونعرف من ملوكها الأسماء الآتية : «بيتو باستيس» و «وأرسكون الثالث» و «الرابع» ، ويبدو أن الأحوال فى مصر أخذت تسوء فى أواخر العصر الليبى، وسوف نتحدث على الصفحات التالية عن وقوع الاقليم الطيبى فى قبضة الأثيوبيين عام ٧٥٠ ق.م ، كما أن الدلتا انقسمت على نفسها وأصبحت تتكون من إمارات تقاتل بعضها البعض .

ويجدر بنا هنا أن نذكر كلمة عن الأسرة الرابعة والعشرين التى لم يستطع مانيتون إلا ذكر اسم ملك واحد من ملوكها . فيبدو أن أحد الأمراء الذين استقلوا باماراتهم المتعددة فى الدلتا ، واسمه «نخت» أمير «سايس» (المقاطعة الخامسة من مقاطعات الدلتا وتقع فى غربها) استطاع حوالى عام ٧٣٠ ق.م أن يجمع تحت لو أنه كثيرا من مقاطعات مصر السفلى وبدأ يحاول مد نفوذه على مصر العليا. إلا أن محاولاته هذه اصطدمت بأهداف الملك الأثيوبى «بعنخى» ولم يقدر لها النجاح على النحو الذى سنسرده على الصفحات التالية عند الحديث عن الأسرة الخامسة والعشرين ونشأتها . وتمكن ان «تف نخت» وهو المدعو «باك ان رنف» (تذكره النصوص الاغريقية تحت اسم «بوكو ريس» وهو الاسم الأكثر شهرة فى الكتب التاريخية) من أن يسيطر على معظم مناطق الدلتا لمدة ست سنوات ومن أجل هذا تذكره المصادر التاريخية كمؤسس الأسرة الرابعة والعشرين والملك الوحيد فيها (٧٢٠ إلى ٧١٥ ق.م) . ومع قلة ما قالته المصادر المصرية عن هذا الملك تزخر المصادر الاغريقية بأنبائه ، وهى تذكر عنه أنه كان رجلا حكيما مشرعا كبيرا ، وانتهى حكمه القصير على يد أول ملوك الأسرة الخامسة والعشرين الذى حكم عليه بالحرق حيا .

وحديثنا عن عصر الأسرات من الثانية والعشرين إلى الرابعة والعشرين لابد أن يكون حديثا موجزا وذلك لقلة الآثار التى وصلت إلينا منه، وهى تدل – مع قلتها– على أنها من عصر يعتبر مع انهيار حضارته عصر انتقال للعصور التالية. ونحن نحس مدى تمسك هذا العصر بأهداب الفنون التى كانت تسود مصر فى عصر الدولة الحديثة وتمسكه بأن ينحو نحو ملوك هذه الدولة فى تقاليدهم السياسية، فحاولوا استعادة فلسطين وسوريا ، ونجح فى ذلك شيشونق الأول إلى حد كبير.

وهناك بعض المظاهر الفنية ظهرت فى عصر الأسرة الثانية والعشرين . وتأصلت جذورها فيما

بعد فى العصر المتأخر ، تذكر منها على سبيل المثال التماثيل الكبيرة المصنوعة من البرونز والتى تتميز بدقتها الفائقة، ثم انتشار التماثيل التى تظهر أصحابها فى جلسة القرفصاء . ونظرا لأن محاولات «شيشونق الأول» فى إعادة مد نفوذ مصر العسكرى على فلسطين على الأقل، تعتبر صدى لما كانت تجيش به صدور أهل هذا العصر من عواطف فياضة تدفعهم نحو التمثل بملوك الدولة الحديثة، كذلك عالجنا أحداث هذه الفترة وسردناها فى القسم المخصص للدولة الحديثة. ونفرد الفصل التالى للفترة التى بدأت بالأسرة الخامسة والعشرين الأثيوبية، وانتهت بدخول اسكندر الأكبر أرض مصر وهى الفترة المعروفة باسم العصر المتأخر.

الفصل السادس

العصـــر المتأخــر

(من عام ٧١٥ إلى ٣٣٢ ق.م)

العصر المتأخر

(من عام ٧١٥ إلى ٣٣٢ ق.م)

اتفق العلماء تسمية العصر الرابع من عصور التاريخ المصرى باسم «العصر المتأخر» وهو العصر الذى ينتهى بدخول اسكندر الأكبر أرض مصر عام ٣٣٢ ق.م . أما العصور الثلاثة السابقة فهى «الدولة القديمة» ، «فالدولة الوسطى» ثم «الدولة الحديثة» وآخر أسرات العصر المتأخر هى الأسرة الثلاثين حسب تقسيم «مانيتون» وأهم ما يتميز به العصر المتأخر هو المغالاة فى التمسك بالقديم، وذلك فى الأسلوب الفنى الذى يضفى على الإنتاج الفنى نوعا من الجمود ويجعله غريبا علينا ، وفى محاكاة الأسلوب الفنى للدولة القديمة وإعادة استخدام الألقاب التى كانت قد اختفت وعفا عليها الدهر بل استخدموا أيضا الأسماء التى تسمى بها الناس فى تلك الفترة واعتاد المؤرخون اطلاق اسم «عصر النهضة» (رنيسانس) على العصر المتأخر وذلك نظرا لتمسك المصرى فى الأسرة السادسة والعشرين بمظاهر الحضارة التى تميزت بها مصر فى عصر الدولة القديمة، ولا نأخذ الآن بهذه التسمية وذلك لأن عصر «الرنيسانس» الحقيقى الذى نبدأ به عصرنا الحديث كان يهدف إلى إحياء بعض مظاهر حضارة ذات قيمة عملية واضحة ، فى حين كانت أهداف العصر المتأخرة من التاريخ المصرى هى التمسك بالقديم فحسب مدفوعين فى ذلك نحو المحافظة على قواعده دون إحياء لما قد يعود بالنفع عليهم أو يدفع حضارتهم نحو التقدم والكمال وعبر «يونكر» فى عرضه الرائع للتاريخ المصرى عن هذه الظاهرة التاريخية قائلا : «لقد عزلت مصر حضارتها عن ركب الحضارة الذى كان يسير مسرعا فى الأمم المتاخمة وبذلك حكمت على نفسها بالتأخر والدمار».

ينقسم العصر المتأخر إلى فترات ثلاث :

١- فترة حكم الأثيوبيين (الأسرة الخامسة والعشرون)

٢- العصر الصائى (الأسرة السادسة والعشرون) .

٣- فترة حكم الفرس (الأسرات من السابعة والعشرين إلى الثلاثين) .

١- العصر الأثيوبى

(من ٧١٥ إلى ٦٦٣ ق.م)

بقيت بلاد النوبة موالية لمصر بل كانت المنطقة الوحيدة الخاضعة لها عبر الحدود حتى عصر «حريحور» كما سبق القول . ويبدو أنها استطاعت التحرر والفوز باستقلالها فى أثناء فترة حكم الأسرة الحادية والعشرين أى فى أوائل القرن العاشر قبل الميلاد. وتكونت على أثر ذلك دولة نوبية اتخذت من مدينة نباتا عاصمة لها، وهى مدينة تقع بالقرب من جبل بركال ومن الشلال الرابع، أى تقع فى المنطقة التى كان قد وصل إليها تحوتمس الأول وفرض عليها سلطانه . واعتاد المؤرخون إطلاق اسم «الأثيوبيين» على «النوبيين» وذلك لأنه الاسم الذى أطلقه الاغريق عليهم منذ العصر المتأخر» . ونحن لا ندرى السبب المباشر الذى أدى إلى تثبيت أقدام عقيدة أمون فى بلد بعيد كمدينة نباتا، ولعل هذا السبب هو هجرة بعض كهنة آمون من طيبة إلى نباتا وهى هجرة دفعت إليها إحدى الثورات العديدة التى وقعت فى العاصمة الدينية الكبرى وعلى كل حال نرجح أن آمون ذا رأس الكبش قد أصبح مهيمنا على الدولة الأثيوبية منذ أول القرن العاشر قبل الميلاد . ويغلب على الظن أن أمراء نباتا اعتمدوا على ذلك فى المطالبة بالاستيلاء على طيبة فيما بعد .

وعثر العالم الأمريكى «جورج رايزنر» على معابد عديدة وأهرامات ملكية فى منطقة جبل بركال . وكان الملوك الأثيوبيون قد حذوا حذو فراعنة الدولة القديمة وشيدوا لأنفسهم مقابر هرمية الشكل إلا أنها تختلف عنها فى ارتفاعها القليل وفى أن زاوية أضلاعها كانت أكثر انفراجا . كما كانت معابدها صغيرة ، ونقوشها يغلب عليها الأسلوب الأفريقى الخشن الخالى من الانسجام الفنى. وأهم المناطق ازدحاما بأهرامات ملوك النوبة هما منطقتا «الكورو» و «نورى» وكلاهما يقع على مقربة من نباتا . واعتمد «رايزنر» على بعض القرائن الأثرية وأثبت ظهور عنصر جديد ليبى الأصل يتميز ببشرته البيضاء، مكونا طبقة جديدة وكان منها «كاشتا» أول من حقق إقامة

دولة نباتا المستقلة حوالى عام ٧٥٠ ق.م واستطاع «ايزنر» بعد تنقيبه الذى استمر سنوات طويلة فى بلاد النوبة. أن يجمع أسماء الملوك الذين تتابعوا على عرش هذه الدولة لفترة طويلة تمتد ما يقرب من عشرة قرون، واستطاع أيضا أن يحدد سنى حكم بعضهم . ونحن لا ندرى الأسباب التى أدت إلى نقل العاصمة من نباتا إلى مرورى جنوبا حوالى عام ٣٠٠ ق.م وتقع العاصمة الجديدة على بعد ٢٠٠ كيلو متر شمالى الخرطوم الحالية. وتكونت هناك فى أقصى الجنوب دولة أثيوبية عاشت حتى عام ٣٥٥ ميلادية . ولقد تأثرت هذه الدولة بحضارة زنجية ظهرت معالمها واضحة فى كل الآثار التى وصلت إلينا من عصرها . وبقيت هذه الدولة إلى أن قضى عليها جيرانها الجنوبيون من الأحباش أى دولة «أكسوم» .

واعتمد «كاشتا» على الحقوق المزعومة للأثيوبيين نحو المركز الدينى الرئيسى فى طيبة لإلههم المشترك آمون فقام عام ٧٥٠ ق.م بضم إقليم طيبة وبقية أقاليم مصر العليا الواقعة إلى الجنوب منه حتى الشلال وجعلها جزءا من دولته . وهذه الأهمية التى عقدها الأثيوبيون على اقليم طيبة لم تخف وراءها هدفا دينيا فحسب ، بل كمنت فيها ولا شك أهداف سياسية واقتصادية وهيمنت فى ذلك الوقت أمير الكهنة على كنوز عبد آمون فى طيبة، وهى وظيفة كانت تسند إلى إحدى أميرات الأسرة المالكة وتلقب «الزوجة الالهية لامون» وتعتبر بمثابة الزوجة الآدمية للملك الالهة «آمون» وهذه الوظيفة أنشئت فى الأسرة الثامنة عشرة وكانت تسند باستمرار إلى سيدة، واستمر هذا التقليد إلى ما بعد حركة اخناتون ولو أنه أبطل خلال فترات قليلة . وأسندت هذه الوظيفة الكبرى إلى إحدى سيدات البلاط ذات النفوذ القوى وذلك إبان العصر الليبى، وحين استولى «كاشتا» على طيبة طلب من السيدة التى كانت تتولى هذه الوظيفة وهى الزوجة الالهية» شبن أوت الثانية» إحدى بنات الملك «أوسوركون الثالث» من الأسرة الثالثة والعشرين، أن تتبنى ابنته «امنراديس» وتعلنها خليفة لها . وتمسك كل ملوك الأسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين بهذا التقليد الذى جعل أملاك آمون الضخمة تابعة باستمرار للأسرة الحاكمة.

أخذت حركة التحرير التى قام بها «تفنخت» أمير «سايس» تنجح فى الدلتا ، وحين امتد نفوذه نحو الجنوب وأصبح يهدد إقليم طيبة محاولا فى ذلك ارجاع مصر بقطريها إلى الوحدة التقليدية، زحف «بعنخى» بن «كاشتا» وخليفته على رأس جيش كامل التسليح ودخل مصر ، واستطاع فى هذه الغزوة أن يهيمن على قطريها الشمالى والجنوبى. وسجل على لوحة حجرية كبيرة اقامها فى معبد آمون بنباتا ، أخبار هذه الغزوة وتفصيلاتها وكان أمينا واضحا فى ذكر

هذه التفصيلات بحيث أتى النص كاملا، ونعتبره من أهم وأمتع النصوص التاريخية التى وصلت إلينا من مصر القديمة . تعرف هذه اللوحة باسم «لوحة بعنخى» وهى محفوظة الآن بالمتحف المصرى. ونستطيع من هذا النص أن نحكم على شخصية «تفنخت» أمير سايس والعدو اللدود «لبعنخى». فهو يبدو لنا رجلا شجاعا واضح الشخصية عنيدا يقدس قوميته ، يعرف تماما كيف يتقى الأخطار ويتفادى هجمات «بعنخى» ويخرج منها سالما . حقيقة انتهت حملة «بعنخى» بانتصار الأثيوبيين على مصر، إلا أنه لم يكن انتصارا كاملا شاملا، إذ نعرف أن «تفنخت» استطاع أن يحكم من مدينته «سايس» وأن حكمه امتد حتى عام ٧٢٠ ق.م . ولعل هذا هو السبب الذى جعل المصريين لا يعترفون «ببعنخى» ملكا شرعيا على مصر ، ولو أن مدة حكمه فى نباتا تبدأ عام ٧٤٦ وتنتهى عام ٧١٠ ق.م كما أن لوحته تعتبره أحد فراعنة مصر الذى استطاع فى العام الحادى والعشرين من حكمه أن يغزو القطر الشمالى (أى حوالى عام ٧٢٥ق.م) ويجدر بنا هنا أن ننوه بناحية أخرى من النواحى التى تميزت بها لوحة «بعنخى» وهى أنها أعطتنا صورة واضحة عن الحالة الادخلية فى مصر إذ ذاك . وهناك حملة أخرى وجهها الأثيوبيون ضد مصر ، خرج على رأسها الملك «شباكا» (ونحن لا ندرى هل كان أخا ليعنخى أو ابنا له) واستطاع عام ٧١٥ ق.م أن يقضى على «بوخوريس» وبذلك انتهت الأسرة الرابعة والعشرون . وهكذا استطاع الأثيوبيون أن يجلسوا على عرش الفراعنة وسجل مانيتون لهم الأسرة الخامسة والعشرين، وتمتعت طيبة إبان حكمهم القصير بمركز ممتاز كعاصمة للبلاد، وذلك للمرة الأخيرة فى تاريخها ، كما فازت عبادة أمون بتبجيل وتكريم عظيمين ويدلنا على ذلك الأبنية الكثيرة التى شيدها ملوك هذه الأسرة فى الكرنك والتى بقيت لنا شاهدة على ذلك . وتتابع على العرش الملوك : «شباكا؛ و «شباتاكا» و «طهارقا» و «تانوت أمون» ولم يفز من هؤلاء بحكم طويل سوى «طِهارقا» الذى نؤكد أنه حكم فترة ٢٦ سنة (٦٩٠ إلى ٦٦٤ ق.م) .

كان الآشوريون، الذين بلغوا ذروة قوتهم فى هذا الوقت يمثلون الخطر الداهم الذى يهدد الأثيوبيين فى مصر ، ونستطيع أن نتبين موقفهم من الدور الذى لعبوه فى تحالفهم مع مملكة يهوذا ضد الآشوريين ثم ضد البابليين ، وهو الدور الذى ورد ذكره فى نصوص العهد القديم ، والذى نفهم منه أن مصر كانت تتزعم كل الشعوب التى تحالفت ضد الآشوريين ، ولكن مصر كانت ضعيفة فى زعامتها ولم تستطع مطلقا أن تقف أمام قوة الآشوريين الجارفة. حقيقة استطاع المصريون أن يوقعوا الهزيمة بالجيش الآشورى المنتصر الذى وصل إلى الحدود المصرية فى عصر

الملك «سناحريب» واضطر هذا الجيش إلى الانسحاب بسرعة بعد أن تفشى الوباء بين جنوده ، إلا أن الملك «أشور أخى الدين» أعاد الكرة بعد فترة قصيرة واستطاع أن يغزو مصر عام ٦٧٠ ق.م ويعيمن عليها ويجعلها أحد الأقاليم الآشورية لمدة سبع سنوات . ونجت فى ذلك الوقت مدينة طيبة بأعجوبة من العدوان . ووصلت إلينا اللوحة التى سجل عليها «آشور أخى الدين» انتصاراته، وهى لوحة «زنجرلى» فى شمال سوريا، ونرى عليها ملك صيدا ، وهى احدى موانى الساحل الفنيقى كما نرى عليها ملك مصر (طهارقا) وقد ركعا كاسيرين أمام الملك الآشورى ، وظهر الأول فى صورته التى تكبر صورة ملك مصر أكثر أهمية وأشد بأسا من الثانى.

وكان «تانوت آمون» أحد أبناء شابابكا» (وورد اسمه فى النصوص الآشورية منطوقا «تالتامانى») هو آخر ملوك الأثيوبيين الذين هيمنوا على مصر ، ووصلت إلينا لوحة منه أقامها فى نباتا، سجل عليها أن الهاتف أتاه فى المنام وحثه على إعادة غزو مصر والفوز بها، وتمكن من الوصول فى زحفه إلى منف إلا أن الدلتا بقيت بعيدة المنال منه نظرا لتفوق قوة الآشوريين فيها . وعندما ثار الآشوريين لأنفسهم منه فى عصر الملك «آشور بنى بعل» وصلوا فى زحفهم إلى طيبة وفتكوا بأهلها وهدموا أبنيتها فى همجية ورد ذكرها فى العهد القديم على لسان «ناحوم» النبى. وتمكن «تانوت آمون» من السيطرة على بعض مناطق من مصر العليا بعد القسوة والهمجية التى استخدمها الآشوريون فى حملتهم السالفة الذكر ، إلا أن سيطرته لم تدم إلا سنوات لم تزد على الثمانية كما ورد فى بعض النصوص التى عثرنا عليها فى طيببة، ولو أن هذه السنوات الأخيرة أى إلى عام ٦٥٤ق.م لم تحسب للأثيوبيين فى مدة حكمهم ، إذ اعتبر عام ٦٦٣ ق.م بدء حكم «بسامتيك الأول» ، أول ملوك الأسرة السادسة والعشرين ومعنى هذا أنه اعتبر ملكا مباشرة بعد انتهاء حكم «طهارفا» من الأسرة الخامسة والعشرين . وانسحب «تانوت آمون» فى آخر الأمر واستقر فى عاصمته الجنوبية «نباتا» ونحن لا ندرى كم من السنين استمر حكمه هناك إلا أننا نعرف أنه دفن فى مقبرته التى شيدها على شكل الهرم. والتاريخ يسجل لملوك الأسرة السادسة والعشرين فضل تخليص مصر من الحكم الأجنبى الذى فرضه الآشوريين عليها .

ونتم حديثنا عن الفترة القصيرة التى حكمها ملوك الأسرة الخامسة والعشرين الأثيوبية وهى الفترة التى لم تزد بأى حال على نصف قرن ، نتم هذا الحديث بكلمة وجيزة نبرز فيها الدور الكبير الذى لعبته طيبة للمرة الأخيرة فى التاريخ المصرى كعاصمة تحوى تلك الكنوز الهائلة لمعبد آمون، ليس من شك فى أن ملوك الأثيوبيين كانوا قد نجحوا فى أن يجعلوا السكينة والسلام يرفرفان على

العاصمة طيبة، ويسجل التاريخ عليهم أنهم هربوا أمام زحف الآشوريين وأنهم ايضا لم يحتملوا وجود وطنيين فى الشمال يدافعون عن أوطانهم فخرجوا إليهم يعاقبونهم على قوميتهم هذه بحد السلاح، ولكن التاريخ يسجل أيضا أنهم نجحوا فى الهيمنة على زمام الأمور عن طريق تلك الوظيفة «الزوجة» الالهية لأمون» وما يتبعها من بلاط قوامه شخصيات عديدة، وعرفوا كيف يضمون إلى صفوفهم نخبة من كبار الموظفين الذين عاشوا حياتهم منطوين تحت لوائهم ، ومن بين هؤلاء نعرف «منتو أم حيت» الذى قام بجهد واضح فى تشييد الكثير من الأبنية الكبرى فى طيبة وتعميرها وهو يذكر ذلك متفاخرا فى نصه الذى سجله لنا على جدران مقبرته . ولقد وصلت إلينا مجموعة كبيرة من تماثيله ويتميز البعض منها باتجاهه الواضح نحو «الواقعية» فى تمثيل ملامح الوجه، مما يؤكد أن أسلوب نحت التماثيل فى عصر الأسرة الخامسة والعشرين قد تميز بطابع فنى خاص وحذا «منتو أم حيت» وكثير من رجالات مصر فى عصر الأسرة الخامسة والعشرين حذو مصريى الدولة الحديثة وأقاموا لأنفسهم مقابر واسعة الأرجاء فى جبانة طيبة على الشاطئ الغربى للنيل، وكان الجزء الذى يعلو سطح الأرض من هذه المقابر يشيد من اللبن ويحاط بأسوار عالية من اللبن أيضا . ولا تزال أطلالها باقية، واستمر هذا الطراز المعمارى طوال عصر الأسرة السادسة والعشرين .

٢- العصر الصائى

(الأسرة السادسة والعشرون)

(٦٦٣ إلى ٥٢٥ قبل الميلاد)

اعتمدت الأسرة السادسة والعشرون فى حكمها على ولاء الدلتا لها وهذا هو الفارق بينها وبين الأسرة الخامسة والعشرين التى كانت تعتمد اعتمادا واضحا على إقليم طيبة والأقاليم الواقعة إلى الجنوب منها حتى بلاد النوبة الشمالية.

اشترك «نخاو» أمير «سايس» فى معاونة الملك الأثيوبى «طهارقا» ضد الحكم الآشورى ، وما لبث أن قبض عليه وأرسل إلى «نينوى» مكبلا بالأغلال ، حيث بقى فترة من الزمن استطاع فيها بذكائه وعلمه أن يفوز بتقدير وثقة الملك «آشور بنى بعل» الذى أعاده إلى مصر وأرجع إليه حقوقه كأمير «لسايس» وكان قد فاز بتقدير الملك «آشور أخى الدين» وأعطى الحق بتقليب نفسه بألقاب الفراعنة . وقع «نيخاو» قتيلا فى إحدى المعارك بين الآشوريين و « «تانوت آمون» » ، قتله الملك الأثيوبى، فأسرع ابنه «بسامتيك» بالهرب ملتجئا إلى الآشوريين وكان «بسامتيك» يشتهر بعلمه وذكائه وقوة شكيمته وحين استقرت الأمور بعد القضاء على حكم الأثيوبيين لمصر، أرجع «الآشوريون» «بسامتيك» إلى وطنه وكافأه «آشور بنى بعل» على ولائه وتعاونه باضافة إقليم منف العظيم الأهمية إلى المنطقة التى يسيطر عليها فى حين بقيت الدلتا مقسمة إلى إمارات صغيرة عديدة. واستطاع «بسامتيك» بسياسته اللبقة أن يتخلص من الآشوريين ، الذى كان كل مصرى يشعر فى قرارة نفسه بكرههم، دون أن يسفك قطرة دم واحدة ، ومن حسن التوفيق أن «آشور بنى بعل» كان منهمكا فى حروب دامية مع شعوب أخرى بحيث لم يستطع أن يوجه عنايته نحو مصر ، وهكذا تحققت وحدة مصر على أيد مصرية صميمة وتمكن «بسامتيك الأول» من أن يبدأ أسرة جديدة ، هى الأسرة السادسة والعشرون ويطلق عليها أيضا «الأسرة الصائية» نسبة إلى «صا» (سايس) المدينة التى نشأ فيها «بسامتيك» ووضع فيها أسس الوحدة . ويقوم بعض الجدل العلمى حول اسم «بسامتيك» وتفسير معناه من الناحية اللغوية ولم ينته هذا الجدل بعد رأى حاسم حول هذه الأسرة الجديدة وهل كانت مصرية صميمة أم ترجع فى أصلها إلى العنصر

الليبى ؟ وجعل «بسامتيك» فترة حكمه تبدأ مباشرة بعد انتهاء حكم «طهارقة» ونحن على يقين أنها بدأت عام ٦٦٣ ق.م وانتهت عام ٦٠٩ ق.م .

ونعتمد اعتمادا كبيرا فى سردنا لأحداث العصر الصائى ، على ما كتبه المؤرخ الاغريقى هيرودوت فقد أفرد جزءا فى وصف هذه الفترة، ونعتمد كذلك على الفقرات الكثيرة من العهد القديم التى تذكر بعض أحداث هذا العصر . أما النصوص المصرية المعاصرة فهى قليلة بين أيدينا.

زار هيرودوت مصر وتجول فيها حوالى عام ٤٤٥ ق.م ومعنى هذا أن المدة التى تفصل بينه وبين الأحداث التى وقعت فى عصر الأسرة السادسة والعشرين هى من ٨٠ إلى ٢٢٠ سنة أو بمعنى آخر كان موقف هيرودوت هو بعينه موقفنا للأحداث التى وقعت حوالى عام ١٧٠٠ ميلادية ولا نستطيع أن نتعرف على الأسباب التى دعت هيرودوت إلى عدم ذكر بعض الحقائق التاريخية المهمة مع أنه كان يؤرخ لعصر لم يسبقه إلا بسنوات قليلة، فلم يذكر هيرودوت مثلا الهزيمة التى أوقعها «بختنصر» بالملك «نيخاو» فى معركة «قرقميش» ولعل السبب فى ذلك هو أن هيرودوت كان يكتب للقارئ الإغريقى الذى لم يكن يهمه مطلقا ما كان يجرى فى الشرق نفسه، من أجل هذا أيضا نجد أن الطريقة التى تحدث بها هيرودوت عن ملوك هذا العصر تكاد تجعل منهم شخصيات إغريقية، ولنضرب لذلك مثلا الملك «أمازيس» الذى صوره لنا هيرودوت رجلا يدمن شرب النبيذ وجعل منه شخصية تختلف تماما عما تصوره لنا المصادر المصرية كفرعون لمصر. وكذلك يقص علينا هيرودوت الطريقة التى وصل بها بسامتيك إلى العرش وهى قصة تكاد تكون خيالية.

وتمكن «بسامتيك» فى أثناء مدة نفيه عند الآشوريين من الاتفاق مع بعض زعماء الاغريق والكاريين ليجمعوا له فرقا من المرتزقة حتى يساعدوه على تنفيذ أهدافه وهى إعادة الوحدة إلى القطر المصرى واستطاع بهذا أن يفرض سيادته على الكثيرين من أمراء الدلتا وأسرع الآخرون ومن بينهم ذلك الرجل المحنك «منتو أم حيت» من طيبة فى الانضواء تحت لوائه . ولم يتمهل بسامتيك فى أن يجعل أملاك أمون فى طيبة تئول إلى أسرته ، بل اتبع لتنفيذ هذه السياسة نفس الطريقة القديمة فقد طلب إلى «الزوجة الإلهية» إذ ذاك واسمها «شبن - أويت الثالثة» وهى أخت الملك طهارقا ، أن تتبنى ابنته «نيتوكريس» . وبذلك لم يبق للأثيوبيين إلا الاعتراف

بأن حدود دولتهم تنتهى عند شمال النوبة وأصبحت هذه الحدود هى جزيرة أليفانتين الحالية. وهى الحدود التى كانت تنتهى عندها الدولة المصرية منذ ٢٠٠٠ عام قبل ذلك أي فى عصر الدولة القديمة. ودانت مصر كلها لعرش واحد مرة أخرى ووضع بسامتيك قيودا جديدة للإدارة المصرية تمكن بواسطتها من الهيمنة على شئونها . أما العاصمة القديمة طيبة التى لعبت دورها الهام فى تاريخ البلاد فقد أهمل أمرها ويرجع ذلك إلى ما أصابها من أعمال التدمير والتخريب على أيدى الآشوريين ، ولم يحدث أن قام ملوك الأسرة السادسة والعشرين بأى عمل انشائى جديد فيها ولم يحاولوا ترميم معبد الكرنك أو توسيعه .

وانتقل فى عصر الأسرة السادسة والعشرين مركز الثقل إلى الدلتا نفسها فتركزت السلطة فى بعض مدنها مثل «سايس» و «بوطو» و «ارتيبس» و «بوباستيس» فى شرق الدلتا ، أما منف فلم تلعب إلا دورا ثانويا . هذه المدن السالفة الذكر كانت هى أكبر المدن وأكثرها ازدحاما بالسكان وهى المدن التى أعجب بها هيرودوت أشد الإعجاب وأفرد صفحات كثيرة من كتابه لوصف حفلاتها الرائعة، ويذكر هيرودوت عن «سايس» أنها تحوى أبنية ملكية رائعة الجمال ونخصها بالذكر لأن أطلال هذه المدينة فى وقتنا الحالى لا تومئ بذلك. ويذكر هيرودوت أيضا أن الجبانة الملكية لفراعنة الأسرة السادسة والعشرين كانت بالقرب من مدينة «سايس» . وليس من شك فى أن آثار الدلتا قد ضاعت واختفت ومن بينها آثار هذه الأسرة التى لم نوفق إلى العثور على معبد واحد لها أو على تمثال ملكى واحد عليه نقوش . إلا أن الآثار القليلة التى ظهرت لنا فى المناطق الأخرى وبخاصة التماثيل ورءوس التماثيل الملكية فهى تعطينا فكرة عابرة عما كان عليه الفن فى عصر هذه الأسرة وعلى ذلك نستطيع القول بأن فن نحت التماثيل كان يتجه نحو اتقان صقل السطح الخارجى والعناية الفائقة بتقليد ملامح صاحب التمثال، كما أن الأسلوب الفنى لصناعة التماثيل فى هذه الفترة كان إحياء للأسلوب الذى انتشر فى مصر فى عصر الدولة القديمة ولم يبق لنا من مقابر عظماء هذه الأسرة إلا ما شيد لهم فى جبانة طيبة وفى الوادى الذى يقع أمام منطقة الدير البحرى ، وهى نفس المنطقة التى استخدمها عظماء الدولة فى عصر الأسرة الخامسة والعشرين. ونخص بالذكر من بين هذه المقابر مقبرة «بادى أمنحوتب» التى تشبه بحجراتها الاحدى والعشرين قصرا منيفا ، وتحلت جدرانها الداخلية بنقوش مختلفة حفرت بعناية فائقة ، ولم يوجه أصحاب مقابر هذا العصر عناية ما للمناظر التى تمثل نشاطهم فى حياة الدنيا .

بقى علينا أن نذكر فى إيجاز ديانة العصر المتأخر وما جد عليها من مظاهر. ليس من شك

فى أن هذا العصر أخذ ببعض التجديدات الغريبة على الديانة المصرية وهى مظاهر استرعت أنظار هيرودوت وكل الأجانب الذين زاروا مصر فى ذلك الوقت وأثرت فيهم ولا يخلو الأمر من أنها كانت تضطر البعض أن يخفى ابتسامة ترتسم على شفاههم.

ومن أهم ما يتميز به أهل العصر المتأخر أنهم غالوا كثيرا فى تقديسهم للحيوان. وأن تقديس المصريين للحيوان فى العصور القديمة لم يدفعهم إلا إلى عبادة نموذج واحد من الحيوان المقدس ومثل ذلك أنهم لم يحتفظوا فى منف إلا بثور واحد للاله أبيس . ومنذ مطلع القرن العاشر قبل الميلاد أصبح من عاداتهم أن يقدسوا مثلا جميع القطط الموجودة فى إقليم ما. ويقدسون فى إقليم آخر كل الكلاب ، وليس من شك فى أن قيام شجار وخلاف فى الرأى بين هذين الفريقين كان يعزى إلى اعتداء أحد الفريقين على أى حيوان من الحيوانات المقدسة عند الفريق الآخر، وكان يسبب هذا لدى الاغريق المستقرين فى مصر والذين لم يأخذوا بمذهب عبادة الحيوان، نوعا من التسلية والتفكه. وكان من أهم الحيوانات المقدسة التى لعبت دورا هاما فى العصر المتأخر «الثور أبيس» الذى عبد فى منف كصورة من صور الإله بتاح . وترجع عبادة المصريين لهذا الثور إلى العصور الأولى من تاريخهم . وعثر «ماريت» عام ١٨٥١ على «السرابيوم» المقر الرسمى لدفن الثور «أيس» فى جبانة سقارة ، والذى بدئ فى استخدامه منذ عصر رمسيس الثانى وأصبحت جثث كل الثيران . المقدسة تودع فى هذا المقر بعد تحنيطها ، وكانت تدفن هناك أيضا جثث الأبقار التى ولدت هذه الثيران وإستمر استخدامه حتى أواخر العصر المتأخر ومنذ عصر الملك «بسامتيك» الأول قام المصريون بتوسيع هذه الجبانة المنقورة فى باطن الأرض حتى وصل طولها إلى ٣٥٠ متر ويرتفع سقفها إلى خمسة أمتار ونصف متر . وكانت جثة كل ثور توضع فى تابوت حجرى ضخم ويعلو سطح الأرض معبد كبير اختفت معالمه تماما الآن. وأقيم مقر آخر مشابه لهذا فى أرمنت لدفن جثث الثور المقدس هناك ، وتعدد جبانات الحيوانات المقدسة فنجد منها ما حوى قططا أو كلابا أو قردة أو الطائر أيبس أو غير ذلك .

مضت أيام بسامتيك الأول فى سلام وخلفه ابنه «نيخاو» (وينطقه الاغريق «نيقوس» من عام ٦٠٩ إلى ٥٩٣ ق.م) وبدأ حكمه بحملة كبيرة وجهها نحو سورية وهدفه من ذلك هو أن يحقق الحلم الذ ى لم يختف من زذهان المصريين منذ عصر الدولة الحديثة وهو إقامة إمبراطورية واسعة الأرجاء . ولعل من الأسباب التى هيأت له هذه الفرصة الموقف الدولى ذاته فقد تداعت أركان الدولة الآشورية بعد عام ٦١٢ ق.م وبعد أن نجح الحلف بين الميديين والبابليين فى احتلال العاصمة

الآشورية نينوى. وتوغل «نيخاو» نحو الشمال ولم تصادفه فى أول الأمر أية عقبة وانتصر عام ٦٠٨ على الملك اليهودى «يوشع» عند مجدو وهو نفس المكان الذى حدثت فيه تلك الموقعة الشهيرة فى عصر تحوتمس الثالث. وسقط «يوشيا» قتيلا فى هذه المعركة واستطاع «نيخاو» السيطرة على سورية بأكملها . إلا أن الأحداث بدأت تتغير وأخذ الخطر يتجمع ضد «نيخاو» وذلك حين وقعت الأقاليم الغربية التى كانت تابعة لدولة آشور «أى سورية وفلسطين» من نصيب بابل عند تقسيم الغنائم . وتقابل «نيخاو» عام ٦٠٥ ق.م عند «قرقميش» الواقعة على نهر الفرات فى شمال سورية بعد أن دامت فترة أربع سنوات . وبعد أن تبخرت آمال «نيخاو» فى سورية حاول أن يوجه جهده نحو مشروعات أخرى، فبدأ على الفور فى حفر قناة تصل بين النيل ووادى الطميلات عند البحر الأحمر وهى نفس القناة التى أتمها «داريوس» الملك الفارسى بعد قرن من الزمان . وهذا المشروع لا يقل أهمية عن المشروع المماثل فى وقتنا الحالى الذى يصل بين البحر الأحمر والبحر المتوسط أى مشروع قناة السويس .

وخلفه الملك بسامتيك الثانى (ونطق اسمه الاغريق بساميس) الذى حكم فترة قصيرة من عام ٥٩٣ إلى عام ٥٨٨ ق.م . وقام بمحاولة فاشلة لبسط النفوذ المصرى على بلاد النوبة الشمالية وسجل أحداث هذه المحاولة بعض الجند المرتزقة من الاغريق فى نص كتبوه على أحد تماثيل رمسيس الثانى المقامة أمام مدخل معبد أبو سنبل المنقور فى الصخر. واستن هذا الملك سنة جديدة كان لها أكبر الأثر فى مستقبل البلاد ، فقد سمح لكثير من الإغريق أن يستقروا فى مصر وأقطعهم مناطق واسعة استوطنوها . وإبان تلك الحركة الواسعة التى قام بها اليونيون فى إقامة مستعمرات مختلفة أى حوالى ٥٩٠ ق.م قام أهل ملطيا (إحدى المدن الاغريقية غربى آسيا الصغرى) بتشييد مدينة نقراطيس فى غرب الدلتا وعلى مقربة من العاصمة «سايس» . وأخذت هذه المدينة منذ ظهورها تطبق النظم التى كانت تسود المدن الاغريقية ، وعبدت فى معابدها «افروديت» و «أبولو» وغيرهما من الآلهة الاغريقية. وازدهرت فيها صناعات مختلفة مثل صناعة الفخار اليونانى وصناعة الجعارين المصرية إلا أنها اتخذت طراز معينا فى الصناعة لم يتعد نقراطيس. وحمل التجار الاغريق هذه الجعارين - وبعضا من التماثيل الصغيرة التى تجمع فى فنها بين المصرى والإغريق إلى أنحاء البحر المتوسط وعلى الأخص إلى ايطاليا وجزيرة سردينيا. ومنذ أن نمت هذه المدينة تقاطرت أفواج الاغريق على مصر وانتشرت فيها وكانوا دوما يتجمعون فى أماكن لا يسكنها غيرهم . واعتمد بسامتيك على فرق كاملة من الجند المرتزقة

الإغريق وبذلك نشأت فى مصر طبقة مهنية من المحاربين الاغريق تشابه تماما تلك الطبقة التى تحدثنا عنها فيما سبق والتى تكونت من المحاربين الليبيين . ويبدو أن ملوك الأسرة السادسة والعشرين قد جمعوا من بين الجند المرتزقة فرقا كثيرة تنتمي إلى شعوب متعددة ولم يكن فى هذا الجيش الجرار فرقة واحدة من المصريين .

خلف بسامتيك الثانى على عرش مصر الملك « أبريس » وقد ورد ذكره فى العهد القديم باسم « حفرع » الذى حكم فى الفترة بين ٥٨٨ - ٥٦٩ ق.م وتحالف مع الملك اليهودى ضد « بختنصر » البابلى ولعله كان يهدف من وراء هذا الحلف أن يحقق تلك المشروعات التى بدأها « نيخاو » من قبله كما أنه حاول السيطرة على بعض المدن الفينيقية مثل صيدا وصور ووقعت معركة بحرية بينه وبين أهل صور وحدث إبان هذه المعركة أن تقدم « بختنصر » نحو الجنوب واستولى على « أورشليم » عام ٥٨٦ ق.م . ولم يستطع المصريون فى هذه الحالة أن يقدموا أية معونة عسكرية لتخليص هذه المدينة من أيدى البابليين . ولقد بدأت فى هذه الفترة الحركة الواسعة التى أخذ البابليون إبانها يجمعون أعدادا ضخمة من الأسرى اليهود. ورجع « أبريس » بعد ذلك إلى مصر بدون أن يحقق لنفسه نصرا وبدون أن يتبعه البابليون بقصد جره إلى الحرب . وقام « أبريس » بعد ذلك بحملة ضد ليبيا منى فيها بهزيمة منكرة كان من نتائجها أن قامت ثورة جامحة بين رجال الجيش وانتهت بتنازله عن العرش وخلفه القائد « أمازيس » الذى نادى به الجيش ملكا على مصر . ولم تصل إلينا من آثاره إلا بعض الجدران التى كان يتكون منها قصره فى منف القديمة .

ويمكننا أن نسمى « أمازيس » باسم « أحمس الثانى » حتى تفرق بينه وبين صاحب هذا الإسم الذى أسس الأسرة الثامنة عشرة، وتمتع بحكم طويل رفرفت فيه أجنحة السلام على مصر وتزوج من إحدى بنات « بسامتيك الثانى » حتى تتوافر لديه الشروط التى تجعله ملكا شرعيا على البلاد . ودام حكمه من عام ٥٦٩ إلى ٥٢٥ ق.م وتحدث عنه هيرودوت مميزا اياه بصداقته الشديدة للإغريق وسرد فى شئ من التعصب العلاقات الحسنة التى كانت تجمع بينه وبين « يوليكراتس » ملك ساموس كما تحدث هيرودوت على الأبنية الكبيرة التى شيدها هذا الملك فى عاصمته سايس. وخرج « بختنصر » على رأس حملة كبيرة عازمًا على أن يغزو مصر إلا أن الظروف منعته من مهاجمتها وكان ملوك فارس يهددون باستمرار كل مناطق آسيا الغربية وبخاصة بعد أن استولى الملك الفارسى « كيروش » على دولة الشيديين فى آسيا الصغرى وغزا غزوته المعروفة عام ٥٣٨ ق.م . نحو بابل والتى انتهت باستيلائه عليها ونرى أمازيس وقد فقد الأمل فى القيام بأية حركة

لإعادة الاستيلاء على فلسطين أو سورية. ولهذا الملك فضل كبير، وكان له أكبر الأثر فى مساعدة البطالمة فيما بعد ، وذلك أنه وضع النواة الأولى للأسطول المصرى فى البحر المتوسط. واستطاع به أن يجعل من جزيرة قبرص إقليما يخضع للسيادة المصرية.

خلف بسامتيك الثالث (وينطق الاغريق «بسامينيتوس») أباه «أمازيس» و كانت مدة حكمه قصيرة لا تتعدى ستة أشهر. ويرجع ذلك إلى الحملة القوية التى جهزها الملك الفارسى «قمبيز» بن «كيروش» وخليفته ضد «أمازيس» ووصل بجيش جرار إلى «الفرما» على الحدود المصرية والتقى عام ٥٢٥ ق.م . بالجيش المصرى تحت قيادة «بسامتيك الثالث» وأوقع به هزيمة منكرة ثم تابع الجيش سيره إلى منف ودخلها منتصرا . أما بسامتيك فقد وقع فى الأسر وعومل فى أول الأمر معاملة حسنة إلا أنه قتل بعد أن ظهر مشتركا فى مؤامرة ضد حكم الفرس. وتعتبر موقعة «الفرما» بمثابة الخاتمة لذلك العصر الطويل من التاريخ المصرى الذى يتميز باستقلال المصريين استقلالا تاما وننهى بهذا حديثنا عن تاريخ مصر الفرعونية.

٣- العصر الفارسى

(الأسرات من السابعة والعشرين إلى الثلاثين)

(٥٢٥ إلى ٣٣٢ ق.م)

«اسكندر الأكبر وتأسيس مدينة الاسكندرية»

اعتبر «مانيتون» الأسرة السابعة والعشرين مكونة من ملوك الفرس الذين اتصلوا بمصر . فبعد أن استقر الحكم الفارسى فى البلاد قام «قمبيز» ببعض الأعمال العدائية التى جعلته مكروها من الشعب . لقد سفه الديانة المصرية بل اعتدى على «أبيس» الثور المقدس وقتله بنفسه ، وتحدث هيرودوت عن هذه الأعمال ووصفها بأنها كانت من عمل الشيطان . وقطع الجزء الأكبر من إيرادات المعابد عنها ، ولم يستثن من هذا الأمر سوى ثلاثة معابد سمح لها بأن تبقى على إيراداتها المعتادة دون تخفيض . ونحن نعرف أن «قمبيز» أمر فى أثناء إقامته بالعاصمة «سايس» بعمل تحقيق شامل عن الأسباب التى جعلت مدرسة الطب الملحقة بمعبد «نايت» فيها تواجه عقبات جمة كادت تمنعها عن أداء رسالتها ، وفى آخر الأمر سمح لهذا المعبد أن يحصل على ايراداته القديمة دون أن يشملها التخفيض . وهذا الحادث سجل مفصلا على تمثال رجل اسمه «أودجاحور» كان قد اصطحبه الملك «داريوس» الفارسى معه إلى بلاد «عيلام» ولم يلبث أن أرسله مرة أخرى إلى «سايس» ليعيد تنظيم مدرسة الطب السالفة الذكر والملحقة بمعبد «نايت» والتمثال الذى نقش على جوانبه هذا النص الطويل محفوظ الآن بمتحف الفاتيكان .

كان «قمبيز» قد قرر مهاجمة دولة «نباتا» محاولا ضمها إلى إمبراطوريته ولكن الفشل كان من نصيب هذه الحملة ومنى جيشه بخسائر فادحة .

لم يترك قمبيز مصر راجعا إلى بلاده إلا بعد أن جعل منها ولاية فارسية ، ويبدو أن الملوك الذين خلفوه لم يعنوا كثيرا بأمرها إذ أن الملك الفارسى الوحيد الذى زار مصر بعد قمبيز كان «داريوس الأول» ، وقد وصل إليها فى السنوات الأولى من حكمه الذى بدأ عام ٥٢١ وانتهى عام ٤٨٥ ق.م . وسارع هذا الرجل الحكيم بعد وصوله إلى مصر فى تخفيف القيود الصارمة التى

كان قد فرضها قمبيز على البلاد وبدأت فترة رخاء للمصريين وأتم «داريوس» القناة التى بدأ الحفر فيها «نيخاو» والتى كانت تصل بين النيل والبحر الأحمر وهكذا اتصلت مصر بحرا بالخليج الفارسى ، إلا أن هذه القناة لم تستخدم طويلا . وشيد «داريوس» أيضا بعضا من المعابد المصرية وقام بترميم البعض الآخر، ومن أهم المعابد التى شيدها معبد أقامه فى واحة «الخارجة» للاله أمون ونذكر بهذه المناسبة المجموعة من الأوراق البردية المكتوبة باللغة الآرامية والتى عثر عليها فى جزيرة اليفانتين . وهذه البرديات ترجع فى عصرها إلى هذه الفترة وتتميز بأهميتها الكبرى من الناحية اللغوية والدينية، إذ أنها تتحدث عن بعض العلاقات التى قامت بين بعض الجند المرابطين هناك وبين يهود استقروا فى الجزيرة، وذلك لإقامة معبد يهودى وقد دمر هذا المعبد عام ٤١٠ ق.م . فى أثناء الثورة التى قام بها المصريون ضد الفرس.

لم تصل إلى أيدينا إلا القليل من الآثار المؤرخة من عصر الفرس والسبب فى ذلك يرجع ولا شك إلى أن هؤلاء الغزاة بقوا منطوين على أنفسهم دون أن يختلطوا بالشعب تمام الاختلاط. وعلى كل حال فقد وردت أسماء «داريوس» و «اكسركسيس» وبعض من الملوك الآخرين مكتوبة باللغة الهيروغليفية وكذلك بالخط «الإسفينى» (المسمارى) . وعثر فى سقارة على لوحة حجرية غير منقوشة أقامها أحد عظماء العصر الفارسى، وهى محفوظة بمتحف برلين، وهذه اللوحة تتميز بأنها بعيدة فى أسلوبها عن الفن المصرى ونعتبرها إحدى القطع الأثرية المتأثرة بالفن البابلى الفارسى.

وقام المصريون أكثر من مرة منذ عصر الملك «اكسركسيس» بثورات ضد الحكم الفارسى ؛ ولعل أشد هذه الثورات وأقساها على الفرس ثورة أحد الأمراء الليبيين «ايناروس» المستقر فى غرب الدلتا ، حوالى عام ٤٦٠ ق.م . استطاع هذا الرجل أن يدخل نفسه فى خضم السياسة العليا فاشترك فى الحرب التى كانت قد بدأت بين الاغريق والفرس، ورحبت أثينا بمعاونة الثوار المصريين وقدمت لهم أسطولا بحريا إلا أن هذه المعاونة انتهت بخسارة فادحة بالنسبة للأثينيين.

وفى آخر الأمر بدأت الأحوال تسوء بالنسبة للفرس فى مصر . ومنذ القرن الرابع قبل الميلاد أخذت بعض الأسرات الحاكمة تظهر معلنة ثورتها ضد المستعمر وهذه الأسرات هى التى وردت عند مانيتون كالأسرات من الثامنة والعشرين إلى الثلاثين . وتتكون الأسرة الثامنة والعشرون من ملك واحد هو « أمر تايوس» من مدينة «سايس» وهذا الإسم الذى يبدو إغريقيا ليس إلا الاسم

المصرى الذى يعنى «آمون هو الذى أعطاه» . ولم نسمع عن هذا الملك إلا من كتاب «مانيتون»، ولم تذكره النصوص المعاصرة اللهم إلا وثيقة ذكرت العام الخامس من حكمه ، كما أن هناك من تسمى باسمه ولعله من أجداده عاش فى عصر «أيناروس» السالف الذكر وكان قد اشترك معه فى الثورة . وتعتبر مدة حكمه هى الفترة فيما بين عام ٤٠٤ وعام ٣٩٩ ق.م.

أما الأسرة التاسعة والعشرون فقد نشأت بحسب «مانيتون» فى مدينة «منديس» فى شرق الدلتا واستمرت فترة حكمها فيما بين سنة ٣٩٨ ق.م وسنة ٣٧٩ ق.م وأسماء ملوكها «نفريتس الأول» ثم «أخوريس» (ويسمى أيضا هيكوريش) ثم «بساموتيس» و «نفريتس الثانى» . ويبدو أن الوحيد بينهم الذى فاز ببعض الأهمية هو «أخوريس» لأنه استطاع أن يواجه الهجمات الفارسية بل رصدها بنجاح . وورد اسمه على بعض الآثار وفى بعض النقوش التى كتبت على المعابد. وليس من شك فى أن الثورات المتعددة هى التى سببت هذه الأسرة بعد فترة وجيزة.

وينهى مانيتون التاريخ المصرى بالأسرة الثلاثين ، وهى الأسرة التى كانت بمثابة الشعاع الذى لمع فى سماء مصر لآخر مرة يضئ العظمة التى وضع أسسها ملوك الدولة الحديثة. نشأت هذه الأسرة فى «سمنود» فى وسط الدلتا ، ولم يذكر التاريخ غير ثلاثة من ملوكها، ينطق الاغريق الأول والثالث منهم «نقطانب» وسبب هذا اختلاط الأمر على المشتغلين بالآثار المصرية . وعلى كل حال فإن «نقطانب الأول» يعنى «نخت نب أف» أى «سيده منتصر» أما «نقطانب الثانى» يعنى «نخت حور احبت» أى «المنتصر هو حوريس أحبت» (واحبت هو أحد مركز عبادة الآلهة) «إزيس» واشتهرت بمعبدها المعروف باسم «ايزيون» وتقع هذه المدينة بجوار سمنود) . وحكم نقطانب الأول من عام ٣٧٨ إلى ٣٦٢ ق.م الثالث من ٣٥٨ إلى ٣٤١ ق.م . وفيما بينهما أتى الملك «ناغوس» بن نقطانب الأول وحكم لفترة قصيرة لم تتعد السنتين من ٣٦٠ إلى ٣٥٩ق.م.

تعتبر الفترة القصيرة التى لم تكد تبلغ الأربعين عاما والتى حكمتها هذه الأسرة بمثابة المحاولة الأخيرة لإعادة مجد الفراعنة التليد إلى البلاد، وبدأ الملوك حركة واسعة من الإنشاءات فى طول البلاد وعرضها ويدل هذا على أنهم سيطروا على كل أرجائها كما كان حال أسلافهم ، ولنذكر من بين هذه الإنشاءات المعبد الكبير الذى شيد على جزيرة «أنس الوجود» وهى الجزيرة التى نالت شهرة كبيرة فى عصر حكم الرومان، والبوابة الضخمة العالية التى أقيمت عند النهاية

الشرقية لمعبد آمون بالكرنك ، ثم البوابة المشابهة التى شيدت أمام معبد «مونتو» بالكرنك. أما «نقطانب» الثانى فقد شيد معبدا ضخما فى موطن نشأته للربة إزيس ، لا زلنا حتى الآن نعجب من ضخامة أطلاله .

أما فنون هذا العصر فقد أخذ فن النحت بالأساليب التى كانت منتشرة فى عصر الدولة الوسطى وبخاصة فى عصر الدولة الحديثة ومعنى هذا أن فن النحت كان يختلف تماما فى هذا العصر عما كان عليه فى عصر الأسرة السادسة والعشرين. ومن الطريف أن نعلم أن الملك «نقطانب» الأول أطلق على نفسه اسما للعرش هو نفس الاسم الذى أطلق على «سنوسرت الأول» من ملوك الأسرة الثانية عشرة وهو «خبر كارع» ، وإن دل هذا على شئ فهو لا شك يدل على النزعة التى سيطرت على ملوك هذه الفترة وجعلتهم يرنون إلى ارجاع مجدهم القديم، بل أكثر من هذا فإن كثيرا من التماثيل كتب عليها اسم «خبر كارع» ويتعذر علينا لأول وهلة أن نرجعها إلى أى من الأسرتين الثانية عشرة أو الثلاثين . ومن الأمثلة التى نضربها للتدليل على مدى تأثير فن النحت فى الأسرة الثانية عشرة على فن النحت فى الأسرة الثلاثين التمثالان المحفوظان فى متحف الفاتيكان للملك نقطانب الأول والتمثالان الآخران المحفوظان فى المتحف البريطانى للملك أمنوفيس الثالث فهذه أربعة تماثيل تمثل أربعة أسود رابضة تكاد تنطبق بتشابه عجيب فى أسلوب نحتها . وعلى هذا الأساس يحق لنا أن نرجع القطعة الرائعة من فن النحت والتى تمثل كاهنا حليق الرأس والمحفوظة بمتحف برلين وكذلك القطع الأخرى المشابهة لها والمحفوظة فى متاحف مختلفة إلى الأسرة الثلاثين لا إلى عصر سابق.

وكذلك نرجع النقش المحفوظ بمتحف الاسكندرية والذى يمثل مسنا يعزف على القيثارة ومعه عازفات فى زى إغريقى إلى عصر الأسرة الثلاثين لأسباب تختص بأسلوب الفن. وأنه من الخطأ أن نذهب إلى أنه من العصر المتأخر كما ذهب إليه بعض العلماء من قبل. فلدينا من كل هذا ولاشك أكثر من دليل على عظمة الفن وجماله فى عصر هذه الأسرة التى تمثل لنا آخر الفترات للمجد المصرى المتداعى .

ولم تصل إلينا إلا بعض المعلومات القليلة عن الأحداث التاريخية التى وقعت إبان هذه الفترة. ويقول «ديودور» الصقلى أن الملك «تاخوس» حاول القيام بهجوم عنيف ضد الامبراطورية الفارسية بقصد استعادة فلسطين وسورية، وساعده على القيام بحملته هذه أن انضم إليه الملك

الاسبرطى «أجزيلاؤس» ، ولكن فى الوقت الذى سارت فيه الأمور على أحسن ما يرام ونجحت الحملة فى طريقها إلى فينيقية قام أخوه بثورة ضده فى مصر وضمن العرش لابنه «نقطانب الثانى» وما كادت أخبار نجاح هذه الثورة تصل إلى «تاخوس» حتى هرب إلى ملك الفرس الذى كان قد خرج لمحاربته ، وسارع «أجزيلاوس» نحو مصر ينضم إلى قائد الثورة فيها واستطاع «نقطانب الثانى» فى أول الأمر أن يدفع أن يدافع عن استقلاله أمام الفرس إلا أنه وقع فريسة حركة قوية وجهها إليه «اكسركيسيس الثالث» وانتهت بهزيمة منكرة للملك المصرى وأصبحت مصر للمرة الثانية ولاية فارسية ولو أن ذلك لم يستمر سوى عشر سنوات فقط إذ كان إسكندر الأكبر قد فاز فوزا عظيما فى حملته على آسيا الغربية وقوض أركان الدولة الفارسية واستطاع عام ٣٣٢ دخول مصر بدون حرب .

وكان من أهم ما قام به الاسكندر إنشاء مدينة الاسكندرية عام ٣٣١ ق.م . والتى ازدهرت بسرعة وأصبحت بعد فترة وجيزة أهم ميناء تجارى فى منطقة شرق البحر المتوسط. وقام الاسكندر عام ٣٣٢ برحلة إلى واحة سيوة لزيارة معبد أمون فيها وهو المعبد الذى اشتهر بالوحى فى التنبؤ بالمستقبل. ومن هنا نشأت تلك الصور التى تمثل الاسكندر بقرنين ملتويين إلى الداخل وهما لآمون وهذه الصور كثر ظهورها محفورة على قطع النقود من العصر الإغريقى. وتقول المصادر المعاصرة بأن كبار كهنة آمون فى هذا المعبد حيوا الاسكندر على أنه ابن الاله أمون . ومن الطريف أن نعلم بأن هذا المعبد لم ينشأ إلا فى عصر الملك الأثيوبى طهارقا من الأسرة الخامسة والعشرين أى أنه بنى فى عصر متأخر ويؤكد هيرودوت أن سكان واحة سيوة الذين سموا باسم أتباع آمون يمتون بصلة الجنس إلى الأثيوبيين . وتؤكد بعض المصادر أن جثة هذا الرجل العظيم الذى ساد العالم والذى مات فى سن مبكرة فى بابل (عام ٣٢٣ ق.م) قد نقلت إلى الاسكندرية ودفنت فيها . إلا أن مقبرة الاسكندر الأكبر الموجودة فى الاسكندرية لم يكشف عنها بعد مع كثرة المحاولات التى قام بها الأثريون للعثور عليها .

وبعد موت الإسكندر قام بطليموس المقدونى أحد قواده بإدارة شئون مصر كإحدى الولايات التابعة للامبراطورية المقدونية وذلك باسم وريث الاسكندر أى فيلبس اريدايوس الذى ورد اسمه منقوشا على قدس الأقداس الخاصة بمعبد آمون فى الكرنك ثم حكم مصر باسم اسكندر الثانى، وأعلن نفسه بعد موتهما ملكا على مصر . ودام حكمه من سنة ٣٠٤ ق.م إلى سنة ٢٨٤ ق.م وقدس بعد موته كإله وأقيمت له عبادة خاصة ولقب بلقب «سوتير» أى المنقذ . ويعتبر منشئ

أسرة البطالمة فى مصر التى دام حكمها ما يقرب من ثلاثة قرون إلى عام ٣٠ ق.م . ومن المعروف عن هذه الأسرة أنها أقامت أسس حكمها على الأساليب الاغريقية البحتة بحيث أن علماء الآثار المتخصصين فى الدراسات المصرية يعتبرون بدء هذه الأسرة نهاية لفترة تخصصهم ويصبح التحدث عن تاريخ هذه الأسرة من الدراسات التى يقوم بها علماء العصرين اليونانى والرومانى، وليس من شك فى أن دخول الحضارة اليونانية ومن بعدها الحضارة الرومانية قد قضى قضاء مبرما على الحضارة المصرية فى كل مظاهرها سواء فى الفن أو فى الدين أو فى اللغة وأخذت هذه الموجة تبدو واضحة ابتداء من أوائل القرن الأول الميلادى بحيث لم يبق من القديم سوى بعض المظاهر السطحية.

عصور التاريخ المصرى

عصـــر ما قبـل التاريـخ قبـل عــام ٢٨٥٠ ق.م

الدولة القديمة : وتشمل الأسرات من الأولى إلى الثامنة

٢٨٥٠ إلى ٢٠٥٢ ق.م

العصر الباكر ويشمل الأسرتين الأولى والثانية	٢٨٥٠ إلى ٢٦٥٠ ق.م
الملك مينا	حوالى ٢٨٥٠ ق.م
عصر بناة الأهرام ويشمل الأسرات من الثالثة إلى الثامنة	٢٦٥٠ إلى ٢١٩٠ ق.م
الأسرة الثالثة وأهم ملوكها «زوسر» وغيره	٢٦٥٠ إلى ٢٦٠٠ ق.م
الأسرة الرابعة وأهم ملوكها خوفو وخفرع ومنكاورع	
وغيرهم وهم الذين يدوا أهرام الجيزة	٢٦٠٠ إلى ٢٤٨٠ ق.م
الأسرة الخامسة وأهم ملوكها :	
ساحورع ونى أوسر رع وأوناس وغيرهم	٢٤٨٠ إلى ٢٣٥٠ ق.م
الأسرة السادسة وأهم ملوكها :	
تيتى وبيبى الأول وبيبى الثانى وغيرهم	٢٣٥٠ إلى ٢١٩٠ ق.م
عصر الاضمحلال الأول	
ويشمل الأسرتين التاسعة والعاشرة	
ويسمى عصر ملوك أهناسيا	٢١٩٠ إلى ٢٠٥٢ ق.م

الدولة الوسطى: وتشمل الأسرات الحادية عشرة والثانية عشرة ٢٠٥٢ إلى ١٧٧٨ق.م

الأسرة الحادية عشرة وأهم ملوكها منتوحتب ٢٠٥٢ إلى ١٩٩١ق.م

الأسرة الثانية عشرة وأهم ملوكها: امنحيت الأول ١٩٩١ إلى ١٩٧٢ ق.م

سنوسرت الأول ١٩٧٢ إلى ١٩٣٠ ق.م

امنحيت الثاى ١٩٢٩ إلى ١٨٩٨ ق.م

سنوسرت الثانى ١٨٩٧ إلى ١٨٧٩ ق.م

سنسرت الثالث ١٨٧٨ إلى ١٨٤١ ق.م

امنمحيت الثالث ١٨٤٠ إلى ١٧٩٢ ق.م

عصر الاضمحلال الثانى : ويشمل الأسرات من الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة ١٧٧٨ إلى ١٦١٠ ق.م

عصر الهكسوس : ويشمل الأسرتين الخامسة عشر والسادسة عشرة ١٦٧٠ إلى ١٥٧٠ ق.م

الدولة الحديثة

وتشمل الأسرات من السابعة عشرة إلى الرابعة والعشرين

١٦١٠ إلى ٧١٥ ق.م

الأسرة السابعة عشرة ١٦١٠ إلى ١٥٧٠ ق.م

الأسرة الثامنة عشرة ١٥٧٠ إلى ١٣٤٥ ق.م

وأهم ملوكها :

أمازيس	١٥٧٠ إلى ١٥٤٥ ق.م
امنوفيس الأول	١٥٤٥ إلى ١٥٢٤ ق.م
حتشبسوت	١٥٠١ إلى ١٤٨٠ ق.م
تحوتمس الأول والثانى	١٥٠٢ إلى ١٤٤٨ ق.م
موقعة مجدو	١٤٨٠ ق.م
امنوفيس الثانى	١٤٤٨ إلى ١٤٢٢ق.م
تحوتمس الرابع	١٤٢٢ إلى ١٤١٣ ق.م
أمنوفيس الثالث	١٤١٣ إلى ١٣٧٧ ق.م
أمنوفيس الرابع (أخناتون)	١٣٧٧ إلى ١٣٥٨ ق.م
توت عنخ آمون	١٣٥٨ إلى ١٣٤٩ ق.م
آى	١٣٤٩ إلى ١٣٤٥ ق.م

الأسرة التاسعة عشرة

الأسرة التاسعة عشرة	١٣٤٥ إلى ١٢٠٠ ق.م
حورمحب	١٣٤٥ إلى ١٣١٨ ق.م
رمسيس الأول	١٣١٨ إلى ١٣١٧ ق.م
رمسيس الثانى	١٣٠١ إلى ١٢٣٤ق.م
موقعة قادش	١٢٦٦ ق.م
مرنبتاح	١٢٣٤ إلى ١٢٢٠ ق.م
سيتى الثانى والاضطرابات فى أواخر الأسرة التاسعة عشرة	١٢٢٠ إلى ١٢٠٠ ق.م

الأسرة العشرون

ست نخت	١٢٠ إلى ١١٩٧ ق.م
رمسيس الثالث	١١٩٧ إلى ١١٦٥ق.م
رمسيس الرابع إلى رمسيس الحادى عشر	١١٦٥ إلى ١٠٨٥ ق.م

الأسرة الحادية والعشرون

(انقسام مصر إلى منطقتين فى طيبة وتانيس	١٠٨٥ إلى ٩٥٠ ق.م

الأسرتان الثانية والعشرون والثالثة والعشرون

عصر ملوك الليبيين وأهمهم:

شبشنق الأول	٩٥٠ إلى ٧٢٠ ق.م

الأسرة الرابعة والعشرون

الملك بوكوريس من سايس	٩٥٠ إلى ٧١٥ ق.م

العصر المتأخر

الدولة النوبية التى أسسها كاشتا وكانت عاصمتها نباتا	٧٥٠ ق.م
حملة بعنخى إلى مصر	٧٢٥ ق.م
ملوك الدولة النوبية وأهمه	

الأسرة الخامسة والعشرون

شاباكا وطهارقا	٧١٥ إلى ٦٦٣ ق.م

الأسرة السادسة والعشرون (العصر الصائى)

أهم الملوك : بسامتيك الأول والثانى والثالث ونخاو	
وابريس وامازيس	٦٦٣ إلى ٥٢٥ ق.م
موقعة بيلو زيوم وغزو قمبيز لمصر	٥٢٥ ق.م

الأسرة السابعة والعشرون

عصر الفرس وخاصة دارا الأول	٥٢٥ إلى ٣٣٢ ق.م

الأسرة الثامنة والعشرون

أمر تايوس من سايس	٤٠٤ إلى ٣٩٩ ق.م

الأسرة التاسعة والعشرون

ملوك منديس	٣٩٨ إلى ٣٧٩ ق.م

الأسرة الثلاثون

نقطانب الأول	٣٧٨ إلى ٣٤١ ق.م
دخول اسكندر الأكبر أرض مصر وتأسيس الاسكندرية	٣٣٢ ق.م

المراجـع

المقدمة

1-Meyer, Eduaerd: Geschichte des Altertums, Bd, I,II, 1, II, 2, III.

2- Junker, Jermann : Die Aegypter in : Die Voelker des antiken Orients, Geschichte der fuehrenden Voelker, Bd.3, Freiburg 1933 .

4- Erman , A. Ranke, H.: Aegypten und aegyptisches Leben in Altertum Tuebingen 1923 .

5- Kees , H.: Aegypten (Kulturgeschichte des Alten Orients), Muenchen 1933.

6- Schaefer, H.: Die Kunst des Alten Orients Propylaenkunstgeschichte Bd. 2,3. Aufl.

7- Schaefer, H.: Von aegyptischer Kunst, Leipzig 1930 .

الفصل الأول

فجر التاريخ

1- Passarge , S.: Die Urlandschaft Aegyptens und die Lokalisierung der Wiege der altaegyptischen Kultur , N.A. Leopoldina N.F. Bd. 9, Nr 58, Halle, 1940 .

2- Steindorff, G.: Die aegyptischen Gaue und ihre Politische Entwicklung , Abh . Saechs. Akad , d. Wiss . Bd. 27 , Nr. 25, Leipzig 1909 .

٢- العصران «الحجرى القديم» و «الحجرى الحديث» فى مصر

1- Scharff, A.: Altertuemer der Vor - und Fuehzeit , Bd. 1,S.1 ff. Berlin 1931 .

٣- عصور ما قبل التاريخ

أ- (مصر السفلى - حضارة مرمدة)

1- Scharff, A.: Historische Zeitschrift 161, 13 (mit Anm. 1-3).

2- Childe, G.: New Light on the Most Anient East, London 1934 .

3- Junker, H.: Merimde, Vorberichte im Anz . der Wiener Akad, der Wiss. ab 1929 .

4- Scharff , A.: Grab als Wohnhaus , SBAW, Muenchen 1944/6 .

5- Debono, : Helwan, Chronique d'Egypte No. 41, 50 ff.

6- Caton Thompson- Gardner: The Desert Fayom, 2 ols , London 1934 .

ب- مصر العليا (حضارتا البدارى ونقادة الأولى)

1- Brunton- Caton Thompson : The Badarian Civilzation, London 1928.

لقد عثر «برنتون» فى حقل تنقيباته بالبدارى على مجموعة من المقابر تحوى أدوات بدائية الصنع ويبدو واضحا أنها تسبق فى عصرها عهد البدارى ومن أجل ذلك أطلق عليها اسم «حضارة تاسا» ولكننى أعتقد أن الظروف المحيطة بهذا الكشف تجعلنا نضرب صفحا عن ذكرها وعن تعيين عصرها . قارن ما ورد فى كتاب :

Brunton, Mostagedda and the Tasian Culture, London 1937.

2- Passarge , S.: Die Urlandschaft Aegyptens und die Lokalisierung der : Wiege der altaegyptischen Kultur, N.A. Lecpoldina , N.F. Bd.9, Nr 58, Halle 1940 .

3- Ricke , H.: Bemerkungen zur aegyptischen Baukunst , Br. I, Zuerich 1944 .

4- Frobenius , : Ekade , die Felsbilder Fezzans , Leipsig 1937 , laf 36-46 .

5- Winkler , H.A.: Rock Drawings of Southern Upper Egypt (including Uwenat), vol . II, London 1939 .

6- Scharff , A.: Altertuemer der- und Fruehzeit Aegyptens, Bd,I, Berlin 1931 .

7- Scharff , A.: Die Fruehkulturen Aegyptens und Mesopotamiens (Der Alfe Orient , Bd.41), Leipzig 1941 .

8- Baumgaertel, E: The Cultres of Prehistoric Egypt, Oxford 1947 .

ج- حضارة نقادة الثانية»

1- Gardiner, A. H.: Egyptian Grammar , Oxford 1927 .

2- Zyhlaz, E.: Ursprung und Sprachcharakter des Altaegyptischen Zf. fuer Eingeborenesprachen Bd.23 .

3- Scharff , A.: Archaeologische Beitraege zur Frage der Entstehung der Hierogyphenschrift SBAW, Muenchen 1942 .

4- Menghin - Mustafa Amer : Excavatains of the Egyptian University in the Neolithic Site at Maadi, Cairo 1932, 1936 .

5- Menghin, : Maddi , Mitt des Deutschen Instituts zu Kairo , Bd, 5, 1935.

6- Petrie, F.: Prehistoric Egypt orpus , London 1921 .

7- Engberg- Shipton : Notes on the Chalcolithic and early Bronze Age Pottery of Megiddo, Studies in Ancient Orient Civillisations , no 10. Chicago 1934 .

8- Scharff, A.: Altuemer der Vor - und Fruehzeit Aegyptens, Bd, I, S. 24 ff, Berlin 1931 .

9- Kantor ,: The Final Phase of Predynastic Culture Gerzean or Semainean? JNEST, 3 , 110 ff.

د- أقدم الصر التى تخيلها المصريون عن آلهتهم

1- Frobenius, : Ekade Ektab; Leipzig 1937 .

2- Ayrton-Loat, Predynastic Cemetries at El-Mahasna; London 1911.

3- Weill, : Sphinx 15, 12.

4- Scharff, A; Die Ausbreitung des Osiriskultes in der Fruehzeit und Waehrend des Alten Reiches, SBAW, Muenchen 1947 .

5- Jinker, H.: Die Goetterlehre von Memphis, SBAW, Berlin 1940 .

6- Sethe , K.: Urgeschichte und aelteste Religion der Aegypter, Leipizg 1930 .

7- Gardiner , : Journal of Egyptian Archeology 30, London 1944 .

8- Schott,: Das mythische Reich von Heliopolis; (Bericht ueber den VI Internationalen Kongress fuer Archaeologie), Berlin, 1939, D. 266ff.

هـ- فترة الانتقال إلى العصر التاريخى (مملكتا عباد حوريس)

1-Sethe, K.: Beitraege zur aeltsten Geshichte Aegyptens; Untrsuchungen Bd. 3 , Leipzig 1905 .

2- Kees, H.: Goetterglaube, Leipzig, 1941 .

3- Breasted, J.H.: The Predynastic Union of Egypt; Bull. Inst, Franc I.30.

4- Mueller , Hugo: Die formale Entwicklung de Titulatur der aegyptischen Koenige; Aegyptische Forschungen, Heft 7, Glueckstadt 1938 .

الفصل الثانى

التحديد الزمنى للتاريخ المصرى

١- كتاب التاريخ لمانيتون

1- Meyer, Ed.: Geschichte des Altertums Bd. I,2, 151 (3. Auflage).

2- Ranke, H.: Vom Geschichtsbilde der alten Aegypter ; Chronique d'Egypte No . 12, Brussel, 1931 .

٢- قوائم بأسماء الملوك الفراعنة

1- Farina, G.: Il Papiro dei Ré restauraro , Rom 1938 .

2- Meyer, E.: Chrolologie , Berlin 1904 .

3- Schaefer, H.: Ein Bruchstueck altaegyptischer Annalen; Abh. Ak. der Wiss. Berlin 1902 .

4- Sethe, K.: Untersuchungen Bd. 3, Leipizg, 1905 .

5- Borchardt, L.: Die Annalen und die zeitliche Feslegung des Alten Reiches, Berlin 1917 .

6- Gauthier, Le Livre des Rois, Le Cairo 1907 .

٣- التقويم المصرى

1-Meyer, E.: Aegyptische Chronologi , Berlin 1904 .

2- Sethe , K.: Die Zeitrechnung der alten Aegypter, SBAW, Goettingen 1919 (3 Hefte).

3- Neugebauer , : Acta Orientalia XVII, 169 ff.

٤- أهمية النجم «الشعرى اليمانية» فى التوقيت المصرى

1- Meyer , E.: Aegyptische Chronologie.

2- Borchardt, L.: Die Mittel zur zeitlichen Fostegung , Kairo 1935 .

3- Scharff, A.: Grundzuege der aegyptischen Vorgeschichte, Morgenland, Heft 12, Leipzig 1927 .

4- Moortgat , A.: Die Entstehung der sumerischea Hochkultur, Der Alte Orient Bd . 43, Leipzig 1945 .

الفصل الثالث

الدولة القديمة

١- عصر الأسرات الأولى

1-Schaefer-Andrae: Die kunst des Alten Orients, Propylaenkunstgeschiche II.

2- Quibell- Green: Hierakonpolis I.

3- Petrie, F.: The Royal Tombs of the Earliest Dynasties London 1900/1.

4- Morgan, J. de : le Tombeau Royale de Negada, La Preehist Orient II, Paris , 1926 , p. 163 .

5- Vikentiev , : Ann . Serv . Antiq. 33, 208 ff et 34, 1ff.

6- Ricke , H.: Bemerkungon zur aegyptischen Baukunst des Alten Reiches , Zuerich 1944 .

7- Scharff, A.: Das Grab als Wohnhaus in der Aegyptischen Fruehzeit SBAW, Muenchen 1944/6.

8- Emery ,: Hor - Aha , Excavatians at Saqqara 1937- 8 Cairo 1939 .

9- Sethe, K.: Beitrage sur aeltesten Geschichte Aegyptens, Untersuchungen Bd . 3, Leipzig 1905 .

10- Emery , : The Tomb of Hemaka, Excavations at Saqqara 1938 .

11- Mueller, H.: Die formale Entwicklung der Titulatur der aegyptischen Koenige , Glueckstadt 1938 .

12- Scharff , A.: Archaeologische Beitraege zur Frage der Entstehung der Hieroglyphenschrift, SBAW, Muenchen 1942 , Heft .

13- Lucas, A.: Ancient Egyptian Materials and Industries, London 1948 .

14- Montet ; : Byblos et et L'Egypte , 2 vols ., Paris 1928.

15- Pendlebury , B.: Aegyptiaca, Cambridge 1930 .

16- Stock, H.: Die Welt des orients , Wuppertal, 1948 .

٢- عصر بناة الأهرام

أ- الأحداث التاريخية

1- Edwards, J.E.S.: The Pyramids of Egypt, London 1947 .

2- Lauer , J. Ph.: Le Probléme des Pyramides d'égypte, Paris 1948 .

3- Borchardt, L.: Die Pyramiden, ihre Entsehung und entwicklung, Berlin 1911 ..

4- Meyer , E.: Aegypten zur Zeit der Pyramidenerbaur, Leipzig 1908 .

5- Scharff, .: Ein Beitrag zur Chronologie der 4. aegyptischen Dynastie, OLZ 31, 73 ff.

6- Firth- Quibell: The Step Pyramid , 2 vols., Cairo 1936 .

7- Lauer La Pyramide á degrés. L'architecturee, 2 vols ., Cairo 1936 .

8- Ricke , H.: Bemerkungen uzr aegyptischen Baukunst des Alten Reiches, I, Zuerich 1944 .

9- Sethe, K.: Dodekachoinos, Untersuchungen II, 59 ff.

(مراجع عن الأسرة الرابعة)

4. Dynastie : 1- Borchardt, L.: Die Entstehung der Pyramide , an der Baugeschichte der Pyramide yei Mejdum nachgewiesen , Berlin 1928 .

2- Rowe. Excavations of the Eckley B. Jr. Expedition at Meydum Egypt 1929/30 The Museum Journal vol XXII, 1, Philadelphia 1931 .

4- Reisner : Tomb of Queen Hetep- heres in Giza , Bull. Fine Arts Museum Boton, Spec, No. Supple. to vol . 25 , Boston 1927 .

5- Hoston, V.: Das Grabdenkmale des koenigs Chephren , Leipzig, 1912 .

6- Reisner : Mycerinus , the Temple of the 3rd Pyramid at Giza , Cambridge/ Mass. 1931 .

7- Jéquier, G.: Le Mastabat Faraoun , Cairo 1928 .

(مراجع عن الأسرة الخامسة)

5- Dynastie : 1) Borchardt, L.: Das Grabdenkmal des Koenigs Sahure, 2 Bde. Leipzig 1910 und 1913 .

2- Borchardt ., Das Grabdenkmal des Koenigs Neferir-Kare, Leipzig 1909.

3- Borchardt Das Grabdenkmal des Koenigs Neuserre, Leipzig 1907 .

4- Borchardt, L.: Das Re-Heilingtum des Newoserre, Berlin 1905 .

(مراجع عن الأسرة السادسة)

6- Dynastie: 1) Jéquier L Le Monument funeeraire de Pepi II, 3 vols, Cairo 1936/40 .

(مراجع عن الأسرة الثامنة)

8- Dynastie : 1) Jéquier : La Pyramide d'Aba, Cairo 1935 .

ب- الملك والدولة

1- Mueller , H.: Die formale Entwicklung der Titulatur der aegyptischen Koenige Aeg . Forschungen, Heft 7, Glueckstadt 1938 .

2- Schweitzer, U.: Loewe und Sphinx im alten Aegypten, Aeg. Forschungen, Heft 15, Glueckstadt, 1948 .

3- Reisner : The Development of the Egyptian Tombs down to the Accession of Cheops, Cambridge 1936 .

4- Junker , H.: Giza I bis X, Denkschrift Ak. der Wiss. Wien 1929 bis1956.

5- Kees, H.: Beitraege zur altaegyptischen Provinzialverwaltung und zur Geschichte des Feudalismus SBAW, Goettingen 1932/3...

6- Kees , H.: Beitraege zur Geschiche des Vezirats im Alten Reich, SBAW, Goettingen 1940 .

7- Bruner , H.: Die Anlagen der aegyprischen Felsgraeber bis sum Mittleren Reich , Aeg. Forschungen , Heft, 3, Glueckstadt 1936 .

8- Kees, H.: Studien zur aegyptischen Provinzialkunst, Leipzig 1921 .

9- Saeve - Soederbergh, Torgny: Aegypten und Nubien, Lund 1941 .

ج- الدين والفن

1- Sethe, K.: Das hieroglyphische Schrift system , Leipziger Aeg . Studien, Heft 3, Leipzig 1935 .

2- Junker, H.: Pyramidenzeit , das Wesen der altaegyptischen Religion Einsiedeln 1949 .

٣- عصر الاضمحلال الأول

1- Erman , A.: Die Literatur der Aegypter, Leipzig , 1923 .

2- Scharff, A.: Der historische Abschnitt der Lehre fuer Koenig Merikare, SBAW, Muenchen 1936 .

3- Scharff, A.: Der Bericht ueber das Streitgesprach eines Lebensmueden mit seiner Seele, SBAW , Muenchen 1937 .

4- Scharff , A.: Die Ausbreitung des osiriskulttes in der Freuhzeit und waehrend des Alten Reiches, SBAW, Muenchen 1947 .

5- Jéquiler Les frises d'objets , Mém. de l'Inst., tome 47 .

6- Schaefer : Die Entstehung eininger Mumienamulette, ZAes 43, 66.

7- Brunton : Qau and Badari, 3 vols., London 1925 .

8- Brunton : Buttons and Design Scarabs, London 1925 .

9- Scharff, A.: Ueber einige fremdartinge Darstellungen auf Siegelbildern usw., ZAeS 67, 95 ff.

10- Brunner : Die Hefte aus den Graebern der Herakleoplitenzeit von Siut Aegypt., Forschungen , Heft 5, Glueckstadt 1937 .

11- Wreszinski : Atlas II, 15.

12- Stock, H.: Die erste Zwischenzeit Aegyptens, Studia Aegyptiaca II. Rom 1949 .

الفصل الرابع
الدولة الوسطى

١- انتصار طيبة وتأسيس الأسرة الحادية عشرة

1-Bruner : Die Anglagen der aegyptischen Felsgraeber bis zum Mittleren Reich , Glueckstadt 1936 .

2- Winlock : The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, New York 1947 .

3- Naville : The XIth Dynasty Temple at Deir el-Bahari, 3vols, London 1907 / 10/ 13 .

4- Breasted Jr.: Egyptian Servants Statues, Washington 1948 .

5- Sethe, K.: Die Achtung feindlicher Fuersten Usw., Abh. Akad . der Wiss. Berlin 1926 .

6- Posener : Princes et Pays d'Asie et de Nubi, Bruessel 1940 .

٢- الأسرة الثانية عشرة

1- Sethe, K.: Amun und die acht Urgoetter von Hermopolis Abh. Ak der Wiss. Berlin 1929 .

2- Erman: Literatur, S. 39 (Sinuhe). S. 106 (Lehre des Koenige Amenemhet).

3- De Buck : The Instruction of Amenemmes , Mél Maspero I, 847 .

4- Erman- Ranke: Aegypten Aegypten und das aegyptische Leben in Altertum S. 198 (Plan der Siedlung Kahun).

5- Naumann : Tempel des Mittleren Reiches von Medinet Madi , Mitt Inst. Kairo Bd. 8, 185 .

6- Newberry : Beni Hassan I-IV, London , 1890 .

7- Mueller , H.W.: Die Felsengraeber des Fuensten von Elephantine aus der Zeit des Mittleren Reiches , Aeg . Forschungen, Heft 9, Glueckstadt 1940 .

8- Davies : The Tomb of Antefoker, London 1920 .

9- Evers: Staat aus dem Stein , Muenchen 1929 .

10- Schaefer : Die Mysterien des Osiris in Abydos, in Sethe : Untersuchungen Bd. IV, 49 .

11- Bonnet : Bilderatlas zur eagyptischen Religion No. (Der Sogenonnte Osirissarkophag von Abydos).

12- Borchardt, L.: Altaegyptische Festungen an der zweiten Nilschwelle, Sieglin - Exp . Bd. 3, Leipzig 1923 .

13- Steindorff: Aniba , Miss. Arch de Nubie 1929 / 34 , Glueckstadt 1935 .

14- Reisner : Kerma, Harvard African Studies vol. 5/6, Cambridge/ Mass. 1923 .

15- Montet : Bybolos et l'Egypte, Paris, 1929 .

16- Bison de la Roque: Tod 1934/6, Fouilles de l'Inst ., vol . 17 , Cairo 1937 .

17- De Morgan : Dahchour , Cairo 1894/6.

18- Winlock: The Treasure of El-Lahun, New York 1934 .

٣- الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة

1- Stock, H.: Studien zur Geschichte und Archaeologie der 13, bis 17 Dynastie Aegyptens , Forschungen Heft 12, Glueckstadt 1942 .

2- Scharff, A.: Ein Rechnungsbuch des kgl. Hofes aus der 13. Dynastie ZAeS 57, 51 .

٤- عصر الهكسوس (عصر الاضمحلال الثانى)

الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة

1- Engberg: The Hyksos reconsidered, stud. in ACC , 18 , Chicago 1939.

2- Gardiner ; in J.E.A.19,122 .

3- Pahor Labib : Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten und ihr Sturz Gluckstadt 1936 .

4- Wiesner : Fahren und Reiten in Alteuropa und in Alten Orient (Der Alte Orient d.38) Leipzig 1939 .

الفصل الخامس

كلمة عامة عن الدولة الحديثة

1-Bilabel : Geschichte Vorderasiens und Aegyptens, Bd. I, Heidelberg 1927 .

١- نشأة الامبراطورية المصرية

1- Stock , H.: Studien ... zur Geschichte ... U.S.W.

2- Winlock: The Tombs of the 17 th Dynasty, J.E.A.10 .

3- Elliot-Smith: The Royal Mummies, Cat. Gén. Cairo.

4- Vercoutter : les Haou-Nebout, Bull. de l'Institut Franc. 47/8.

5- Carter , H.: The Tomb of Amenophis I, J.E.A.3.

6- Sethe , K.: Das Hatschepsut- Problem, Abhdl. der Ak. der Wiss., Berlin 1932 .

7- Edgreton : The Thutmosid Successiin , Stud, in AOS 8, Chicago 1933.

8- Sethe, K.: Urkunfen der 18. Dynastie, Bd. I, 53 ff. Die Lebensgeschichte des Enene.

9- Kornemann, W.: Grosse Frauen des Altertums, Leipzig.

10- Naville: The Temple of Dheir-el-Bahari.

11- Hilzheimer : Zur Georgraphischen Lokalisierung von Punt , ZAeS 68.

12- Junker : Das erste Aufreten der Neger in der Geschicht. J.E.A.4.

13- Carter , H.: A Tomb prepared for Qeen Hatschepsut. JEA. 4.

14- Grapow : Studien zu den Annalen Thutmosis III, Abh. der Ak . der Wiss. Berlin 1949 .

15- Nelson : The Battle of Megiddo , Chicago 1913 .

16- Meyer , Eduard : Berich ueber eibe Expedition nach Aegypten zur Erforschung der Darstellungen der Fremdvoelker , SBAW, Berlin 1913 .

17- Steindorff: Die Kunst der Aegypter , liepzig 1928 (S.231).

18- Jéquier L :'Architecture, vol . I, Pl.50 (sog. Festhalle Thutmosis III).

19- Lefebvre: Histoire des Grands Prêtres d'Amon de Karnak, Paris 1929.

20- Sethe, K.: Die Einsetzung des Vezirs unter der 18. Dynastie, Untersuchungen . Bd. V, 49, Leipzig , 1912 .

21- Scharff-Seidl: Einfuehrung in die aegyptische Rechtsgeschicht bis Zum Ende des Neuen Reiches, Aegypt., Forschungen Heft 10, Gleuckstadt , 1939 .

22- Brunner : Die Lehre des Cheti, Sohnesdes Duauf , Aeg. Forschungen Heft 13, Glueckstadt 1944 .

23- Helck : Der Einfluss der Militaerfuehrer in der 18 . aegyptischen Dynastie , Untersuchungen Bd. 14, Leipzig 1939 .

24- Sander-Hansen : Das Gottesweib des Amun, Schwed, daen, Akademie

der Wiss. Kopenhagen 1940 .

25- Carter- Newberry: The Tomb of Thutmosis IV, Cat . Gén. Cairo 1904.

٢- مصر فى عصر امنوفيس الثالث

1- Steindorff-seele: When Egypt Ruled the East , Chicago 1941 .

2- Borchardt : Zur Geschichte des Luqosortempels, ZAeS 34, 122 .

3- Robichon- Varille : Le Temple du Scribe royal Amenhotep fils de Hapou , vol . I, Fouilles de l'Institut Français XI, Cairo 1936 .

4- Davies: The Tomb of the Vizier Ramose , london 1941 .

5- Scharff, A.: Aegyptische Sonnenlieder , berlin 1922 .

٣- عصر العمارنة

1-Schaefer : Amarna in religion und Kunst , Leipzig 1931 .

2- Pendlebury: tell el-Amarna, London 1935 .

3- Scharff, A.: Sonnenlieder, S. 61 ff.

3- Scharff, A.: Sonnenlieder , S. 61ff.

4- Frankfort: The Mural paintings of El Amaranah , Lonro 1929 .

5- Von Bissing : Der Fussboden aus dem Palaste des Koenigs Amenophis IV. zu El hawata, Muenchen 1941 .

6- Davies: the Rock Tombs of El Amarna, 6vols., London 1902 .

7- Wolf : Das schoene Fest von Opet (E.V. Sieglin Exp. Bd. 5). Leipzig 1931 .

8- Carter -Mace: Tut -ench-Amun. Leipzig 1924, 27,34.

9- Winlock: J.E.A. 10 ff. (Schreibstatue des Harembheb).

٤- العصر الذهبى الثانى

(عصر النهضة)

1-Junker : Gott Seth bereits seit dem Alten Reich vei Tanis, Tanis , ZAeS 63ff.

2- Frankfort: The Cenotaph of Seti I at Abydos, 2vols, London 1933 .

3- Breasted : The Battle or Kadesh , Chicago 1903 .

4- Meissner : Der Staasvertrag Ramses III, Und hattusils in akkadi scher fassung, SBAW, Berlin 1917 .

6- Montet: Le Drame d'Avaris , Paris 1941 .

7- Erman: Literatur der alten Aegypter (Die Weisheit des Anil), S. 294 ff.

8- Von Beckerath : Theben und Tanis , Aegyptische Forschungen heft 7.

9- Spiegelberg : Der Aufenthalt Israeles in Aegypten, Strassburg 1904 .

10- Hoelscher : Medinet Habu, Morgenland Heft 24, Leipzig 1933 .

11- Schaedel: Die grossen paprys Harris , leipziger aegypt, Studien Heft 6, Glueckstadt 1936 .

٥- عصر النكسة والانتقال إلى العصر المتأخر

1-Erman: Literatur der alten Aegypter, S. 255 ff. (Die Reise des Wan Amon).

2- Montet : Tanis , 1942 .

3- Montet : Babylos et l'Egypte.

(العصر المتأخر)

١- العصر الأثيوبى

1-Reisner : The Barkal Temples, J.E.A. 4,5,6.

2- Reisner : The Meroitic Kingdom of Etiopia , J.E.A.9/

3- Von Zeissl : Aethiopen und Assyrer in Aegypten, Aegypt. Forschungen Heft 14, Glueckstadt 1944 .

4- Sander- Hansen: Das Gottesweib des Amun, Schhwed-daen. Akad. der Wiss. Kopenhagen 1940 .

5- Breasted : Ancient Records of Egypt , vol , Chicago 1906 .

٢- العصر الصائى

1-Herodot II (Uebersetzug von Th. Braun) , Leipzig 1927 .

٣- العصر الفارسى

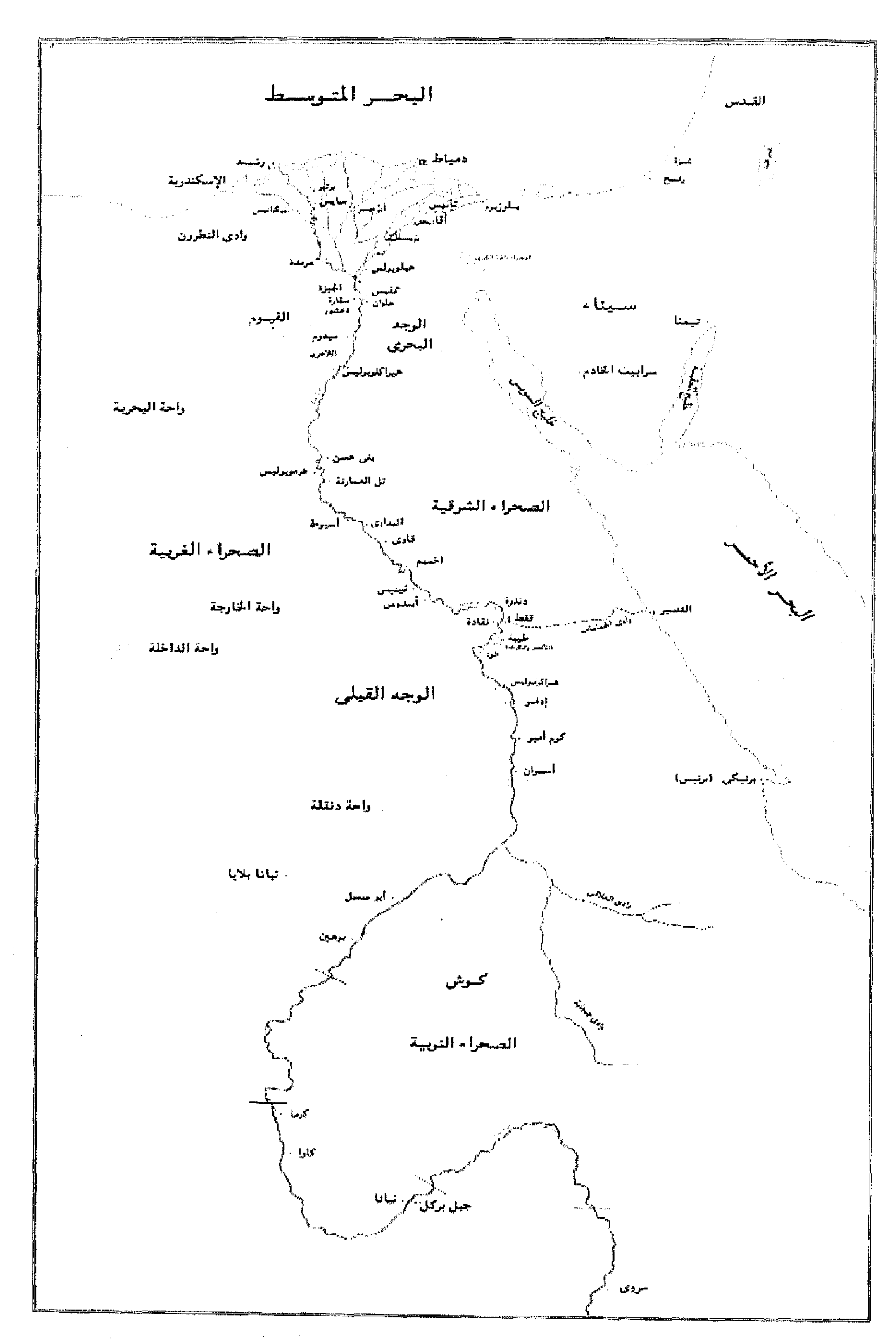
1-Posener : la Premiére domination Perse en Egypte, Cairo, 1936 .

2- Tulli : Il Naophro Vaticano, Festschrift der Vatik Aegypt. Slg Rom 1941

3- Scharff, A.: Bemerkungen zur Kunst der 30. Dynastie , Festschrift der Vatik. Aegypt . Slg., Rom 1941 .

4- Steindorff: Der Orakeltempel in der Ammonoase , ZAeS 69 , 1 ff.

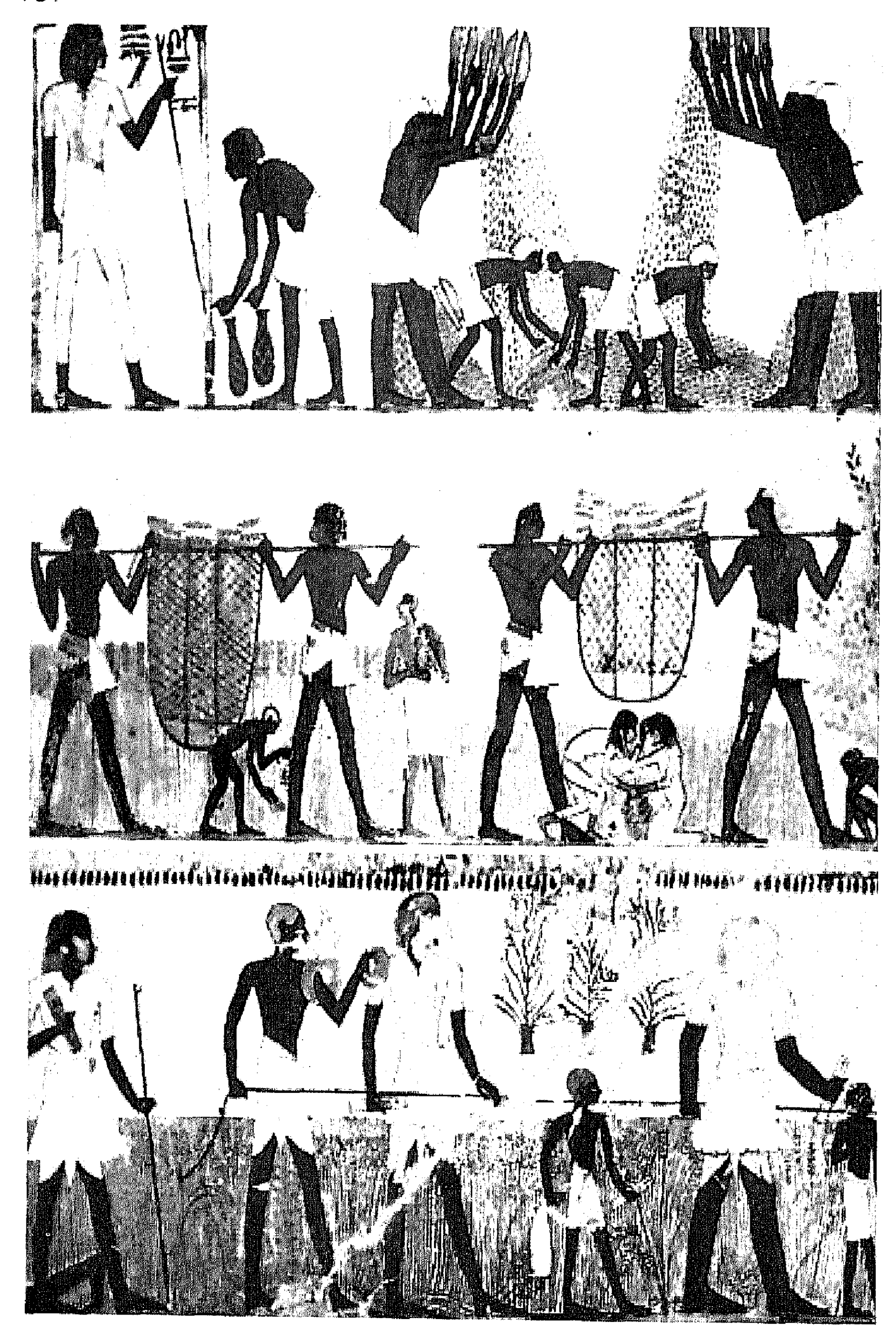
ملحق الصور



خريطة مصر القديمة



وعاء من الفخار مصنوع من طمى النيل وفؤوس وأقداح وكؤوس من حضارة تاسا



موسم الحصاد فى مصر القديمة



موسم الحرس والزراعة فى مصر القديمة

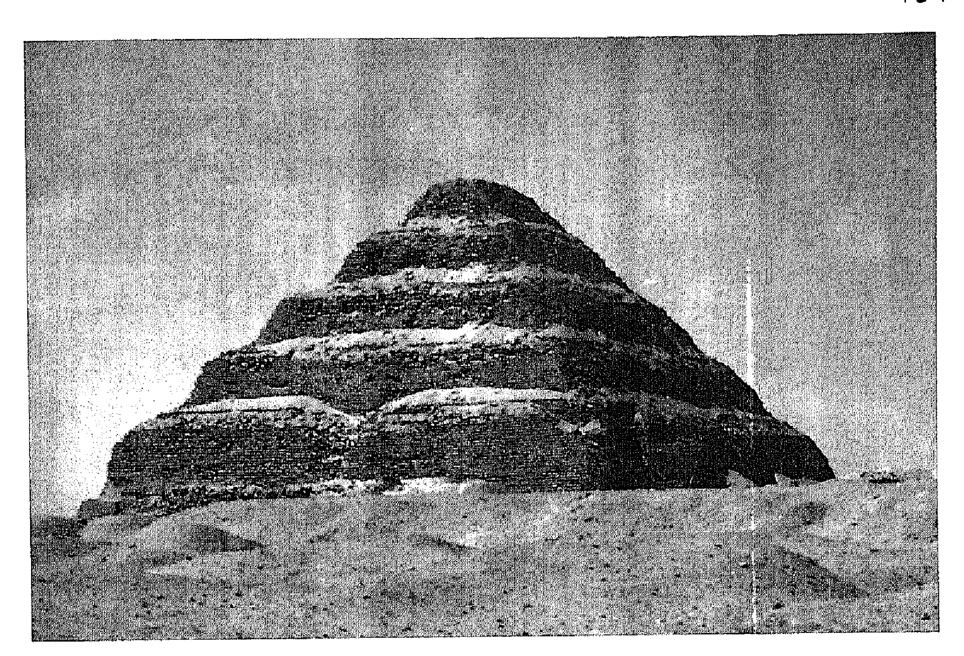
الأعياد والمهرجانات المصحوبة بالموسيقى والرقص



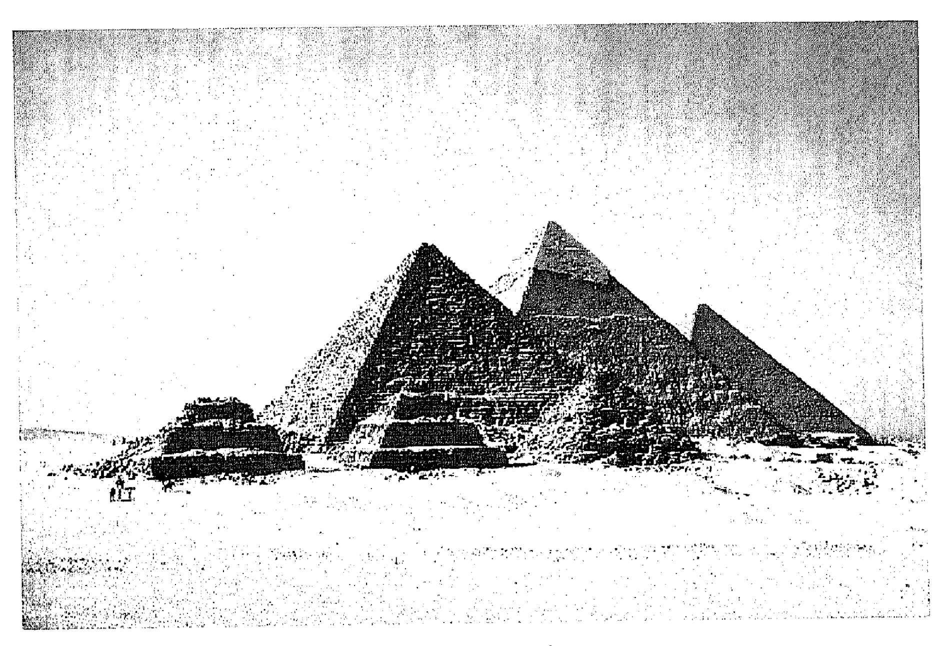
١- الملك مينا (نعرمر) مرتديـا التـاج الأبيض ويمسك أسيرا من أهـل الشمـال
٢- الملك مينا (نعرمر) مرتديا التاج الأحمر ويحتفل بانصاره على مملكة الشمال



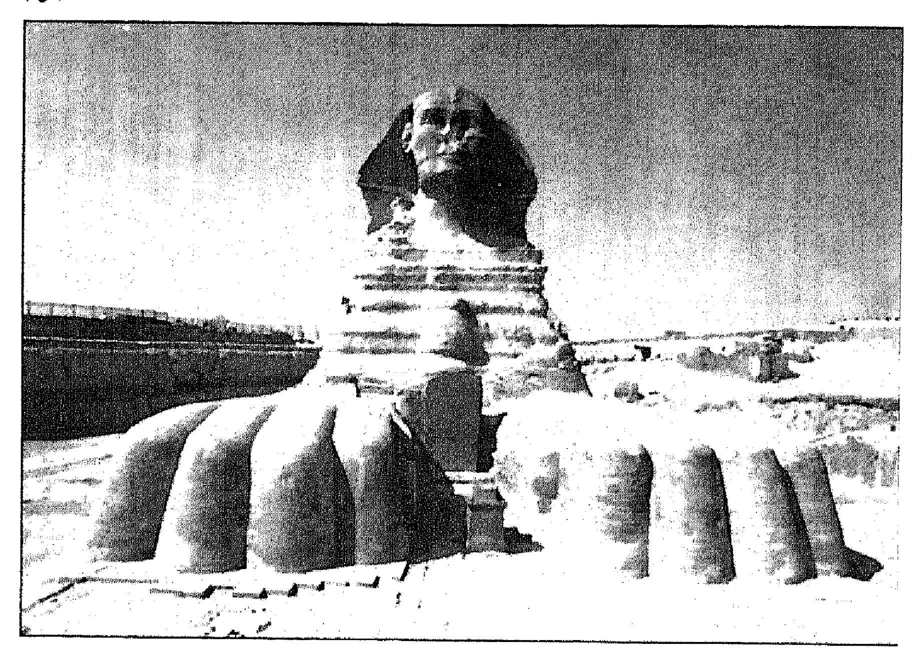
صنّاع التماثيل بمقبرة بتاح حتب



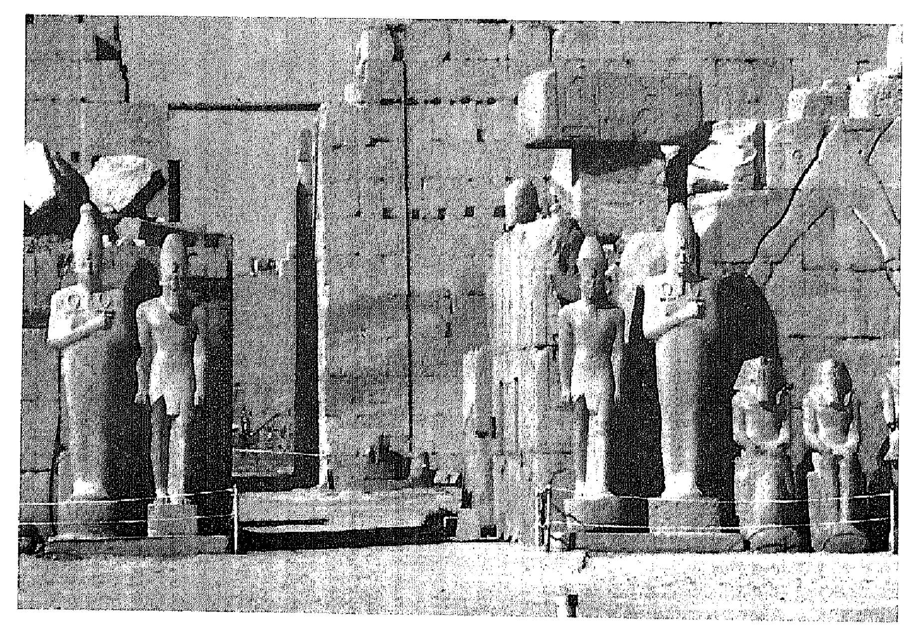
هرم سقارة المدرج



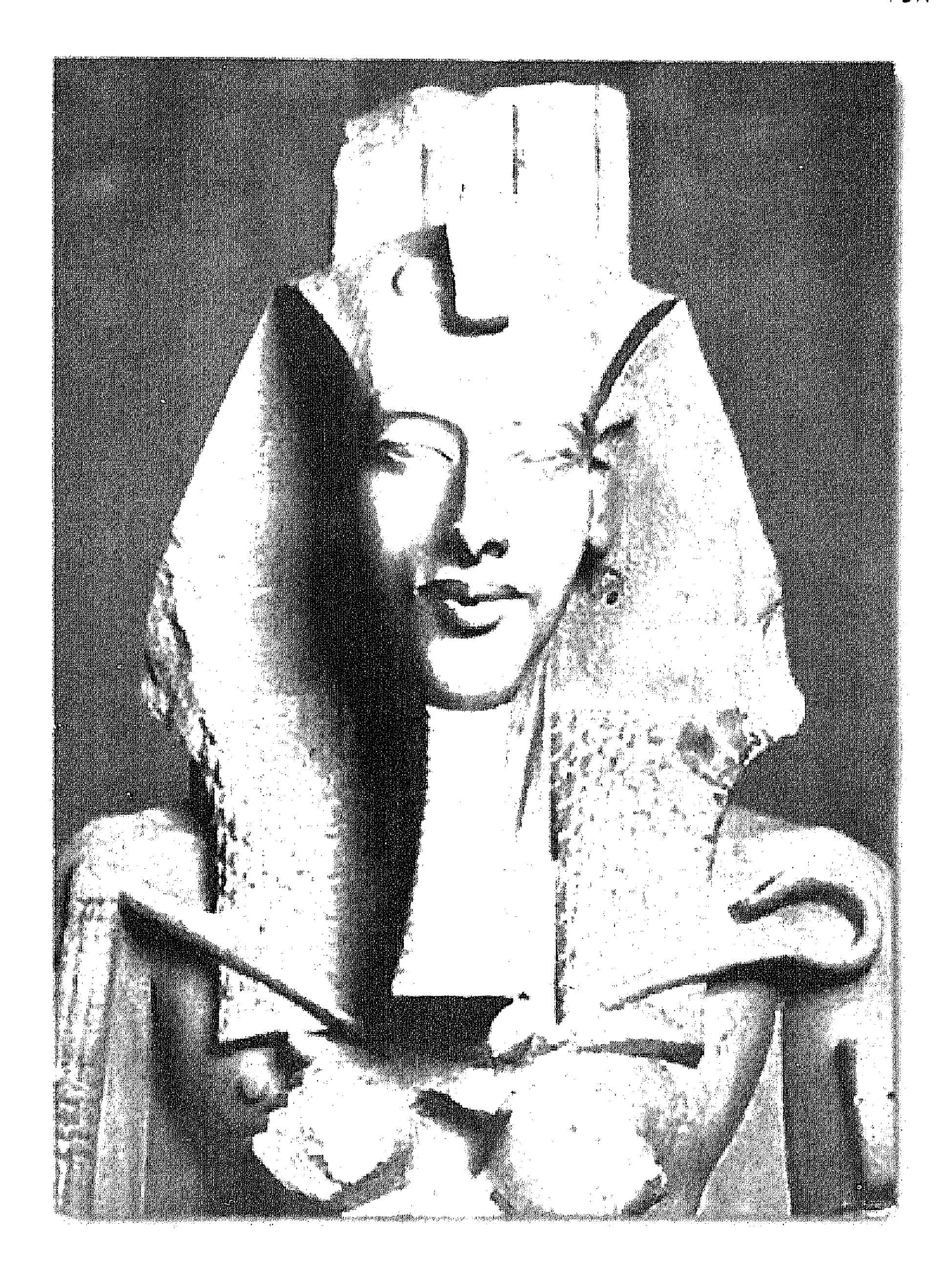
أهرامات الجيزة



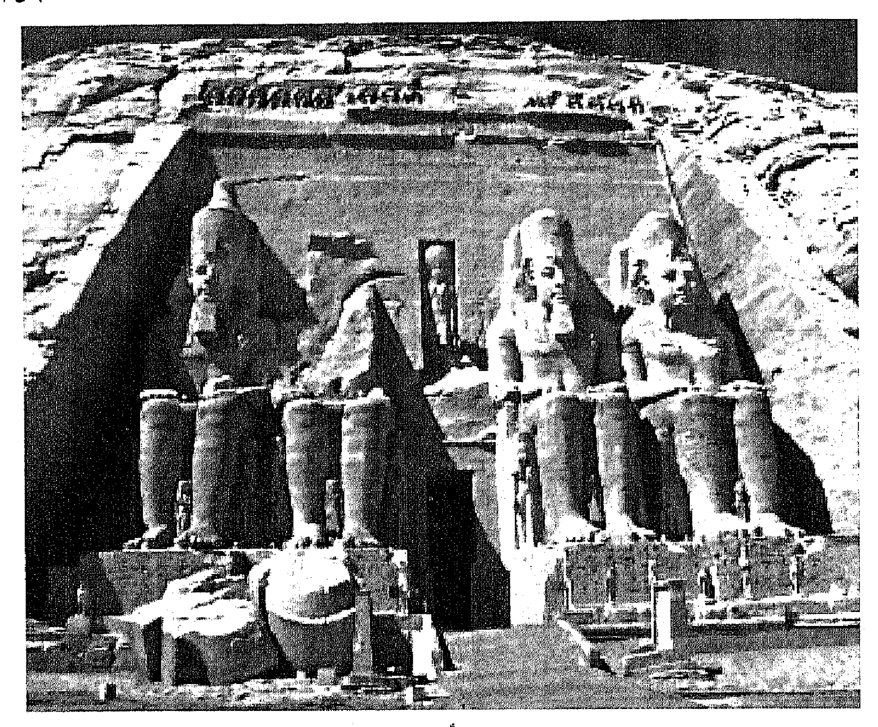
تمثال أبو الهول



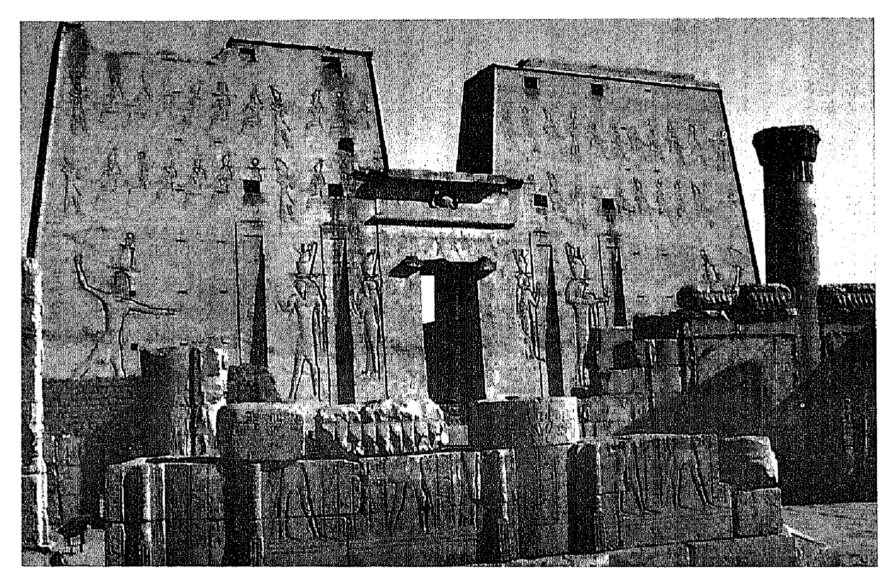
معبد الكرنك



امنحتب الرابع (اخناتون)



معبد أبوسمبل



مدخل معبد الكرنك

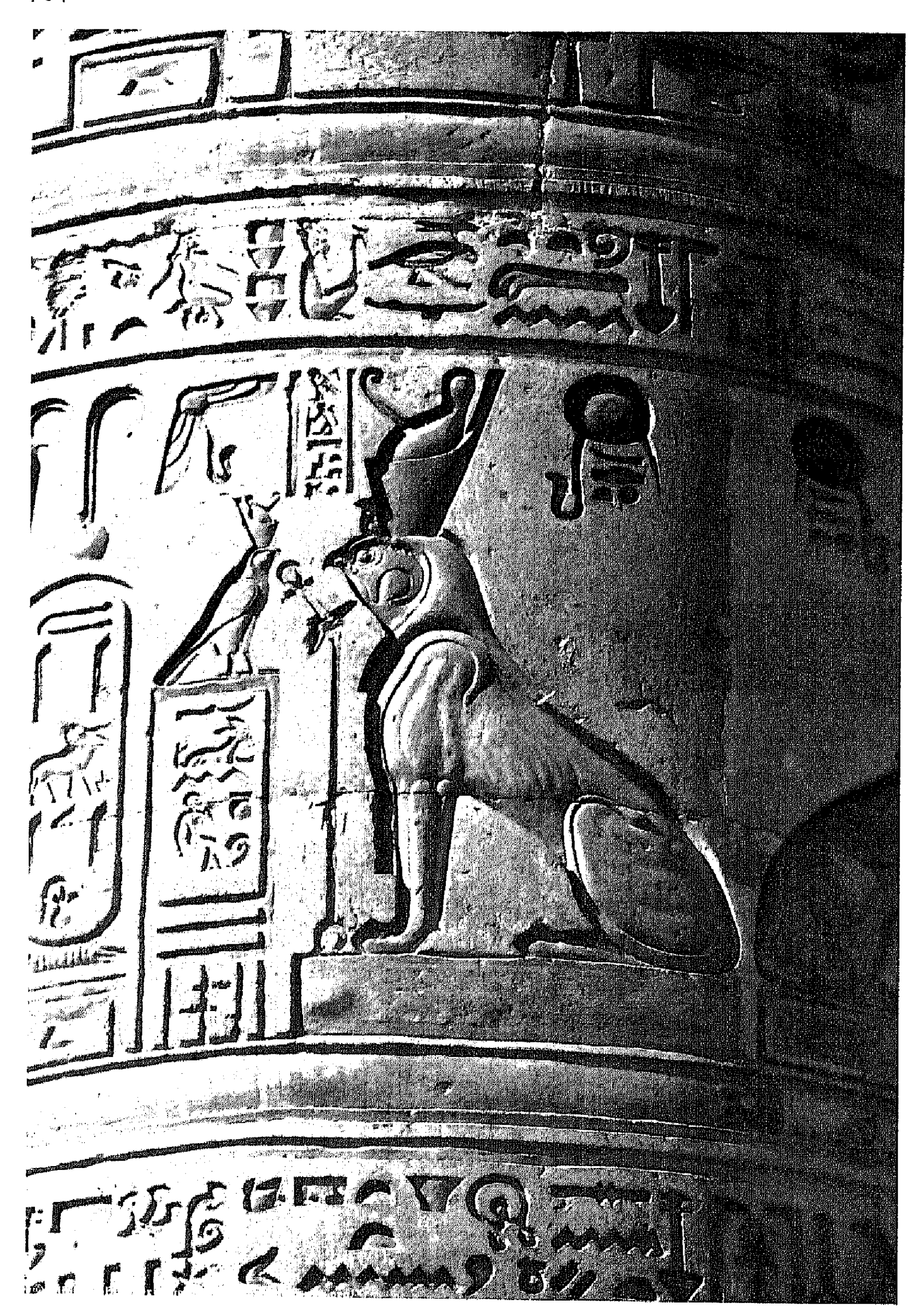


تمثال توت عنخ آمون





تمثال رمسيس الأول



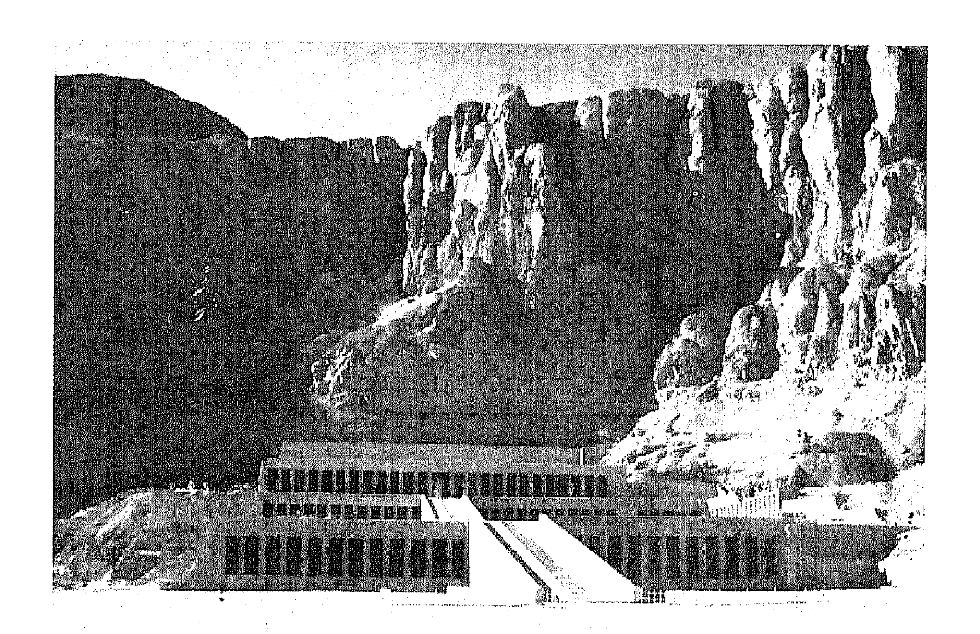
حورس بجسم أسد بمعبد كوم أمبو



الكاتب المصرى



الاسكندر الأكبر



معبد الدير البحرى

رقم الإيداع ٧٥٨٤ / ٢٠١٣م

الترقيم الدولي I.S.B.N. 978-977-322- 308-3

مطبعة صحوة

تليفون وفاكس / ٣٣٨٧١٦٩٣ - ٠١٠١٠٠٩٦٧٨